منى سلامة

عناق برائحة الورق

رواية

عناق
برائحة الورق

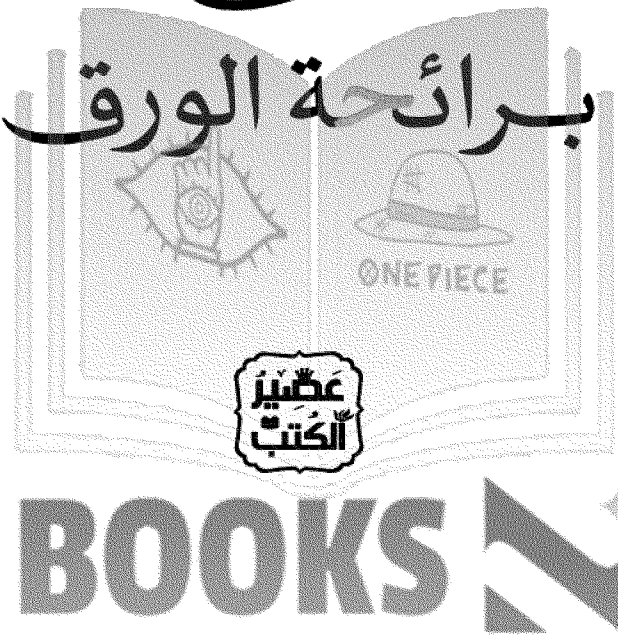

إهداء

إلى سادة الكلمات

«فلنكُن سادة الكلمات التي سوف تجعل قراءها خالدين».

محمود درويش

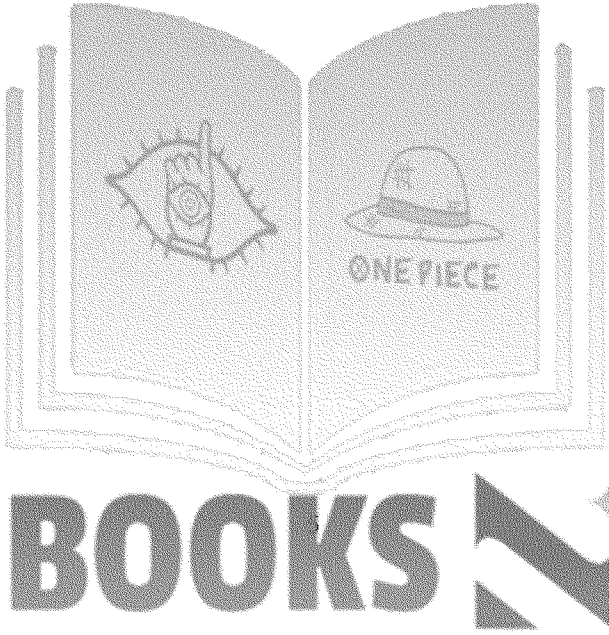

لماذا أكتب؟

لأنقذ الكلمة من سجون الممحاة.

م. س.

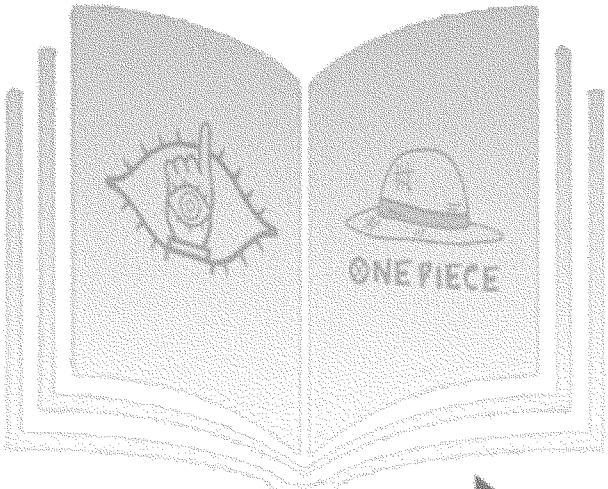

البدايات نبوءة النهايات.

هذه الرواية تبدأ من حيث تنتهي،

وتنتهي من حيث تبدأ!

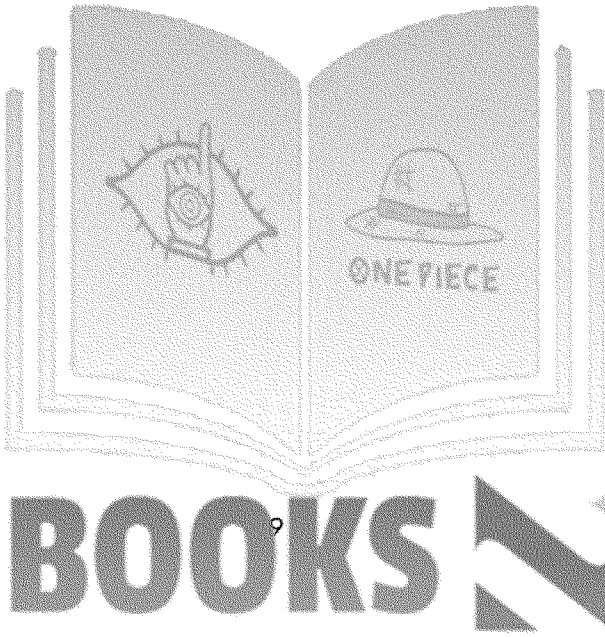

(31)

شُعلة الإدراك الأولى

صرختُ كما لم أصرخ من قبل، صرختُ حتى كاد حلقي يتشقق، وأوتاره تتمزق، صرختُ ألمًا وقهرًا وغيظًا.

قليلة هي الحكايات التي تبدأ بالصراخ، أليس كذلك؟ رغم أنه الفعل الأكثر وقوعًا في تاريخ البشرية، حتى وإن كان أغلبه بلا صوت، فما أكثر الصارخين صمتًا!

أشعر بدنو الأجل، وعادةً ما تنساق الاعترافات على ألسنة الناس في اللحظات الأخيرة قبل مواجهة الموت، وكأنهم يتطهرون بالبوح، لذا سأخبرك بواحدٍ من أسراري الثلاثة الخطيرة، لعلي من بعض أحمالي أتخفف، هل أنتَ جاهز للمفاجأة؟ ذراعي اليسرى لا تخصني، إنها متطفلة على جسدي!

الشخص الذي يتعرض لحادثة بتْر لأحد أطرافه يظل يشعر بمكان الطرف المبتور لفترة طويلة، ولا يشعر بفقدانه. حسنًا، العكس هو ما يحدث معي؛ لدي ذراع، لكنني أشعر أنها فائضة على جسدي، وكأنني ولدتُ بذراع يمنى فقط، وهذه اليسرى اللعينة أقحمها شخصٌ ما في جسدي بوقاحة.

أحيانًا يصدر عنها حركات تلقائية، وكأنها مارد تجسد على هيئة ذراع رُكِّبَت في جسدي بينما كنتُ نائمًا، مارد مخلوق لا من نار، بل من خيال!

مرَدة الخيال أضلُّ من شياطين النار أحيانًا، بإمكان أحدهم أن يلتصق بجسدك بسهولة العلقات، يصبح جزءًا من كيانك وروحك وهويتك، فلا تكاد تُفرِّق أيها هو وأيها أنت، أيها الخيال وأيها الواقع، لا أسوأ من أن تنهدم الجُدُر الفاصلة بين الخيال والواقع، أليس كذلك؟

بدأ هذا الشعور العجيب بالاغتراب عن ذراعي اليسرى منذ أيام، لا.. منذ أسابيع، أسبوعين أو ثلاثة، الزمن هنا يتدفق دون أن أملك مقياسًا دقيقًا لحصره. الذراع المتمردة -أو الخيالية إن أحببتَ تسميتها- مختلفة عن ذراعي الأخرى الحقيقية، أشعر أن لها صوتًا، أنا لستُ مجنونًا، حقًا إن لها صوتًا حادًا كأنصال السكاكين، ثقيلًا كأطنان من البلادة، حرِّيفًا كقرن شطة، لا أسمعه بأذني، بل من منتصف رأسي، يوسوس لي آناء الليل وأطراف النهار، يأمرني أن أخالف القوانين، أن أتسلق الأسوار المحرمة، أن أقترف الجرائم المُخِلة بالاستقامة، أن أتمرد، وعندما أرفض يُحايلني، يداهنني، ويسلب لُبِّي حتى أنساق وراء رغباته، أنت لا تعرف كم هذا شاق، أن يتجادل المرء طوال الوقت مع مارد الخيال الذي يحسبه الرائي ذراعك اليسرى! أنت أول من أُخبره عن ذراعي الدخيلة، لا تبُح بسري إلا في حال موتي، اتفقنا؟

***

أكف عن الثرثرة قليلًا، ولأوضح لكَ أولًا لماذا حياتي في خطر، دعني ألخص لكَ الموقف كالتالي: الكون كله يتآمر ضدي، ولا أفهم سببًا لهذا!

كاد الفأر الهزيل ينجح في قرض الدعامة الخشبية المُثبَّتة بالجدار، التي تخرج منها سلسلة معدنية سميكة، تُطوِّق عنقي بحلقة متينة، إلا إنه سقط ميتًا قبل إتمام المهمة، بعد أن كان يفصل بيني وبين الحرية مسافة قفزة زمنية واحدة! لهذا السبب صرختُ، ثم الجدار ركلتُ، ثم شعري مزقتُ، ثم أخيرًا بكيتُ؛ دموع حارقة غسلَت وجهي الذي لم يمسه الماء الوفير منذ شهر بأكمله، أتبعتُها بضحكة جنونية عالية.

ولكي تُدرك كم أن هذا مفجع، دعني أخبرك أن هذا الفأر هو الأخير من نوعه، فبلدنا خالٍ تمامًا من الفئران، لا الفئران فحسب، بل وجميع صنوف الحيوانات، لا يوجد هنا سوى البشر فحسب، وهذا مخيف جدًا كما لكَ أن تتصور! هل صدَّقتَ الآن أن الكون يتآمر ضدي؟ عاش هذا الفأر لسنواتٍ مُتخفيًا عن أعين الجميع بطريقة، الله وحده يعلمها، يأكل ويمرح ويرتع ويتكاثر، ويصيب البشر بالسالمونيلا والطاعون، ولم يُكتَب له الموت إلا في اللحظة التي أوشكتُ فيها على النجاة!

BOOKS

جائعًا، خائبًا، حانقًا تجولتُ مثل نمر جريح، وصلصلة السلسلة التي تطوق عنقي ترافقني مع كل خطوة أخطوها داخل الغرفة الصغيرة القذرة، الغرفة التي صارت زنزانتي منذ شهر كامل. توقفتُ لأنظر بحسرة صوب الفأر الميت، رعَد جسدي، وبرقَت عيناي، نبتت عاصفة بداخلي، ثم أفضَت إلى زلزال؛ هويتُ على الأرض أرتجف، كجنين حديث الولادة أنتجه مخاض الأمل، لكنه وُلد مُبتسرًا، عليل القدرة، وَهِن الإرادة، لن تُكتَب له النجاة أبدًا.

رمقتُ الفأر الميت برهةً، ثم زحفتُ على ساقين هزيلتين، وذراعين مرتجفتين حتى وصلتُ إليه، هل حاولتَ من قبل إنعاش قلب فأر تتوقف عليه حياتك؟ فهمتُ الآن كيف يخطر بعقل الغريق أن يتعلق بقشَّة!

بدايةً، لم أعرف موضع قلبه، ثم قدَّرتُ أنه إلى جانبه الأيسر كما البشر، ضغطتُ عليه بسبابتي والوُسطَى أحاول بعثه من جديد، مع كل ضغطة يتفصد جبيني عرقًا، وتزداد أصابعي ارتعاشة، وتخبت في صدري أنفاس جنين الأمل المُبتسِر.

الفأر ميت، ومهما يبلغ جزعي ورجائي لن يُبعَث مرة أخرى إلى الحياة، كي يستكمل مهمته التي أوكلته بها؛ هويتُ أرضًا مستندًا إلى الجدار بظهري، مراقِبًا جنين الأمل يلفظ أنفاسه الأخيرة هو الآخر، على ثقة بأنني سألحق بهما لا محالة، بعد ساعات.. أيام.. أسابيع، سأموت داخل هذه الغرفة الحقيرة.

صدح صوت مارد الخيال من منتصف رأسي مُعنِّفًا: «ما بكَ؟ ألن تتحرك؟ ألن تحاول بلوغ الحرية؟!».

«الحرية» يا لها من كلمة قضَّت مضاجع الملوك والأمراء، وهوَت بنفوذ حاشية البلاط، وقذفَت في قلوبهم الرعب، كلمة واحدة تُزلزل العروش، وتهبط بأعلى القوم إلى أسفل سافلين.

لا أمل في النجاة، سأموت حبيس تلك الغرفة المغلقة.. أتعفَّن.. تتحلل عظامي، سأصير نسيًا منسيًا.

***

أطلقتُ ضحكات متقطعة عالية، لا مرح فيها، سيظن مديري في مصنع السردين أنني هربتُ، كي أبيع أسراره لمنافسيه، وسيظن الدائنون أنني

هربتُ، كي لا أسدد ديوني، وستظن زوجتي أنني أخونها مع امرأة أخرى، بينما أنا هنا أتعفن داخل جدران أربعة، يُسلسِل عنقي إلى الجدار جنزيرٌ معدنيٌّ كما كان أهل البلد يفعلون مع الكلاب قبل ثلاثين عامًا!

بلا طعام، بلا فراش، لا شيء سوى طاولة خشبية، ومقعد، وقلم، وأوراق، ومجموعة من الكتب القديمة، أوراقها متقرحة، وملقاة في الأنحاء بإهمال، ودلو بالتأكيد تفوح منه رائحة أمونيا نفَّاذة، وماء عَكِر يكفي ليومين إضافيين بالكاد.

انفجرتُ باكيًا، وأنا أحمل جسد الفأر الميت متوسلًا:

- أرجوك استيقظ.. ما زلتُ في الأربعين من عمري.. لا أريد أن أموت الآن.

في الأربعين، بينما آمالي صارت عجوزًا تتوكأ على عصا الحياة النخرة، لا أسوأ من أن تشيخ آمال المرء قبله. في منتصف رأسي ركلني الصوت الماردِيُّ هادرًا كسيْلٍ جارفٍ لا يصمد شيء في طريقه:

- انهض وإلا قتلتكَ بنفسي، يكفي صياحًا كنوَّاحة استأجرها أهل ميتٍ للبكاء عليه، لم يبقَ سوى أن تلطم خديكَ، وتشق قميصك!

كعادته؛ يظن كل شيء بسهولة كلماته، كم من السهل أن يخبركَ صوت قادم من رأسكَ بما عليكَ فِعله، يُملي عليكَ نصائحه الثمينة، وأوامره المتينة، كما لو كان وحده يعرف، وأنتَ لا شيء تعرفه!

انتفضتُ مُحتدًا بدوري بينما أدور في الغرفة مثل المجنون:

- وماذا تريدني أن أفعل؟ هل أقطع رأسي كي أتمكن من فك القيد عن رقبتي، أم أقرض بأسناني الدعامة الخشبية التي تُثبِّت السلسلة في الجدار مثلما ظل هذا الفأر يفعل لأسابيع؟

أجابني ببروده المعهود:

- افعل واحدة منهما أو كلتيهما معًا إن لزم الأمر.

الجميع عظماء، أقوياء، أذكياء، حتى تفضحهم التجربة، ليتني أستطيع وضع الصوت الشيطانيِّ أمام محك التجربة، لكنه مجرد صوت خياليٍّ، والخيال لا يمكن اختباره، أليس كذلك؟

أردفَ بغضبٍ بينما صدى كلماته يرن داخل رأسي، ويكاد يشطره نصفين:

BOOKS

- أنت مجرد رجل بائس لا وزن له ولا قيمة وسط ملايين الأرواح، مواطن معتوه يظن أنه وُلِد في العالم الخطأ!

صحيح أن مردَة الخيال يكذبون في غالب الأحيان، لكنه صادق هذه المرة، أشعر فعلًا وكأنني وُلِدتُ في العالم الخطأ، طوال حياتي يلازمني شعور بالغربة؛ أنني لا أنتمي لهذا العالم، عرَفتُ فيما بعد أن لهذا الشعور مرادفًا من كلمة واحدة بالإنجليزية Monachopsis -لا تتعجب، صحيح أنني عامل بمصنع السردين الوحيد بالبلد، لكنني لستُ جاهلًا تمامًا بالإنجليزية- وتعني الشعور المستمر بأنني لستُ في المكان الصحيح، وعاجز عن التكيف مع العالم من حولي، عندما عثرتُ على الكلمة شعرتُ أنني عالِم أمراض اكتشف اسمًا جديدًا لمرضٍ قديم مُتفشٍ، لستُ ضعيفًا، بل مسالمًا، لا يسمح له العالم أن يعيش سِلميَّته.

سددتُ بيميني لكمات عشوائية إلى رأسي، بينما أدور حول نفسي في حلقات مفرغة، كانت أمي خبيرة في تفسير الأحلام، يأتيها جيرانها ساعة العصاري يقصُّون عليها رؤياهم، فتعد الشاي بالحليب والكعك، وتفتيهم فيها بعلمها وحكمتها، ومن الاستماع إلى أحاديثها عرفتُ أن الغرف المغلقة في الأحلام رمز للأمن بعد خوف، وأن من رأى نفسه يبني غرفة، فهذه دلالة رزق وخير، لماذا إذن تبدو الغرف المغلقة على الحقيقة سجنًا وقبرًا؟!

***

يجب أن أحاول النجاة؛ عندما يأتي السيد «ك»، ويكتشف أمر الدعامة الخشبية المتآكلة، سيفهم كل شيء، سيعرف أنني أحاول الهرب، وأنني كنتُ أُلطِّخ الدعامة بالطعام الهزيل الذي يحضره مرة كل أسبوع، أستدرج به الفأر الذي يطل عليَّ من النافذة الصغيرة المفتوحة أعلى الجدار الشرقيِّ، يسيل لعاب الفأر فيقرضها، يُخلخلها لأتخلص من عناق الأسْر، وأُلقي بنفسي بين ذراعَي الحرية.

يجب أن أحاول النجاة قبل أن يأتي السيد «ك» ليتفقدني كعادته في صبيحة كل يوم، أنتَ لا تعرف السيد «ك»؛ إنه الشيطان الذي تحذرنا أساطير الأولين ألا نجلس معه على طاولة واحدة، الآن نعقد معه صفقة تحقيق أحلامنا مقابل أرواحنا. الشيطان الذي حبسني في غرفة الخفير، كي أكتب له رواية!

أنا كاتب ظِلٍ بائسٍ، هذا هو سري الثاني!

***

أنا مَدين لنفسي بالمحاولة؛ ألقيتُ بجثة الفأر في زاوية الغرفة، وأمسكتُ بالدعامة الخشبية، أحاول انتزاعها من الجدار بأظافر لم تُشذَّب منذ ثلاثين يومًا، انكسر ظفر إبهام يدي اليمنى، ثم سبابة اليسرى، ثم خنصر اليسرى، ثم بنصر اليمنى، حتى تشقق اللحم عند أطراف أصابعي، وتخضّبت الدعامة الخشبية بدمائي ممزوجةً بلُعاب الفأر.

صدحت الكلمات الهازئة في رأسي: «عجزتَ أن تكون بقوة فأر، لو كان بالإمكان تحويل فشلك إلى بترول لصرتَ أغنى أغنياء العالم!». غلت الدماء في عروقي، وصعدت إلى رأسي تحرق خلاياه بنيران الغيظ، اتكأتُ بكفيَّ فوق الأرض، ونزلتُ فوق الدعامة بأسناني أنهشها نهشًا، أزمجر ألمًا مع كل عضَّة، وكأن أسناني تُنتزع من فكي نزعًا. يُقال إن الإنسان يجد في نفسه طاقة لا قِبَل له بها عندما يكون في مواجهة الموت، يتحداه بكل ما أُوتِيَ من رغبة في العيش، يتسرب الأدرينالين إلى دمائه، فيمنحه قوة لم يختبرها من قبل.

بكل عزم تربَّى في حظائر الأمل، وبرغبة رجل غير مستعد لمواجهة الموت؛ عضضتُ الدعامة الخشبية بأسناني، وجذبتُها بأناملي الدامية في الوقت ذاته. هل رأيتَ من قبل أدوات خلع الضرس المستخدمة في القرن التاسع عشر؟ كان الحلَّاق هو الذي يؤدي مهمة خلع الضروس، إذ لم يكن قد ظهر وقتها مسمى طبيب أسنان، وصدقني.. تسليم فكك لحلَّاق لم يفرق كثيرًا عن الألم الذي أكابده الآن، وأنا أنتزع الدعامة بأسناني.

أخيرًا، تخلخلت القطعة الخشبية، وسقط معها سن أمامية من فكي العلويِّ، استطعتُ تحسس مكانها الدافئ بطرف لساني، بينما الدماء الحارة تغرق فمي، يقول زملائي عني إنني مخبول، تسيل الهراءات من بين شدقيه، فلينظروا الآن ماذا فعل المخبول المتحدث بالهراء كما يدَّعون!

بكيتُ هذه المرة فرحًا، «نجوتُ»، هكذا صحتُ وأنا أستكمل انتزاع القطعة الخشبية من الجدار، لم يُثنِ مارد الخيال على جهودي، لم يقُل لي: «أحسنتَ»، وكأنه ما خُلِق إلا ليبث اليأس في نفسي، وعندما لا يجد الفرصة مواتية لدعسي يصمت مبتلعًا لسانه.

BOOKS

أمسكتُ بالسِّن المكسورة، ووضعتُها خلسةً في جيب بنطالي، تجتذبني حكايات جنية الأسنان التي تأتي للناس ليلًا لتقايض أسنانهم المخلوعة من تحت وسائدهم بهدية، إذا زارتني ليلًا سأطلب منها أن تمنحني القدرة على تجسيد خيالاتي مقابل سني. حاولتُ إخفاء السن دون أن ينتبه المارد لما أفعل، وإلا لَلَاكَ ساخرًا فعلتي في فمه كعلكة.

ألقيتُ نظرة وداعٍ على الفأر الميت القابع في الزاوية، عليَّ الاعتراف؛ لولاه لما تمكنتُ من خلخلة الدعامة، فقد سهَّل عليَّ المهمة. لم يكن فتح الباب صعبًا، فالسيد «ك» لم يتوقع أنني سأتمكن من تحرير رقبتي من السلسلة وبلوغ الباب، عدة ضربات بالكرسي كانت كافية لخلخلة الألواح الهزيلة، وضربات أخرى بكتفي مكنتني من فتح شقٍ كافٍ لأمد يدي، فتدير المقبض المقفل من الخارج.

برودة الهواء تصفعني، تركتُ الرياح تعبث بشعري الأشعث، وتتخلل شعيرات لحيتي النابتة، مانحًا الفرصة لفم الشمس الباهت كي يُقبِّل جبيني لأول مرة منذ أن سجنني السيد «ك» في غرفة الخفير.

***

سلَّمتُ ساقيَّ للريح، أعدو كأنني في ماراثون سينتهي إما بالفوز وإما بالموت، ما إن وصلتُ بطاقتي الهزيلة إلى أبعد نقطة ممكنة عن منزل السيد «ك» حتى وقفتُ أنظر ورائي وألهث، أخال هذه الحادثة هي أسوأ ما وقع في حياتي، الأحداث الصادمة على قدر ما هي مؤلمة إلا أنها تقدح في الإنسان شرارة التغيير الأولى، لذا قررتُ أن أكتب رواية محرمة، هذا هو سري الثالث!

أخبركَ بذلك بينما ألاحظ بفزع أن روائح العالم قد انحسرت عن أنفي؛ لم أعد قادرًا على أن أشتم شيئًا سوى رائحة كبريتية ممزوجة بنفحة رماد مع عطر خشبيٍّ ثقيل، تنبعث من كل شيء، وأي شيء؛ الهواء، النبات، الجماد، وحتى العَرق المنبعث من جسدي!

أين اختفت رائحة العالم؟

***

بعد مرور عام...

(32)

زهر العسل

كنتُ لأصف لكَ بإسهابٍ مدى استمتاعي بالرائحة العطرية المنبعثة من زهور الليلك البنفسجية المتناثرة في الجهة اليمنى من منزل السيد «ك»، والعطر الليمونيِّ الحلو الذي يفوح من زهر العسل المنتشر على يساره، وعبق الأرض الندية بعد أن توقفت السماء للتو عن البكاء المتواصل لخمس وعشرين دقيقة، لولا أن أنفي لم يعد قادرًا على تمييز الروائح!

الرجل الذي حبسه السيد «ك» في غرفة الخفير قبل عام خرج منها رجل آخر؛ يؤمن أن ذراعه اليُسرى لا تخصه، ويشم للعالم رائحة كبريتية ممزوجة بنفحة رماد مع عطر خشبيٍّ ثقيل، أنتَ نفسك -يا عزيزي- مجرد وهْم؛ كائن خياليٌّ بلا ملامح ابتكره عقلي، كنت أبادله الحديث في أثناء فترة حبسي كي لا أجن، لكنني لم أتمكن من التخلص منكَ، وكأنني أدمنتُ محادثة صديق خياليٍّ لا يُرَى ولا يُسمَع، ليت كل الأصدقاء مثلكَ؛ لا أصوات لهم!

أحيانًا أتخيل أنني التقيتكَ للتو، فأقص عليكَ من جديد حكاية بلدنا الذي يُمنع فيه النطق بالحاء! نعم، لا أخدعكَ، غير مسموح لأحد أن ينطق بأي كلمة بها حرف الحاء، ولا أن يكتبها، ولا أن يقرأها، ولا أن يسمعها.. غريب، أليس كذلك؟

تسألني كيف أنطق معكَ بكلمات حائية دون أن أخشى بطش شرطة رقابة الأبجدية؟ هذا بسيط يا عزيزي، أنتَ مجرد خيال في رأسي، لا أحتاج إلى صوت حقيقيٍّ كي أخاطبك.

«حِزام»، «حِصان»، «مفتاح»، «حلو»، «مرح»، «ملح»... تُعد جميعها من المحظورات في هذا البلد.

- أنتظركَ ظُهرًا.. (السيد «ك»).

أعدتُ قراءة الرسالة النصية المقتضبة التي أتتني صباح اليوم على هاتفي النقَّال، لا نقول محمولًا! وكما ترى، هي خالية من الرجاء، أو اللطف، أو الحفاوة أو أي مشاعر بشرية بين طالب ومطلوب، أو حتى بادرة ندم أو اعتذار عما بدر منه في حقي قبل عام، إلا أنكَ تستطيع أن تسمع من حروفها نبرات التهديد إن أنا تركتُ السيد «ك» ينتظر طويلًا، ونبرات الوعيد إن أنا تقاعستُ عن تنفيذ فرمانه. ربما يحبسني السيد «ك» في غرفة الخفير مرة أخرى إن لم أُلبِّ نداءه، وربما يقتلني هذه المرة، ويُنهي الأمر، لهذا أنا مُجبَر على المجيء كما ترى.

***

تسألني: «لماذا الحاء؟»، أنا أيضًا سألتُ نفسي هذا السؤال مئات المرات، وكذا فعل كل شخص في هذا البلد، قبل ثلاثين عامًا عندما انتهت الحرب الأهلية بهزيمة الجميع، خلَّفَت وراءها الجثث والأشلاء، والأيتام والأرامل، والحرائق والنهب والدمار والخراب، منذ ذلك الوقت طالب الباقون على قيد الحياة بتأسيس مجلس للبلدية يعيد إعمار بلدنا المُدمَّر، اختاروا أفضل تسعة رجال من بينهم، أقوى وأمهر وأبرع من خلَّفتهم الحرب وراءها، سلَّموهم لا إدارة البلد فحسب بل وحيواتهم كذلك، مشترطين شرطًا لا رجعة فيه؛ أن تُحذف الحاء من الأبجدية!

لا أخفيكَ سرًا، رغم أن عمري وقتها كان عشر سنوات، فإنني لا أنسى الاضطراب الذي ساد قلة متشككة من أهل بلدنا، وخاصةً الصغار منا؛ لماذا يُلزم الناس القادة التسعة لمجلس البلدية بهذا الشرط العجيب؟! ولماذا الحاء بالذات؟! قيل لنا: «الحرف الملعون كان السبب في اشتعال الحرب!».

BOOKS

في البداية، كان الأمر عصيًّا على الأفهام، كيف يغضب الناس على حرف؟ كيف يكون حرف من الأبجدية سببًا في حرب طاحنة أهلكَت الحرث والنسل؟! تخيَّلتُ الحاء شريرًا مُلثَّمًا يرتدي السواد، ويركب حصانًا أدهم حاملًا سيفًا بتَّارًا يحصد رؤوس الناس.

كانت صفقة، هكذا تعامل معها الجميع بما فيهم المتشككون؛ سيُعاد تعمير بلدنا، سيحصل كل رجل على عمل، وبيت صغير يكفيه وأسرته، سننال كل ما لنا من حقوق كمواطنين في هذا البلد، كل ذلك مقابل حذف الحاء من الأبجدية فقط، ومن ثم حذفها من ألسنتنا وكتبنا وأفهامنا وحديث أنفسنا، صفقة رابحة، أليس كذلك؟

لا، لم تكن كذلك، هذا ما ستراه بنفسكَ، لكن دعني أولًا ألقي التحية على هذا البستانيِّ الذي انهمك في سقاية زهور الليلك حول منزل السيد «ك»، هززتُ رأسي مُرسِلًا تحية خاطفة للبستانيِّ قصير القامة خفيف الحركة، الذي أراه للمرة الأولى، بادلني بمثلها، ثم قال:

- نهار جميل.

رُمتُ بطرفي إلى الوحل حول قدمَينا، أومأتُ برأسي، وأنا أرمق الندوب البارزة فوق وجه البستانيِّ، إذا كان عُمر المرء يُقدَّر بالآثار التي يتركها الزمن فوق وجهه، فهذا الرجل تخطى ألف عام. قلتُ:

- جميل.. لولا المطر.

رفع رأسه للسماء، طاف فيها بعين واحدة، ثم ثبَّتها فوق نقطة خلف كتفي، للبستانيِّ عين مفقودة يُخبِّئها خلف قطعة جلد تجعله أشبه بقراصنة الفايكنج. قال بخفوتٍ، وكأنه يبوح بسرٍ ثقل حمله:

- المطر لا يؤذي.. زهر العسل يفعل.

التفتُّ لأرمق زهور العسل المزروعة في الطرف الآخر، التي لم تكن هنا حين قدمتُ إلى هذا البيت آخر مرة، أو بمعنى أدق: حين هربتُ منه بعدما حررتُ نفسي من الأسْر، يبدو أن السيد «ك» قد قرر فجأةً زراعة الزهور حول بيته. التفتُّ إلى البستانيِّ مُعقِّبًا:

- إنها زهرة طيبة لا تؤذي؛ ليست سامة كالنرجس البريِّ، أو زنبق الوادي مثلًا.

غامت السماء، وكأنها على وشك البكاء من جديد، فرك البستانيُّ الطين عن كفيه، ثم لمس بأطراف أصابعه الطوق الرماديَّ الملتف حول رقبته، وهو يفصح:

- بل تؤذي.. قلتُ للسيد «ك» ألا يزرع زهر العسل، لكنه لم يستمع لي، وكأنه مندوه!

- مندوه؟

- ندهَته ندَّاهة زهر العسل!

شعرتُ بغتةً أن الحوار أسخف من احتمالي؛ أومأتُ برأسي صوب البستانيِّ في اتفاق كاذب، ثم رفعتُ يدي لتحيته، أو لإسكاته، لكن الرجل اللعين لم يسكت كأنني فتحتُ شهيته للثرثرة؛ اقترب مني مُسترسِلًا بعين متسعة مترقبة:

- زهر العسل يُفسِد التفاصيل، ويُبدِّل الأدوار، يقلب السماء أرضًا والأرض سماءً. في زهر العسل يسكن مردَة الخيال، ومردَة الخيال يكرهون الواقع ويعبثون بقوانينه. قد نستيقظ يومًا، فتجد نفسكَ أنا، وأجدني أنتَ، أو أجدني جدارًا، ويجد السيد «ك» نفسه صخرة أو ترابًا!

توقف بغتةً، وقد أدرك ما تلفظ به للتو، فرجاني بخوفٍ حقيقيٍّ:

- لا يمكن للسيد «ك» أن يصير ترابًا بالطبع، ربما قمرًا أو شمسًا أو هرمًا رابعًا. لا تخبر السيد «ك» أنني قلتُ ذلك؛ أنا عجوز خرف يا ولدي، لا أعي نصف ما أتفوَّه به، وأنسى نصفه الآخر.. ها.

الجميع يخشى السيد «ك»، والبستانيُّ ليس استثناءً؛ السيد «ك» يعرف جيدًا كيف يكون وغدًا لا يرحم، أعرف ذلك، لأنني سبق أن بِعتُ له روحي. لم أعرف كيف أصرف البستانيَّ بلباقة دون أن أسبب لنفسي وله الحرج، وقبل أن أقرر شيئًا مال صوبي بغتةً، ظننتُه سيحيِّيني مُقَبِّلًا وجنتي كما يفعل الناس عند اللقاء، وهي عادة أمقتها بشدة، إذ لا أحب أن أسمح للغرباء بالدنو مني إلى هذا الحد، لكنه فعل أغرب ما قد يُقدِم عليه غريب تجاه آخر؛ مال على عنقي البادي من فتحة القميص المقلَّم السماويِّ متشممًا إياه، ومنه إلى

BOOKS

وجنتي، وعندما دنا من شعري الأسود القصير الذي غسلته دموع السماء قبل قليل؛ انتفضتُ مبتعدًا في حدة، استمال الانزعاج وجه الرجل، حدَاه الاضطراب، وهو يقول مُشيحًا بكفه:

- ينبعث منك عبير زهر العسل؛ أنتَ منهم.. انصرف عني.. انصرف!

لم أفهم «مَن هُم؟»، الرجل كما قال بنفسه: «عجوز خرِف»؛ لا يمكنه أن يشم في جسدي رائحة زهر العسل، لأنني لم أقربه منذ أن ماتت أمي في الحرب الأهلية قبل ثلاثين عامًا، أتذكّر جيدًا رائحة زهر العسل رغم أن عمري وقتها كان عشر سنوات، كانت أمي مغرمة بزراعته في شرفة بيتنا، دائمًا ما كانت تصف رائحته بشمس جُمِعَت أشعتها في زجاجة؛ مزيج فريد من الليمون والفانيلا والعسل، اعتدتُ لعق الرحيق من ساقها وأكل أوراقها.

عاد البستانيُّ لسقاية الليلك بحماسةٍ، وكأنه العمل الوحيد الذي يجدر الاهتمام به في هذا العالم، بينما يرمق أزهار العسل، ثم يرمقني شذرًا، كأنه يخشاها ويخشاني!

***

وقفتُ أمام باب منزل السيد «ك»، وقرعتُ الجرس، وريثما أسمع صوت «التكتكة» المعدنية لفتحه، دعني أخبركَ عن بلدنا، فأنتَ الآن واحد منا.

ظن الناس أنهم لن يفقدوا شيئًا بنزع الحاء من الأبجدية، استبدلوا بعض الكلمات التي لها مفردات أخرى غير حائية؛ «الدكان» بديل «المحل»، «الزقاق» بديل «الحارة»، «النهار» بديل «الصباح»، و«الكابوس» بديل «الحلم»، حتى إن المرأة «الحامل» أصبحنا نصِفها بأنها «عُشر» كإناث الحيوانات!

لكن شيئًا فشيئًا فقدَ الناس معاني الكلمات الحائية التي لم يعودوا قادرين على التلفظ بها، هل تصدق أن الناس في بلدي لا يشعرون بـ«الحنين» مثلًا؟ يعيشون يومًا بيوم، لا يُشكل لهم الماضي سوى جسر للوصول إلى الحاضر، والحاضر جسر للوصول إلى المستقبل، صار الماضي بالنسبة إليهم باهتًا، مشوشًا، شفافًا؛ ذكرى بعيدة لا يحبون اجترارها. ترى الناس هنا وكأنهم وُلِدوا للتو؛ يستبدلون أحباءهم وأزواجهم، وأصدقاءهم وزملاءهم، وأعمالهم واهتماماتهم بالسرعة ذاتها التي تنتهي فيها أعمار الفراشات[1]. الناس هنا لا

(1) متوسط عمر الفراشات من 20 إلى 40 يومًا.

يحملون مشاعر الأمس إلى اليوم، ولا يحملون مشاعر اليوم إلى الغد، هذه هي القاعدة، وأنا الاستثناء الذي يشذ عن القاعدة!

دوى صوت «تَكتَكة» معدنية، وانفتح الباب، الناس في بلدنا يستعينون بنظام إلكتروني لفتح أبواب بيوتهم وسياراتهم، وشركاتهم ومصانعهم ودكاكينهم، لماذا؟ لأن في بلدنا لم يعد ثمة «مفتاح»!

طالَب الناس بمنع النطق بالكلمات الحائية بألسنتهم، أو تدوينها في الكتب، وإيجاد مسميات بديلة غير حائية، قانون بسيط كما ترى، لكن الناس لا يأخذون القوانين بهذه البساطة. لم يتضمن القانون شرحًا أو تفصيلًا، فتبرعت الأفهام المتباينة بإضافة الشرح وتحديد التفاصيل، يخلقون لأسئلتهم المطاطة أجوبة واسعة رحِبة، نادى منادٍ أن المنع -بحسب ما فهم- ليس التلفظ بالكلمات الحائية فحسب، وإنما بمحوها من حياتنا تمامًا، ونادى آخر بأنه سمع من فلان عن علَّان عن تلتان أن رجلًا قريبًا من أحد أعضاء مجلس البلدية أخبره أن المنع يطال الموجودات كما الكلمات.

وهكذا، أخرج الناس من حيواتهم تدريجيًّا كل كلمة حائية مخافة الإخلال بالقانون الذي فرضوه على أنفسهم، فيُحَل مجلس البلدية تلقائيًّا لعجزه عن تطبيق الشرط، ويعيث الحرف الملعون فينا فسادًا، وتعود البلاد ساحة حرب. لم يكن الأمر صعبًا، رويدًا وعامًا وراء آخر انتُزِعت تلك الكلمات من الوجدان وقاموس الموجودات وكأنها لم توجد قط، خاصةً في نفوس الأجيال الجديدة.

لك أن تتخيل بيوتنا الآن تحتاج إلى نظام إلكترونيٍّ لغلقها وفتحها، يستلزم ذلك دفع ضرائب شهرية باهظة لمجلس البلدية، تثقل كاهل الطبقة المتوسطة، فيُفعِّلونها شهرًا، ويغلقونها أشهرًا، أما الفقراء فيمكن تمييز بيوتهم بسهولة، إذ إنهم يتركون أبوابهم مفتوحة على الدوام.

نحن في البلد الذي تُترك فيه أبواب البيوت مفتوحة على مصراعيها، وتتبدد فيه الخصوصية، وتُنتهك فيه الحُرمات بملء السمع والنظر، فكما ترى «الحُرمات» كلمة حائية محظور استخدامها، لم يعد لها وجود في عالمنا الآن.

***

BOOKS

على الهامش(*)

(*) عام كامل لم تطأ قدماي القاعة الفسيحة التي اعتاد السيد «ك» أن يستقبل فيها زواره: الأثاث العريق، الجوالقاتم، الأسقف المرتفعة، ورق الجدران السكَّريُّ ذو الرسوم الصغيرة، النوافذ الطويلة التي تكشف أكثر مما تستر، بقي كل شيء على حاله، وكأن الزمن لم يمر من هذا المكان.

يملك السيد «ك» من الآثار أكثر مما كان يحويه المتحف الرئيسيُّ بوسط البلد، إذ بيعَت محتويات المتحف تباعًا في مزادات علنية -وأخرى سرية لذوي الألقاب الخاصة- لدعم الميزانية العامة للبلد، وهو ما عده الناس قرارًا واعيًا ووجيهًا، فأطلال الماضي وآثاره الباقية لا تستجلب سوى الحسرات، وكما ترى، «الحسرة» تحوي حرف الحاء المغضوب عليه، لذا فهي من الكلمات الممنوع النطق أو الشعور بها، هذا بالإضافة بالطبع إلى كون كلمة «متحف» تحوي الحرف نفسه.

استغرقني الوقت في تأمُّل تفاصيل تمثال كاتب من عصور الدولة القديمة، يجلس القرفصاء فوق قاعدة خشبية، وعلى حجره ورق بدائي الصُّنع مُعَد للكتابة، موضوع في مكان بارز ليكون محط أنظار الزوار.

لم أشعر بالدقائق تتسرب من جعبة الوقت إلا عندما سمعتُ وقْع أقدام رصين من خلفي، فلما التفتُّ التحمَت نظراتي بعينين عسليتين واسعتين مُكحَّلتين مُشعَّتين ببريقٍ أخَّاذ وكأنه ضي القمر. كان من عادة السيد «ك» أن يستبدل خادماته بالسرعة ذاتها التي يضم بها قطعة ملابس جديدة إلى خزانته، كل خادمة أقبح وأوقح ممن سبقتها، هذه المرة اختار شابة لم تطأ أعتاب الثلاثين، تجمع

شعرها الأسود للخلف في ذيل يلامس كتفها بالكاد، ترتدي فستانًا طويلًا أسود بالكامل، ذا أكمام طويلة، ورقبة عالية من الدانتيل، تُخفي طوق رقبتها الرماديَّ بأن لفَّت فوقه وشاحًا أسود. متوسطة في كل شيء؛ الحجم، القامة، السمار، الجمال، واللافِت أكثر من هذا كله شامة بحجم قطرة حِبر تعلو الطرف الأيسر من شفتها العلوية.

بغير وعيٍ لامَس إبهام يدي اليسرى الحلقة الفضية التي تخنق خنصره، ثم تنحنحتُ جالسًا فوق أول مقعد مُذهَّب مرتفع الظهر.

- بابونج أم شاي الخرشوف؟

تساءلَت بهدوء، حتى كادت الريح تسرق كلماتها قبل أن تستقر على أعتاب مسامعي. لم أعد نشرب الشاي الأحمر، آه، كم أفتقد الشاي بالحليب الذي كانت تعده أمي في صغري مع البسكويت أو الكعك البيتي اللذيذ! الآن صارت «الحلوى» من الممنوعات!

- شاي الخرشوف.

فوق المنضدة المقابلة لي، التي تتلامس مع ركبتيَّ وضعَت الخادمة صينية فضية، وبصبرٍ وحرصٍ ودقةٍ صبَّت الشاي، أخذ السائل الأصفر يتدفق من فوهة البرّاد بروية، وكأنها تملك وقت العالم كله. شق لسان البرق صفحة السماء التي اهتزت مُرعدة، ازدادت وتيرة نقرات المطر على النوافذ التي كشفت عن سماء مُلبَّدة قاتمة. غالبًا ما يرتبط البرق والرعد في الروايات والأفلام بجريمة قتل، أو حادث بشع، أو فِعلة شائنة، أو مصيبة تقع فوق رأس البطل. ربما لأن الكاتب غالبًا ما يعجز عن مقاومة رغبته في تضافر مشاعر بطله مع مفردات الطبيعة من حوله.

- كم مكعبًا مُرًا؟

انساب صوتها بنفس وتيرة صب الشاي: مُتمهِلًا، دقيقًا، دافئًا، يعلو فوق صوت المقطوعة الأوبرالية التي تنبعث من مكانٍ ما، وكأنها خلفية مشهد. «المُر»، مكعبات بديلة لحلاوة السكر، لها نكهة لاذعة ورائحة لاسعة. تنحنحتُ بغير سبب:

- نصف اثنين.

كما ترى، لا أستطيع النطق بـ «واحد». «نصف اثنين»، هكذا نقول كلما قصدنا قول «واحد». تحسستُ الطوق الرماديَّ الملتف حول رقبتي، إنه كالأطواق التي كنا نلفها على رقبة الكلاب قديمًا كي تُعرف بها. أذكر أنني أخبرتُك من قبل أنه لم يعد ثمة «حيوانات» في هذا البلد، انقض عليها الناس بالقتل واحدًا تلو الآخر، زعم مثقف نخبويٌّ كبير أن «الحيوانات» هي أول الموجودات الحائية التي يجب التخلص منها، أتبعه قول مُقدِّم برامج شهير، ثم فتوى أقرَّبها شيخ المسجد الكبير، ومن بعدها خرج الناس في الشوارع والميادين يجتزون رؤوس الحيوانات جزاً، ويخضبون أياديهم بدمائها، ورغم عمري الصغيروقتها، محتضنًا قِط أمي بين ذراعيَّ، رحتُ أنادي فيهم باكيًا:

- ما ذنب الحيوانات؟!

فلم أنَل وسط حالة الغوغائية سوى صفعة على وجهي، وضربة فوق رأسي أفقدتني الوعي بعدما سمعتُ شهقة الموت تخرج من قِط أمي.

المهم، فلنعُد إلى الطوق الملتف حول رقبتي، الذي يلتف مثله حول عنق الخادمة، والبستانيّ، والسيد «ك»، وأي مخلوق يعيش في بلدتنا. إياك أن تحاول نزع الطوق عن رقبتي أو رقبة أي مخلوق تلاقيه هنا؛ للطوق أهمية أكبر مما يتصوره عقلك، عن طريقه تستطيع شرطة رقابة الأبجدية متابعة كل ما ننطق به، وفي حال تفوهتَ بكلمة بها حرف «الحاء» يصدر عن الطوق صوت يصم الآذان، وتُرسَل إشارة بموقعك إليهم، وخلال دقيقة أو يزيد تهجم عليكَ الشرطة لاقتيادك إلى المركز، وهناك تخضع لاستجواب وتحقيق لأيام عصيبة، وبعده لا تعود أبدًا.

يمكنك أن ترتكب جريمة قتل، أو سرقة، أو ابتزاز، أو هتك عرض، تقضي عقوبتك ثم تعود، وحدهم من يرتكبون الجرائم الحائية لا يعودون أبدًا.

لامستُ ذراعي اليسرى، أشُد عليها، أدعك لحمها، وأخمشها بأظافريُمناي، لم أنتبه لفعلتي إلا عندما انساب صوت الخادمة المتمهل الدقيق الدافئ مرة أخرى لتُعيدني إلى الواقع:

- لماذا تؤذي ذراعك؟

لم تكن المرة الأولى التي يوجّه إليَّ هذا السؤال منذ تحررتُ من غرفة الخفير، لكنها من المرات النادرة التي أحاول فيها البحث عن جواب غير الجواب المُعتاد:

«أشعر بالبرد، أدعك ذراعي لأدفئها»، الذي غالبًا ما يكون كافيًا لإقناع سائل لا يعبأ كثيرًا من البداية بمعرفة الجواب. تلاقت نظراتنا للحظات، استطالت لدقيقة كاملة، أو هكذا شعرتُ، اجتاحتني الدهشة، لم يكن بريق عينيها أشبه بضي القمر كما خُيِّل لي، بل وكأنها قبس من النار، من عينيها يقدح الشرر!

ولكي تعرف كم لهذا وقْع عجيب وعاصف على نفسي؛ دعني أوضح لكَ أن في بلدنا لم يعد ثمة نار؛ النار «تحرق»، وفي فِعل «الحرق» يتجسد الحاء!

منذ ثلاثين عامًا لم يرَ أحدٌ منا النار، النار من أقوى المحظورات هنا، نطهو طعامنا فوق مواقد كهربائية مُعدَّة بدقة كي تنطفئ قبل أن يحترق الطعام في حال تجاوزت ربة البيت المدة اللازمة للطهي، ولأن مثل هذه المواقد تُفرَض عليها ضرائب شهرية كبيرة استغنى عنها الفقراء، يأكلون الخُضَر والفاكهة نيئة مباشرةً بعد قطفها من الشجر، أو اقتلاعها من الأرض، ولو سألتَ الواحد منهم: «ما أكبر أحلامك؟»، لقال أن يمس جوفه لقمة دافئة، أو قطرات من المرق.

لذا حركت النار المنعكسة في عينيها أو النابتة منهما شيئًا بداخلي، سمِّها حماسة، أو إثارة، أو دهشة مَن أبصرَ طرف رداء المستحيل.

- لأن ذراعي اليسرى لا تخصني؛ إنها متطفلة على جسدي.

لم أشعر أنني تفوهتُ بهذه الكلمات إلا بعد أن ساد الصمت الذي يتلو حديثًا ثقيلًا؛ الصمت الذي يهرول في أعقاب الكلمات، كلمات تهرب من القلب للشفاه رغمًا عن المرء، باستثنائك أنت وصديقي «رفيق» وزوجتي، لم أنطق بهذه الكلمات أمام أحد، فضلًا عن أن الندم أصابني في المرتين الأخيرتين حتى وددتُ لو لم أبُح بالسر قط.

***

ضاقت جدران القاعة الفسيحة، شعرتُ بالسقف يقترب من رأسي، وبالهواء يتسرب من مسام الجدران إلى الخارج، أجاهد لأحثو الهواء إلى صدري، بينما أترقب شفتَي الخادمة، أنتظر ضحكة ساخرة، أو كلمة مهينة، أو نظرة شائنة، ألوم نفسي ألف مرة، لأنني وقعتُ تحت تأثير شرر النار في عينيها، فظننتُ أن المستحيل قادر على أن يفهم المستحيل.

- لماذا لا تفكر في بترها؟

BOOKS

ألقت سؤالها ببساطة، مثلما فعل مديري في مصنع السردين، وهو يقول لي بالأمس: «لماذا لم تجمع صناديق الطلبية الأخيرة بعيدًا عن الممر، كي توسّع مكانًا أكبر؟». غُصتُ في عينيها أقتفي أثر استهزاء أو سخرية أو تكذيب، لكنني لم أُوفَّق في العثور على مبتغاي، كانت تنتظر الإجابة بالبساطة نفسها التي ألقت بها السؤال. تنحنحتُ ألتقط ذيول الكلمات:

- فعلتُ ثلاث مرات؛ طعنتُ ذراعي مرة، إلا أنني لم أتسبب في ضرر كبير، فقدتُ الوعي عند رؤية أول دفقة دماء. وفي مرة ضربتُها بالجدار لساعة متواصلة، لم أجنِ عندئذٍ سوى الكثير من الألم. وقبل ستة أشهر قفزتُ من سقف مصنع السردين الذي أعمل فيه، أسفَر ذلك عن خلع الكتف، وكسر وتمزق في الأربطة، لكنني لم أتمكن من التخلص من الذراع اللعينة!

- يمكنكَ الاستعانة بطبيب.

- سعيتُ لذلك، لكن لم يوافق طبيب على بترها دون سببٍ طبيّ قويّ.

هزت رأسها أسفًا وتفهمًا، قلبَت شفتها قائلة:

- وبالطبع لا تستطيع إثبات أنها لا تخصك.. يا لها من مُعضلة!

بدا ردها منسوجًا بشكلٍ طبيعيّ، وكأننا نتحدث عن الطقس، أنعشني هذا الشعور، لم يحدث قبلًا أن حادثتُ شخصًا عن ذراعي، ولم يتعامل معي كمجنون. هدأت نقرات المطر فوق النوافذ الزجاجية، لكن السماء لا تزال غائمة بالخارج، يبدو أن الطقس لن يتحسن اليوم. غابت قليلًا، ظننتُها انصرفت بغير عودة، ثم ما فتئت أن ظهرت مع طبق فاكهة كبير؛ عنب أصفر وثمرات برتقال وبجوارها سكين، أو للدقة خنجر مُرصّع بالأحجار الملونة؛ خنجر يبدو كأحد آثار عصرٍ أولَى فيه الحدّادون عناية فائقة لصناعته، يبدو أن السيد «ك» قد اشتراه من أحد مزادات مخلّفات المتحف.

لسببٍ ما ذكّرني الخنجر ببندقية أنطون تشيخوف، وهو مبدأ دراماتيكي ينص على أن أي عنصر يذكُره الكاتب في القصة يجب أن يكون فعالًا، وإلا وجب إزالته في الحال، فمثلًا: إن ظهرت بندقية مملوءة بالرصاص في الفصل الأول من السيناريو، يستلزم ذلك أن تنطلق منها رصاصة قاتلة في الفصل الأخير.

اقترابها مني في أثناء وضعها لطبق الفاكهة فوق الطاولة مكنني من تأمل وجهها من قرب، رغم شعوري أنني لص أسرق ما لا يحل لي.

- هل تعرف أن مثل هذه الثمرة قد تقتل إنساناً؟

قالتها وهي تشير إلى حبة عنب، تكاد تقترب من حجم المشمش، أشارت إلى حنجرتها، أردفَت:

- تستقر هنا، فتمنع مرور الهواء، دقائق ويخرج السر الإلهيُّ، وينتهي كل شيء: طريقة فريدة في الموت والتخلص من الأعداء.

بعض النساء يملكن خيالاً فتاكاً، لحقَت نظراتي شرر عينيها، وعقلي مشغول بتساؤل حول رائحة زهر العسل التي التقطها أنفي لجزءٍ من الثانية، هل أكون واهمًا؟ بالتأكيد، أنا واهم، يبدو أن حديث البستانيّ عن زهر العسل تسبب في استعادة جزءٍ من ذاكرتي الشمية لثانية أو أقل، فكما أخبرتكَ، فقدتُ حاستي الشمية منذ أن كنت حبيس غرفة الخفير، يبدو أن في إحدى زوايا عقلي ترقد ذاكرتي الشمية، وأنها تخادعني الآن.

- هل للخيال قدرة على القتل؟

باغتني سؤالها، حرتُ في الجواب، استطردَت وهي تقطف ثمرة عنب، وتحركها بين إصبعيها:

- يعني لو تخيلتُ أن هذه الثمرة قد وقفت في مجرى تنفس إنسان، وسدَّت عنه الهواء، هل يموت فعلاً؟ وهل أكون عندئذٍ قاتلة؟

- لن يموت.. ولن تكوني قاتلة.

بدا أن جوابي لم يرقها، لأن النار في عينيها قد انطفأت بغتةً، تحركَت في ربع استدارة، تضع كفًا فوق أخرى، قائلة بنبرة مديرة منزل رصينة وحازمة، بددت الألفة التي نمَت بيننا للحظات:

- السيد «ك» يُجري مقابلة في غرفة مكتبه، إنه جاهز لاستقبالك الآن.

تبعتُها إلى الممر الطويل المُفضي إلى غرفة المكتب التي ولجتُها مئات المرات، لم تفتح الباب، استقامت ذات الوقفة التي تعود لمديرة منزل محنكة، وقالت:

- تفضل.

ما إن تقدمتُ كي أفتح الباب حتى أضاء شيء كان يختبئ بإحدى زوايا عقلي: هذا الفستان. هذا النوع من القماش الناعم البرّاق؛ أنا أعرفه. لكنني لا أذكر اسمه.

- بالمناسبة. أنا «صهيل».

- وأنا «شُعلة».

يا له من اسم غريب! أدرتُ مقبض باب غرفة المكتب فاتحًا إياه، مستدبرًا شرر النار في عينَي الخادمة. ومستقبلًا وجه السيد «ك».

***

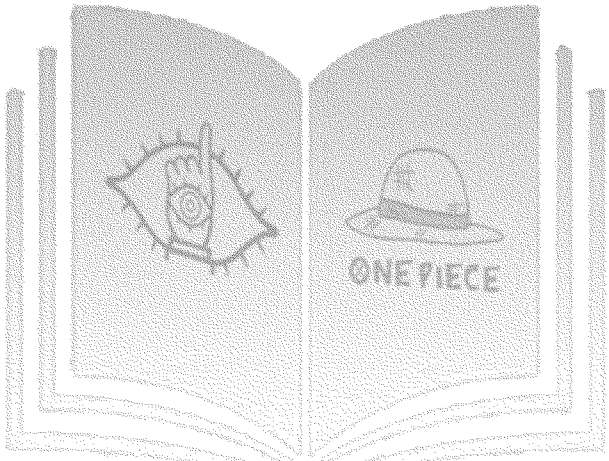

BOOKS

(33)

يختبئ الشيطان في عين الخيال

غرفة مكتب السيد «ك» كما يليق بغرف المكتب أن تكون؛ خشب زان، قطع أثرية، مقاعد وثيرة مُطعَّمة بقشور الذهب، نجف كريستاليٌّ نقيٌّ، موسيقى أوبرالية تنبعث من جرامافون قديم يقبع في أحد الأركان، سجاد سميك انغرس فيه خُفِّي -لم نعد ننتعل «أحذية»- مكتبة تحتل جدارين، وتملؤهما بالكتب من الأرض إلى السقف، ستائر أخبرني السيد «ك» أنه اشتراها من مزادٍ سريٍّ، كانت معلقة في مكتب أحد أمراء البلاد البعيدة.

لم يُشكل دخولي فارقًا يُذكَر وكأنني نفحة هواء، أو حفنة غبار! اخترتُ أكثر مقعد صغير متطرف، وجلستُ فوقه، رغم الضوء الذي يعم المكان شعرتُ أن الظل يُخيِّم على البقعة التي أجلس فيها. أتابع بعين الفضول اللقاء الدائر بين المذيع المرموق، والسيد «ك» الذي أراح جسده السمين إلى ظهر مقعد مكتبه الجلديٍّ، يمسح بيده فوق صلعته العاكسة لضوء الغرفة، ينقر فوق المكتب الأبنوسي بقلم رصاص أسود من ماركة أحتاج إلى ادخار ثلاثة أشهر من مرتبي كعامل تعبئة في مصنع السردين، كي أتمكن من شرائه. ملابسه أنيقة ومهندمة رغم مقاسها الكبير، يلف عنقه بكوفية صوفية متقاطعة بخيوط رمادية وبنفسجية لا تناسب سنوات عمره التي قاربت الخمسين، كان يليق بها أن تكون حمراء داكنة، لولا أن طهَّر الناس بلدنا من اللون الأحمر!

عكف المصور على التقاط صور للسيد «ك» بمفرده، ومع المذيع من زوايا مختلفة، بينما اللقاء دائر بينهما في شكل سؤال وجواب:

- هل يؤمن السيد «ك» بما يسميه الأدباء بالإلهام؟

- الإلهام هو الاسم الذي اختاره الكُتَّاب الكسالى للشماعة التي يعلقون فوقها إخفاقاتهم. لا شيء يُدعى الإلهام يا عزيزي؛ الكتابة تُستجلَب بالرغبة.. والرغبة فقط.
- هل سبق وأن شعر السيد «ك» بنفاد مخزونه من الأفكار؟ خاصةً وأن ست روايات خلال خمس سنوات عدد كبير نسبيًّا.
- والسابعة قريبًا.

قاطعه السيد «ك»، وهو يرمقني بطرف عينه في لحظة خاطفة لم يلحَظها سواي، وكانت تلك اللحظة كافية لأعرف أنه يدرك وجودي تمام الإدراك. ثم استطرد:

- الأفكار لا تنفد.. أي شخص برأس وقدمين، ويعيش على ظهر الأرض لديه أفكار تتجدد باستمرار. مهما تبلغ هذه الأفكار من العظمة أو التفاهة، فهي في النهاية أفكار، والفرق الجوهريُّ بين الأديب والإنسان العاديِّ أن الأول بإمكانه أن يغزل من هذه الأفكار سردًا ووجهات نظر، ويهيئ لها زوايا عرْض، ويخلق لها شخصيات لتُجسدها، أما الشخص العاديُّ، فليس بإمكانه سوى أن يغزل من أفكاره كلمات منطوقة يصنع منها أقاصيص، مثل: أقاصيص الأجداد.. بسيطة، مشوقة، ذات مغزى، لكنها لا تغوص في الأعماق. المشكلة ليست أن تجد ما تكتب عنه، المعضلة كيف ستكتب عنه؟
- هل يؤمن السيد «ك» بكل ما يكتب؟
- الإيمان أساس الإبداع. الإيمان بالفكرة.. بالكلمة، وبالقلم. لولا الإيمان لتزعزع أمهر الأدباء، ولصارت كتاباتهم ماسخة؛ لا لون لها، ولا طعم، ولا شذا.
- السيد «ك» متهم دومًا بأن كتاباته عنيفة، صادمة، ودموية، فهل ترى هذه الاتهامات دقيقة أم ظالمة؟
- كان العسل يُستخرج من لُعاب كائن صغير يطير لم يعد له وجود الآن، لم نكن نتقزز من أكله.. هل تعرف أن لُعاب كائن كالقراد غنيٌّ

بالبروتينات المفيدة لعضلة القلب؟ لو ضايفتُ الناس وقتها بلُعاب القراد لتمعَّرت وجوههم، فقط لأنهم غير معتادين على أكله.

حرَّك المذيع رأسه متسائلًا:

- لم أفهم المغزى!

- أي أن هذا يتوقف على الجهة التي تنظر منها إلى عالم الرواية؛ ما تتقبله نفسك، وما تأنفه، في أي الفريقين تقف، وبأي المبادئ تؤمن، وإلى أي الأهداف تريد أن تصل. ما يراه قارئ ما عنيفًا ودمويًّا، قد يراه آخر واقعيًّا وتأريخيًّا.

- هل سيأتي اليوم الذي يعتزل فيه السيد «ك» الكتابة؟

- الأدباء كائنات مخلوقة من الكلمات، إن لم نكتب، فإننا نخلق في رؤوسنا عوالم روائية. نستنسخ الواقع باستمرار، لكن بتفاصيل أكثر دقة؛ تفاصيل تتوه عادةً في العالم الواقعيِّ، هذه القدرة على بناء التفاصيل وغزلها في عوالم مستنسخة، والانغماس في تقمص شخصية تلو أخرى يقود المرء في النهاية إما إلى الكتابة وإما إلى الجنون... يعني متى اعتزلت الكتابة سيكون هذا برهانًا على إصابتي بالجنون!

بينما يتلفظ السيد «ك» كلماته، كانت شفتاي تتحركان لتردد الكلمات ذاتها؛ الكلمات التي أعرف أنه يحفظها عن ظهر قلب، أعرف لأنني أنا مَن حفَّظه إياها!

غادر الضيفان، خلا المكتب إلا مني والسيد «ك»، لم أنهض لأجلس فوق المقعد الدافئ الذي غادره المذيع للتو إلا حين أن أمرني السيد «ك» أن أفعل، مضيفًا:

- لبَّيتَ الدعوة.. لم أشُك في ذكائكَ يومًا.

بالطبع يقصد بـ «الدعوة» الرسالة النصية التي أمرني فيها بالحضور، الرسالة التي حوَت تهديدًا مستترًا، لكنه محسوس. انتقل ليجلس في المقعد المقابل لي، وكانت تلك عادته حين يحاول مهادنتي لإقناعي بشيء سبق أن رفضتُه، قدَّم لي مشروبًا مُسكِرًا أخرجه من ثلاجة صغيرة قرب مكتبه، رغم ثقته بأنني لا أقرَب الخمر، لكنها محاولة ليرى إن كان «صهيل» ما زال هو

«صهيل» نفسه الذي خرج من غرفة مكتبه صافعًا بابها قبل عام، فعاقبه بحبسه في غرفة الخفير.

هززتُ رأسي بهدوء رافضًا الكأس، تقهقرت يده في ضيق. ابتدر الحديث قائلًا:

- الإنسان العصريُّ يجب أن يتخلى عن عاداته القديمة.

ببرودٍ لم يعتَده مني أجبتُ مشيرًا بطرفٍ خفيٍّ إلى إجابته على المذيع منذ قليل:

- ليست عادة.. إنه الإيمان الذي يتأسَّى به المُبدع.

قفز التوتر إلى قسمات وجهه، جنبًا إلى جنب الضيق؛ يبدو أنه أدرك أن حديثنا لن يكون سهلًا، وأن «صهيل» القديم قد تغير.. صار أقسى. ترك كأسه، قال بسرعة يعلن فشله في إيجاد طريقة أكثر لطفًا وإقناعًا لصياغة كلماته:

- لن ألف وأدور.. سأدخل في صلب الموضوع مباشرةً؛ أريد نصًا جديدًا، لم أنشر كلمة منذ عام كامل، والناشر لا يتوقف عن استعجالي. النقاد يقطعون في سيرتي ليلًا نهارًا يتندرون قائلين: «السيد «ك» أفلَس فِكريًّا!».

للمرة الأولى منذ أن دخلتُ هذا المكتب قبل خمس سنوات أشعر أن زمام القوة في يدي، وهذا لعمري شيء مثير، حتى إنني استخدمت وضعية أكثر راحة فوق المقعد الوثير، بينما أتلذذ بتذوق هذا الإحساس فوق حليمات شعوري.

- أعلم أن لقاءنا الأخير كان صاخبًا بعض الشيء، لكنني كما قلتُ أثق بأنكَ رجل ذكي يا «صهيل»، وستفعل ما هو الأفضل لي ولك.

قالها ونهض متوجهًا إلى خزينة صغيرة في الطرف الأيسر من مكتبه، فتحها، أخرج منها المال بينما يتابعني بعينيه من كثب، ثم يعود إلى مقعده في مواجهتي واضعًا المال فوق الطاولة التي تفصل بيننا، قال في محاولة لمداعبة جشعي:

- هذا مجرد عربون صغير.. ستأخذ ضعفَيه عندما تُسلِّمني النص.

BOOKS

تركتُه يغلي فوق نيران الانتظار لدقيقتين أو يزيد، أمسكتُ خلالهما المال أديره بين كفيَّ، سألتُه رغم علمي بالجواب، فقط لأضع ملحًا على الجرح الغائر والمشوَّه في أعمق نقطة من ذاته:

- تطلب مني كتابة رواية، ثم تعطيني من المال ما يفوق مكاسبكَ من نشرها.. لماذا؟

السيد «ك» ذكي.. ذكي إلى الحد الذي فهم معه رغبتي في فَقء عين كرامته، ولكنه كذلك يائس جدًا؛ يائس إلى الحد الذي سمح لي أن أفقأ عينيه بإصبعيَّ كطفل مشاغب دون أي بادرة تملُّص.

- الوجاهة.. نعم، لمَ الكذب؟ أنتَ تعرف أنني أملك المال والأملاك، وجريدتين، وقناة مُتلفَزة، لكن كل ذلك لم يكن كافيًا كي ينسى الناس أنني.. أنني...
- سمَّاك ابن سمَّاك...

ليست المشكلة أن الناس يتذكرون، بل أنه هو نفسه لم يستطِع النسيان. لو وهبَة الخالق ممحاة لطمس معالم ماضيه منذ لحظة مولده في عِشَّة صغيرة أمام البحر المطل على الجهة الشمالية من بلدتنا، مرورًا بسنوات طفولته ومراهقته، وشبابه التي أنفقها في صيد السمك وبيعه في السوق الكبير، مقتفيًا أثر أبيه وجده، ولأن الخالق لن يهبه قدرة حذف التفاصيل، أراد أن يزيل بممحاة الأدب الرائحة الزفرة للأيام التي سبقَت الحرب الأهلية، ومن ثم غناه السريع المتصاعد من جراء اقتحامه لمعترك التجارة.

بعدما حرَّم الناس على أنفسهم بيع وشراء وإنتاج وأكل وشرب «الحليب» ومشتقاته، تمكن السيد «ك» من إيجاد بديل اصطناعيٍّ للحليب بنفس قيمته الغذائية، لكنه بلون وكثافة ومذاق مختلف، ومن بديل الحليب إلى بديل «الحنة»، و«الحلبة»، و«السحلب»، و«الحلبسة»، و«الحواوشي»، رغم أنها بدائل لا تمُتُّ لأصلها بصلة، لكن مجرد الإعلان عن كونها بديلًا يزيد من شعبيتها، وهالة الفضول المحيطة بها.

ورغم تبدُّل حال السيد «ك» لم ينسَ أنه «سمَّاك» قط، وربما يكمن الخطأ في سعيه لأن ينسى، ولجعل الناس ينسون، لا يدرك أن الناس يتخيرون نقاط ضعف أعدائهم لتسديد ضرباتهم إليها، لو لم يحاول طمس أصل نشأته وكأنه

سُبَّة، لو لم يكثر من صب العطور على جسده في محاولة لإخفاء رائحة السمك التي لم يعد يشتمها غيره؛ لما استشعر أعداؤه أنها نقطة ضعفه، ولما تجرؤوا على ضربه من خلالها، الذراع التي تؤلمني أقطعها بنفسي قبل أن يجرؤ عدوي على ليِّها وإيلامي بها، لكنني لستُ المعالج النفسيَّ للسيد «ك»، كي أخبره بكل ذلك.

قلتُ بعد صمت طال بيننا، امتقع خلاله وجهه عندما ذكَّرته كلماتي بما يكره:

- كنتُ لأرغب في مساعدتكَ إلا أنني أنا أيضًا لم أكتب شيئًا منذ عام كامل؛ أعاني من سُدَّة الكتابة.

وأشرتُ صوب الباب:

- منذ أن خرجتُ من هنا آخر مرة، وأرسلتَ خلفي رجلك يسجنني في غرفة حقيرة، كي تجبرني على أن أكتب لك رواية رفضتُ كتابتها.
- أعرف أنكَ غاضب.. أعرف أنني تماديتُ بعض الشيء، ما كان يجب عليَّ تغيير شيء في الرواية الأخيرة، وفي رسمك لشخوصها. أغضبكَ ذلك، ودفعكَ لرفض الكتابة لي مرة أخرى، فاضطررتُ إلى سجنك كي تكتب لي رواية جديدة. أعرف أنه تصرف خاطئ، لكنه ليس خطأً لا يمكن تلافيه؛ أنا قادر على تلافي أي شيء؛ لا شيء يقف في طريق رغباتي.

لو قال هذه الكلمات بندمٍ حقيقيٍّ، ربما.. أقول ربما تعاطفتُ معه قليلًا، خرجت كلماته مُحمَّلة بغطرسته المعهودة، وكأنه يُذكِّرني بمن هو الآن، وبما هو قادر عليه، لم يقف عند هذا بل أخذ يتمادى، بينما يضع ساقًا فوق ساق:

- لم تُرزق بأطفال بعد، لكن لديك بيت وزوجة، والمرتب الذي تتقاضاه من مصنع السردين لا يكفي نفقات المعيشة والضرائب الباهظة، أعرف ذلك جيدًا، لأنني كما تعرف مالك المصنع، لذلك كُن عاقلًا، ولا تدَع أنانيتكَ تسوقكَ، وليخرج الجميع اليوم سعداء من هذا المكتب.
- أقول لك لم أكتب شيئًا جديدًا!
- وأنا لا أريد شيئًا جديدًا، ما أريده تعرفه... تعرفه تمامًا.
- لم أفهم قصدك!

BOOKS

- هل ظننتَ أنني لن أعرف بأمر الرواية الممنوعة التي تعكف على كتابتها؟

امتقع وجهي، وتقافز الهلع في صدري، كيف عرف؟ يريد إذن الشيء الوحيد الذي سأرفض أن أمنحه إياه؛ روايتي التي لم أنتهِ بعد من كتابة فصلها الأخير، روايتي التي لن تحمل اسم غيري، والتي كتبتها وأنا أعرف أن مصيرها الدفن معي في قبري دون أن يقرأها مخلوق، لست متشائمًا، لكن لن يجرؤ أحد على نشرها، لأنها ببساطة من الممنوعات؛ تجسِّد كل ما هو محظور هنا، والدار التي ستنشرها تعرف جيدًا أنه سيكون عملها الأخير قبل أن أختفي أنا وصاحبها إلى الأبد.

ظننتُه في البداية يمزح، لكنه بدا جادًا جدًا؛ جادًا إلى الحد الذي أثار دهشتي، لم أحاول الإنكار، لا فائدة من الكذب على السيد «ك». سألتُه محتدًا وحائرًا في آنٍ:

- لماذا ترغب في وضع اسمك فوق رواية مثيرة للسخط؟ لماذا تسعى لأن تخسر كل شيء؟

بدت عيناه يائستين، وكانت المرة الأولى التي أرى فيها الهم يُخيِّم في عينَي السيد «ك». قال باقتضاب، وصوته مهموم كنظراته:

- أنا أموت.

لم أشعر بالتعاطف، كلنا سنموت يومًا ما. استطرد:

- أيامي معدودة، لم أتزوج ولم أنجب، سينتقل كل شيء للورثة، كل ما سعيتُ لأن أبنيه لليوم سيذهب إلى أوغاد ينتظرون الثانية التي أموت فيها، كي ينهبوا أموالي وممتلكاتي. كل شيء سيزول، ينتهي وكأنه لم يبدأ. لا يمكنني منع ذلك، أما اسمي فهو الشيء القيّم الذي بإمكاني أن أهبه الخلود.

ثم مال بجسده، تلمع صلعته تحت الإضاءة الكريستالية من فوقه، يقول بحماسٍ:

- إذا وضعتُ اسمي فوق رواية أخيرة؛ رواية ممنوعة.. رواية تقول كل ما لا يجب أن يقال.

ازداد صوته ارتعاشة، وعيناه حماسة مُردِفًا:

- سأموت بطلًا!

***

دومًا ما كانت مسألة الخلود محط دراسات العلماء والفلاسفة، في كل عصر تجد أهله يسعون لإيجاد طريقة لتفادي الموت، وربما أشهر هذه المحاولات السعي خلف حجر الفلاسفة الذي يُحوِّل المعادن الرخيصة إلى نفيسة، ويعيد إلى الإنسان شبابه، ويمنحه الخلود (كما زعموا).

و«حجر الفلاسفة» الوحيد الذي بالإمكان تحضيره دون معمل، أو تنقيب، أو بحث، أو تصادم بالدين والأعراف.. هو الأدب. لذلك أتفهَّم إلى حد كبير رغبة السيد «ك» في تقبيل حجر الفلاسفة قبل موته عن طريق رواية محظورة.

- انسَ هذا تمامًا.

ليس معنى أنني فهمتُه أنني سأمنحه ما يريد. انتفض السيد «ك»، وقد تحوَّل إلى خرتيت بريٍّ ينطحني بقرنه:

- أنا لا أسألكَ، أنا آمركَ!

ثم دار حول المكتب نصف دورة حتى بلغ خزانته، لا لم يُخرِج مالًا هذه المرة، بل شيئًا له قوة سحرية أكبر من المال، عاد ليقف أمامي شاهرًا بطاقة ذاكرة صغيرة أمام وجهي وكأنها مدفع فتَّاك، صائحًا:

- السيد «ك» لا يُقال له: «لا».. السيد «ك» يأمر، والجميع يخضع!

اختيار غريب لرجل يقترب من الموت أن يقضي أيامه المعدودة في التهديد والترهيب. رغم أنني كنتُ على ثقة بأنه سيسحب هذه الورقة الرابحة عندما تفشل كل الأوراق النقدية في ترك أثرها في نفسي، فإنني شعرتُ بهزة داخلي، ودبيب خوف يتصاعد حثيثًا إلى صدري. وقفتُ أمامه رأسًا برأس؛ لم تعجبني المسافة الفاصلة بيننا، وهو يهيمن عليَّ من عَلٍ، قلتُ بهدوء لا يخلو من غل:

- لن تستطيع أن تفعل شيئًا يؤذيني، لأنني عندها سأدمركَ!

كنتُ أعرف أنني أتمادى، لكن السهم الأول كان قد انطلق بالفعل من بطن القوس، فسواء أطلقتُ باقي السهام أم أحجمتُ، فالعقاب آتٍ لا محالة. أردفتُ بثباتٍ ظاهريٍّ، بينما داخلي يتزعزع:

- سأخبر الناس بكل شيء، لن أدع لقاءً أو برنامجًا إلا ونزلتُ عليه ضيفًا، سأخبر الجميع أن السيد «ك» يضع اسمه على روايات لم يكتب منها سطرًا واحدًا، وأنني كاتب الظل الذي يبيعه الفكر والكلمة.
- إذا فكرتَ في فعل ذلك سأرسل الصور الموجودة على بطاقة الذاكرة هذه إلى شرطة رقابة الأبجدية، وعندها ستختفي تمامًا كأنك لم تولَد قط.

لو كان يملك صورًا مُخلَّة بالشرف لما ارتعدت فرائصي مثلما ترتعد الآن، لكنها صور من كاميرا سرية ثبَّتها الوضيع بمكتبه، تلتقطني خلسةً بينما.. بينما أقرأ كتابًا به كلمات حائية! كنتُ أعرف أن مواجهته كمصارعة جدار بحفنة تراب، ولأنني لا أملك سوى حثو التراب في وجهه، جابهتُه قائلًا ببرود:

- أنا سأنتهي، وأنتَ ستخسر كل شيء.

***

انصرف السيد «ك» لإجابة اتصال لم أسمع رنينه، ربما أراد أن يختلي بنفسه لتقييم الوضع قبل أن يأتي بحركة جديدة، وللحق كنتُ أنا أيضًا بحاجة إلى هذه الفسحة من الزمن.

وقفتُ أمام المكتبة التي تحمل بصماتي أكثر مما تحمل من بصمات صاحبها، يملك كل إنسان بصمة لسان مختلفة، وأخال الأمر لا يتوقف على بدَن اللسان فحسب، بل كذلك يملك كل كاتب مفردات وطريقة فريدة في تركيب الجمل وصياغة الأفكار وربطها كبصمة مميزة له، أو هكذا كان الأمر سابقًا، قبل أن تختفي الحاء من الأبجدية، وتُحبس الأقلام داخل أسوار لا يمكن الخروج عنها، أقلام رصاص قابلة للمحو، بعد أن مُنعنا من استخدام «الأحبار» الراسخة فوق الورق.

مسحَت عيناي كعوب الكتب الخالية من كلمة واحدة بها حرف الحاء، بعد إنشاء مركز شرطة رقابة الأبجدية انبرى فرع منه عاكفًا على فحص الكتب

والروايات لنزع الحاء من بطونها، أحيانًا يكتفون بتبديل المفردات بغيرها، تحمل نفس المعنى أو معنىً قريبًا، وكثيرًا ما أُعدِمت كتب وروايات كاملة، لأنها لا تكتفي بتضمين كلمات حائية، بل تنفخ فيها روح المعنى، فتتجسد أمام عينَي القارئ، وتسكن فكره ووجدانه، روايات لا تحوي فقط كلمات، مثل: «روح»، و«حياة»، و«حلم»، بل تجسدها، وهذه المعاني يرى الناس أنها تترك في النفس آثارًا أخطر من التي تتركها الأسلحة النووية.

رفعتُ عيني إلى موضع أحفظه جيدًا بالرف الأخير من المكتبة التي هيأها السيد «ك» لأغراض الزينة، مسحَت عيناي بحنان فوق نسختين مكتوبتين بخط اليد، النسختان الوحيدتان من روايتي الأخيرة، تنتظرني كي أُتمها بكتابة فصلها الأخير، بالطبع لم أجد مكانًا آمن لإخفائهما من مكتبة رجل لا يقرأ الكتب، يا للسخرية! يساومني الرجل على شيء لا يعرف أنه موجود تحت ناظريه بالفعل!

مكنتني خفة وزني من تسلُّق المكتبة، واحتضان نسختَي الرواية بين يديَّ، بفخر ورهبة؛ لم يجرؤ كاتب على تأليف نص بالحرف المغضوب عليه، ولا تجسيد معاني كلماته، لم يجرؤ كاتب غيري على أن يكتب رواية محظورة، يبثها قهره، وغيظه، واندفاعاته، وأمنياته، وأعمق رغباته التي لم يخبر بها أحدًا؛ رواية كصرخة في وجه كل المسكوت عنه، والآن يطالبني السيد «ك» بأن أكتم أنفاسي، وأمنحه تلك الصرخة.

أعدتُ النسختين مكانهما، ثم وقفتُ في منتصف الغرفة أمسك بذراعي الخيالية، أدْعَك لحمها، أخمشها، أدميها، يدخل السيد «ك» وقد استعاد ثباته، يدعوني للجلوس في مقعدي أمامه، أفعل، فيشير إلى طبق العنب الكبير بحجم المشمش، وبجواره برتقال وخنجر توءم للذي رأيته في الصالون منذ قليل، أو ربما هو نفسه، يقول:

- أزرع العنب في مزرعتي، وأوليه عناية خاصة، لن تجد ألذ منه.

أمسك بالثمرة، أكاد أبصقها لفرط مرارتها، فكل «حلو» يدخل في قائمة الممنوعات، وكأن حليمات تذوق السيد «ك» تستشعر في الثمرة شيئًا مغايرًا، أو أنها اعتادت المرارة بديلًا للمذاق الحلو.

«هل للخيال قدرة على القتل؟»، أستعيد صوت الخادمة في ذهني، وسؤالها المُحيِّر يطوف برأسي. يتناول السيد «ك» ثمرة وراء ثمرة، بينما عقلي يلعب دور القلم، فيتوقف عند حلق السيد «ك»، ويرسم انبعاجًا خياليًّا سببه انحباس ثمرة عنب في مدخل الهواء إلى رئتيه، يشهق السيد «ك»، يعِب الهواء إلى رئتيه، لكن المنفذ مسدود بالثمرة التي أمرها مارد الخيال أن تنحبس هناك، ينهض، يتعثر في الطاولة، يحاول حشد الهواء الكافي ليبقى حيًّا، أحاول التحرك كي أسعفه، لكن الذراع اليسرى اللعينة تتشبث بالمقعد، أحاول نزع جسدي، والاقتراب من السيد «ك»، الذراع تسحبني إلى الخلف، أمد يدي اليمنى فتطال قميصه بالكاد، أنازع ذراعي المتمردة كما يحارب الجندي عدوًا من لحمه ودمه، يندفع السيد «ك» في لحظة اهتياج شديدة صوب الخنجر، يتسرب التعقل من خلايا مخه الساعية بجنون خلف الأكسجين، يمسك بالخنجر، يدفعه في عنقه في محاولةٍ لنزع الثمرة المستكينة وسط حنجرته، لو كان «تشيخوف» بيننا الآن لصفق بحرارة أمام تطبيق مبدئه الدراماتيكي في المشهد التالي تمامًا لظهور الخنجر.

تتناثر الدماء فوق ياقة السيد «ك» شديدة البياض، يدور رأسي فور رؤية اللون الأحمر، أتذكر نوع قماش فستان الخادمة.. إنه «الحرير»؛ القماش الذي لم يُرَ في أنحاء البلد منذ ثلاثين عامًا، أتساءل قبل أن أغيب عن الوعي: «هل يجهل الناس أن الدماء حمراء اللون؟!».

***

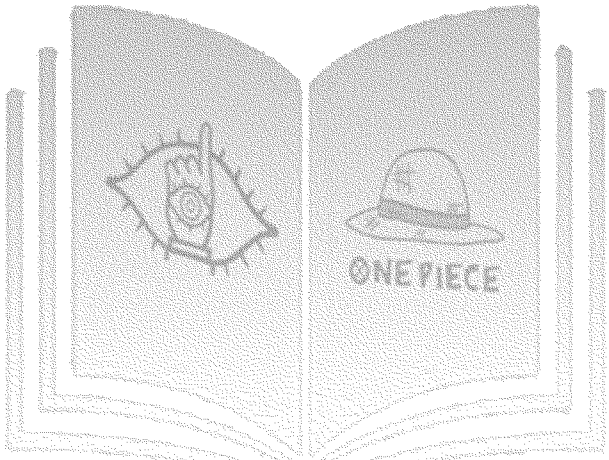

BOOKS

(34)

ابن الأبجدية الملعون[1]

- أمي.. هل جُننتِ؟! لماذا تُبقين على هذه الممنوعات في قبو البيت؟

كمجرم بوغِتَ متلبِّسًا بجريمته، جثَت المرأة قصيرة القامة ممتقعة القسمات على ركبتيها، تُخفي وجهها المُتغضِّن بين كفَّيها، وقد علا صوت نشيجها، أمسك «مؤيد» بالصندوق الخشبيِّ الذي كانت تُخفيه أمه سرًا أسفل بلاطة غير مثبتة في أرض القبو، مفرغًا مشتملات الصندوق بريبة، يُقلِّبها بطرف عصاه الصاعقة وكأنها أفاعٍ تسعى؛ قطعة من قماش غريب رآه مرةً بين أغراض مجرم مُدان بجرائم امتلاك أغراض لها علاقة بابن الأبجدية الملعون، وعلبة صغيرة بها معجون بُنيٌّ سبق أن رآه في فيلم وثائقيٍّ لامرأة ترسم به فوق أجساد النساء، وشيء جلديٌّ طويل كان يُلَف على الخصر، وقلم يُقطِّر سائلًا أزرق يتطلب إعادة ملئه بعد فترة من الاستعمال، يعرف جيدًا أنه من الممنوعات، فأقلام اليوم جميعها من الرصاص القابل للطمس، والأخطر بين كل هذا؛ كتاب به كلمات لابن الأبجدية الملعون، وعود كبريت!

وقف في مفترق طرق؛ كونه رقيبًا في شرطة رقابة الأبجدية، وهو منصب رفيع لم يفُز به فقط لكونه ابن قائد مُهاب بالمركز، بل لكونه شرطيًّا بارعًا.. بارعًا إلى درجة أن بإمكانه إلقاء القبض على أبيه نفسه إن أتى بجريمة تُنافي قوانين الأبجدية، لكن أمه.. هذا اختبار عسير فعلًا.

مسؤول، جاد في مقر عمله، قاسٍ كأبيه، مثابر ويكاد لا يخطئ، رغم ذلك لا يزال قلبه متشبثًا بقلب أمه، وهذا في عين أبيه مدعاة للسخرية والإذلال. يقول أبوه إن فيروسًا أصابه جنينًا، ويقول طبيبه النفسيُّ إنه تعلُّقٌ مَرَضيٌّ

(1) الفصول التي يرويها الراوي العليم خالية سردًا وحوارًا من حرف الحاء.

بالطبيعة الهادئة المتمثلة في صورة الأم، التي هي على النقيض من الصراعات التي يجابهها في عمله، وتقول جدته إن شعور الخوف من الهجر تملَّك منه بسبب منعه من نصيبه الفطريِّ من لبن أمه. تعددت الأسباب والنتيجة نصف اثنين... هو رجل متعلق بأمه برباط العاطفة؛ يُشعِره الجميع أن في هذا انتقاصًا لرجولته، فيضطر إلى إخفاء أنها طوال تسعة وعشرين عامًا هي أمه وصديقته وخازنة أسراره.

نهرها بعنف، وهو يرفع الكتاب أمام عينيها:

- لماذا تُبقين على هذا الكتاب الممنوع يا أمي؟

- إنه كتاب شِعر يا بُني، ليس فيه ما يؤذي!

- شعر أو غير شعر، به كلمات ممنوعة.. منزوعة من قواميسنا وأبجدياتنا؛ إنه أخطر من سم زُعَاف ينهش الجسد!

ثم أشار إلى الأرض هادرًا:

- وهذه الأشياء لا يجب أن نُبقي عليها، تعرفين هذا جيدًا؛ إنها تذكِّرنا بالماضي، وكل ما له علاقة بالماضي لا يجب أن نجلبه إلى اليوم، وما يذكرنا باليوم لا يجب أن نجلبه إلى الغد، فهذا يُشعرنا بـــ... يُشعرنا بـــ...

لم يجد لفظة مناسبة قابلة للنطق، خانه قاموسه اللغويُّ، كفَّت أمه عن البكاء، ورفعَت رأسها، تعرف جيدًا الكلمة الممنوعة التي تصف الانجذاب إلى تفاصيل الماضي ووقائعه ومشاعره وذكرياته، «مؤيد» الذي أنجبَته بعد عام من دمار البلد يعرف الكلمة، ولا ينطق بها، هي بالنسبة إليه كلمة ممنوعة لارتباطها بابن الأبجدية الملعون.

سألَت بإعياءٍ:

- لماذا يخاف الجميع من الماضي إلى هذه الدرجة؟

أجاب سؤالها بعصبية، بينما يذرع القبو مجيئًا وذهابًا:

- تعرفين جيدًا إجابة هذا السؤال. كاد عالمنا يتدمر، بل تدمر بالفعل؛ انهيارات، صراعات، معارك، نار تأكل الناس، والشوارع لا تُفرق بين

طوب وبدَن، جثث في كل مكان، لولا مجلس البلدية وقانون الأبجدية الرادع لما تمكنا من إعادة إعمار بلدتنا مرة أخرى.. لما تمكنا من النجاة.

- وما ذنب الكلمات؟

- الكلمات أساس الخراب، كل الكلمات الممنوعة هي أصل الوباء. ابن الأبجدية الملعون يدخل على الكلمات، فيُسمّمها.. نلوكها بألسنتنا، فتنخر كالسوس في أفكارنا. الكلمات المسمومة لا تقود إلا إلى أفكار مسمومة، والأفكار المسمومة تقود إلى التطرف والفرقة والنزاع. اللجنة التي شكّلها الناس من أبرع أهل البلد علمًا، وأشدهم ثقافة للوقوف على أسباب الخراب والدمار الذي وقع في بلدنا؛ قررت بعد أشهر من الدراسة أن كل كلمة فيها ابن الأبجدية الملعون هي أساس الداء.

توقف «مؤيد» لبرهة، دنا من أمه يُعنِّفها:

- بنينا جدارًا عازلًا في الجزء الشمالي من البلد بيننا وبين القادة التسعة لمجلس البلدية. أسميناه بـ «خط النار»، كي يدرك كل شخص ما سيصيبه إن خالف قانون الأبجدية، وأنتِ تخبئين في قبو بيتنا صندوقًا مملوءًا بالممنوعات!

اعترفَت لابنها بوهَن:

- نفدَت طاقتي.. لا أستطيع الاستمرار.

خاطبها باللغة التي يفهمها كلاهما:

- لماذا تختارين الموت بينما لا يزال لديكِ فرصة للعب؟! ألستِ من تقولين لي إن العيش لعبة لا يفوز فيها المستسلمون؟

- لأن أهم قطعة في اللعبة مفقودة؛ إرادتي مفقودة. فما عاد يهمني إن فزتُ!

- أنتِ بهذا تقتلين نفسكِ بنفسكِ!

- أعرف.

عندما توجهَت أمه للقبو، ونزلَت درجاته، ورفعَت البلاطة، وأخرجَت من أسفلها الصندوق الخشبيَّ الصغير كانت تعرف أنها ستُباغَت من قِبَل ابنها

BOOKS

أو زوجها العائدَين من عملهما في هذه الساعة من النهار، أرادت أن يُكشَف أمرها، أرادت أن تموت.

- ماذا تفعلان هنا؟

قبل أن يتمكن «مؤيد» من الكلام كان أبوه بالفعل قد فهم ما يجري، تعلقت نظراته الفزعة بمشتملات الصندوق التي تفترش الأرض، يجهل «مؤيد» أسماء بعض الأشياء التي رآها، لم تمسها يده من قبل إلا في أثناء مشاهدته الأفلام الوثائقية بالمركز، وتفتيش بيوت المخالفين للقانون، إلا أن أباه يعرفها جيدًا، اندفع ثائرًا يقبض على شعر زوجته، ويوجه لها صفعة فثانية، وعند الثالثة دفعه «مؤيد» بعيدًا عنها:

- أبي، توقف.. أرجوك.

- هذه المرأة معتوهة؛ تتعاطى القصص! كنتُ أعرف أن نهاية كتلك تنتظرها.. اقبض عليها يا «مؤيد»، ريثما أتصل بالفرقة الخاصة.

- أبي، انتظر أرجوك.. إنها أمي.

- أي أم؟ إنها عار علينا!

نعم.. عار، هكذا يرى «مؤيد» أيضًا، لكنها في النهاية أمه، يتنازع قلبه بين نداء الواجب، ونداء قلبه. أمام اختبار مصيريٍّ لا قِبَل له به، وقف عاجزًا عن تلبية أيٍّ من النداءين، كيف يتخلى عنها وهي لم تترك يده قط؟ لا عندما تعثر في السير طفلًا، ولا عندما تشتت في الفكر مراهقًا، ولا عندما توكَّأ على قلبها وعقلها في كل قضية كان يُكلَّف بها. تقافزت الكلمات فوق لسانه، يمسك بكف والده التي عكفت على ضرب أزرار هاتفه:

- عاقبها أنتَ كيفما شئتَ، لكن أتوسل إليك بألا تتصل بالفرقة الخاصة.

دفعه أبوه في صدره دفعة قوية كادت تصدم ظهره بالجدار، بينما يوجه إليه كلماته اللاذعة:

- أنتَ ابن أمكَ فعلًا!

اندفعت الدماء تفور في رأس «مؤيد»، يقبض على أصابع يده بقوة وكأنه على وشك تسديد لكمات إلى خصمه، بينما في هذه الغرفة لا يوجد خصم

ONEPIECE
BOOKS

لنفسه سواه، عليه أن يؤدي واجبه كما يفعل دومًا؛ ألا يُدنِّس شرف مهنته.. أن يجيد الاختيار.

أدركت أمه ورطته وتشوشه وفوضى أفكاره؛ مالت برأسها صوب ابنها، تعفيه من عناء اتخاذ القرار، تقول بأعين تغشاها العبرات:

- من بين كل الكلمات التي مُنعنا من النطق أو الشعور بها، هل تعرف أكثر ما افتقدتُه؟ «الرحـمة».

انطلق صوت طوق رقبتها الرماديِّ يصُم الآذان، يغرس سنًا مدببًا بسائل مخدر في عنقها، فتنهار ساقاها. يعرف «مؤيد» كم أن أباه رجل قاسٍ، رغم الجدار الفاصل بين غرفتيهما فضربات السوط، وصرخاتها المكتومة، ونشيج بكائها يصله من بين مسامات الملاط، وإن لم يصله، فلا تستطيع عيناه تفويت الكدمات التي تزداد فوق الأجزاء الظاهرة من بدنها، وبعد أيام أو أسابيع تختفي الآثار لتأتي غيرها، يعرف كل ذلك، يعرف ويصمت، يصمت ولا يملك القدرة على التغيير.

لا يظن أن أباه يمارس عنفه عليها بغرض المتعة، فأبوه ليس رجلًا شاذ التفكير، وإنما من أجل المران، كأكياس الرمل في صالات الرياضة، يتمرن أبوه على نبذ كل ما يمُتُّ بصلة لابن الأبجدية الملعون، ومن بينها الكلمة التي نطقَت بها أمه للتو.

لم تمضِ دقيقتان إلا واندفع للقبو نصف اثنين من فِرَق الرقابة الخاصة، يأخذونها إلى المكان الذي يُرسَل إليه الناس دون عودة، يطهرون البلدة منها إلى الأبد باعتبارها عنصرًا شاذًا يخرق القوانين، ويهدد الأمن والسلامة.

لم تتأتَّ له فرصة وداعها، أو عناقها. انساقت أمامه تُشيِّعه بابتسامة كبيرة، وأعين تفيض بمائها، منساقة باستسلام إلى مثواها الأخير هامسةً له:

- لا تلُم نفسكَ يا بني، أنتَ مجرد بيدق، وهذه اللعبة يلزمها «حـصان»!

***

BOOKS

(35)

جريمة بلا مجرم

انتشر خبر مقتل السيد «ك» بسرعة البرق، ووقع في النفوس كهزيم الرعد، امتلأت أروقة مركز رقابة الأبجدية بتساؤلات وفيرة لا يقابلها سوى أجوبة هزيلة؛ هل قُتل السيد «ك» أم قَتل نفسه؟

عبَر «مؤيد» الرواق المؤدي إلى مكتبة باندفاع جنديٍّ مُقبِل على معركة.

- المشتبه به في غرفة الاستجواب يا فندم.

بادره مساعده بذلك فور دخول مكتبه، بعد سويعات من مصابه في أمه وجد نفسه مضطرًا إلى العمل، يعرف أن والده هو من زجَّ باسمه لتولي قضية السيد «ك»، يخال أنه بذلك قد ينسى، ولعل والده مصيب؛ يجب أن ينسى، كل الدروب تلتقي عند الألم ثم تفترق ثانيةً، ودربه الذي يمر عبر غابات الألم يدفعه لأن يتشبث بالعمل كي يستطيع الاستمرار. يعرف كيف يقيم شائكًا بين نداء واجبه ونداء قلبه، وربما لهذا السبب هو هنا الضابط الأكفأ. التفتَ إلى مساعده متسائلًا، بينما يمسك ملف القضية بين يديه دون أن يقرأه:

- هل اعترف بدافعه لارتكاب الجريمة؟

قال مساعده والتردد يطفو من صوته:

- بل أنكَر ارتكابه للجريمة من الأساس.

اشتعل صدر «مؤيد» غضبًا، هو رجل عمليٌّ يستطيع تأدية واجبه، بينما قلبه يعتصر ألمًا، لكن الألم سُوسٌ ينخر كيان الإنسان فيتصدع، يشعر بشروخ صغيرة تتصاعد داخله، مؤلمة، وقاسية، ومزلزِلة، تستدعي منه صرخة ألم، ولأنه لم يعتَد الصراخ لجأ إلى الشعور الأمثل الذي يمثل له كهف الأمان.. الغضب.

- ماذا قال أيضًا؟

- لا شيء.

زفر بضيقٍ، قال وهو يستدعي أشد نبرات صوته خشونة وقسوة:

- لم أتوقع غير ذلك؛ كل الأوغاد ينكرون في البداية، لكنهم في النهاية يغردون كالبُلبل.

لم يرَ بُلبلًا من قبل سوى في الأفلام الوثائقية التي كانت تعرضها عليهم الأكاديمية، شمَّر عن ساعديه الأسمرَين، ثم توجَّه من فوره إلى غرفة الاستجواب، بينما مساعده يسرع الخطى من خلفه، وهو يُملي عليه ما جمعه من معلومات:

- المشتبه به في نصف الاثنين والأربعين من عمره، يتيم الأم والأب، متزوج وليس لديه أطفال، جيرانه لا يرونه إلا وهو ذاهب إلى عمله وعائد منه مساءً، هادئًا صامتًا لا يثير غبار الطريق، يقول بعضهم إنه كثير التأمل في الآخرين، وكأنه مخبر مُكلَّف بتتبعهم، لهذا يشعر الناس تجاهه بالنفور، يقولون كذلك إنه أبلَه، غير متزن، يكلم نفسه، ويتشاجر معها، آه.. ويكتب كثيرًا.

- ماذا يكتب؟

- لا نعرف!

- ماذا يعمل؟

- عامل تعبئة في مصنع سردين يملكه القتيل السيد «ك» بنفسه.

استدار لمساعده قائلًا بينما يُمسك بيده مقبض باب الغرفة:

- هل ثمة شيء آخر؟

- ذكر صديق له شيئًا غريبًا.

انتظر «مؤيد» إلى أن قال مساعده، وهو يلتمس جبينه:

- قال إنه يُعامل ذراعه اليسرى، وكأنها تخص شخصًا غيره!

***

هجم «مؤيد» على غرفة الاستجواب دون استبطاء، وكأنه قد اكتشف الجريمة للتو، أمسك بتلابيب «صهيل» الجالس في موضع الاتهام، نزعه من المقعد، وألصقه بالجدار مُعنِّفًا:

- أمضيتُ يومًا سيئًا.. من بين كل الأيام السيئة هو الأسوأ. وصدقني، لن ترغب في اختبار صبري الآن بالذات، لن أسألك مرتين؛ لماذا قتلت السيد «ك»؟ أخبِرني بدافعك كي نغلق ملف القضية اللعينة، ويذهب كلٌّ منا في طريقه دون أن تُرهقني وأرهقكَ.

أول ما استرعى انتباه «مؤيد» في الرجل الواقف قبالته، بل وأثار زوبعة من الدهشة في نفسه؛ أن «صهيل» يملك عينيه الضيقتين، وأنفه الطويل الذي يتوسط وجهًا يميل إلى الاستطالة، وشفتيه الغليظتان بعض الشيء، يعلو كل ذلك جبين عريض، وبوادر صلعة تتوسع صوب شعره الأسود المجعد؛ الرجل يشبهه إلى درجة بعيدة، غير أن أولهما ضابط، والآخر مجرم أثيم.

تركه «مؤيد» بعدما شعر بالظفر عندما تطلع إلى عينيه المرتعبتين، أمسك بملف القضية يتمتم بلسانه ما تقرأ عيناه:

- «صهيل».. اسم غريب.. اجلس.

تبادلا نظراتٍ متوجسة داخل غرفة صغيرة، عارية الجدران، هزيلة الإضاءة، خالية من كل شيء سواهما. نمَتْ بسمة ساخرة فوق شفتيه مردفًا:

- صوت لم يعد له وجود في بلادنا؛ غريب.. متطفل، لا ينتمي إلى هذا المكان؛ اختيار أبيك أم أمك؟

لم يكن «مؤيد» مهتمًا بالاسم ولو بمقدار ذرة، أراد أن يستجلب الكلمات من هذا الفم المغلق كقبر، والمتشقق كأرض عطشى لم تعرف الغيث. بذل «صهيل» مجهودًا داخليًا كبيرًا، كي يفك الكلمات من عقالها، إذ إن النوم والجوع والعطش والبرد يُعدُّون من جسده وليمة صاخبة الآن:

- ليس لي أب.

قالها ببساطة شديدة، وهدوء استفز أبالسة الغضب في نفس «مؤيد»، تساءل ساخطًا وساخرًا في الوقت نفسه:

- هل أنتَ معجزة أخرى؟!

دفع أسلوبه أيادي التوتر لأن تُبعثِر سكون الغرفة، وصلت ذبذباته إلى «صهيل»، فاضطرب مبيِّنًا:

- أقصد أنني لا أعرف لي أبًا، أنا لم أعرف سوى أمي؛ لم يُعانقني سواها.. ليس عناقًا كما تعانق الأمهات أولادهن؛ عناقها كان مختلفًا، لكنني لم أعرف عناقًا غيره.

لوهلة استاء «مؤيد» لسخافة الكلام، ثم ما لبث هذا الاستياء أن استمال ذكرى غائمة، هو كذلك لم يعانقه والده قط، لم يعرف سوى عناق أمه، لكنه الآن فقدَ هذا العناق إلى الأبد.

- كيف كان عناقها مختلفًا؟

- أمي لم تكن كباقي النساء؛ كانت بلا ذراعين.. وُلدت بضمور شديد فيهما.

رمقه «مؤيد» ساكنًا، يستدعي في خياله عناقًا بين امرأة بلا ذراعين وطفلها، كان يؤمن أن الله القدير ما خلق الذراعين للإنسان إلا لهدفٍ عظيم، وهو العناق؛ هذا السجن الذي تتشكل قضبانه من زوجين من الأذرع هو الوسيلة المثلى ليتمازج كيانان في وعاء نفسيٍّ فريد، ربما لهذا السبب لم يعانقه والده قط، لأنه لم يرغب في أن يشاركه الوعاء نفسه. رغم رغبته في استنطاق خياله عجز أن يُترجم شعور المرء، وهو يختبر عناقًا أبتَرَ.

غيَّر مجرى الكلام بغتةً، واستعاد نبراته العدوانية:

- لماذا قتلتَه؟

- لم أقتله.

- ما هو دليل براءتك؟

- وما هو دليل إدانتي؟

وكأنهما شخصيتان تتنازعان على بطولة حكاية، أطلق «مؤيد» سبّة في سره؛ لماذا على هذا الرجل أن يكون شبيهًا له إلى هذه الدرجة؟ هذا الشبه يُربكه، كأنه ينظر إلى نسخة أخرى من نفسه وُلدت في بيئة مغايرة، وتشربَت طباعًا وعادات مختلفة أفضت به إلى أن يصير مجرمًا، دفعه هذا لأن يفكر؛ هل البيئة هي التي تُشكِّل الإنسان، أم الجينات، أم كلاهما معًا؟

BOOKS

- إذا لم تقتله أنتَ فمن قتله؟ أنا لن أخرج من هذه الغرفة إلا وقد أغلقتُ ملف القضية، وذيَّلتُه باسم المجرم.

أطلق «صهيل» تنهيدة مرهقة، ثم قال مستسلمًا:

- سأقص عليكَ كل شيء من البداية.

***

كذب «صهيل»؛ لم يقص كل شيء، لم يعرض سوى ما أراد أن يُظهره من أجزاء القصة، كل قصة تتألف من مشاهد للعرض، وأخرى تبقى داخل الكواليس، في طي الكتمان، سرًا مخفيًا بين الكاتب وقارئ مميز، ولم يجد «صهيل» بعد القارئ الذي يُشاركه مشاهده السرية.

- هل استجوبتم البستانيَّ والخادمة؟

- أخذنا أقوال البستاني، لكن لا وجود لخادمة.

كان الفزع مقروءًا بجلاء فوق قسمات «صهيل»، وهو يسمع كلام «مؤيد» ومساعده، أقسم لهما إنه رأى الخادمة، وتكلم معها، لكن لم يصدقه أيٌّ منهما. مال «مؤيد» صوبه يهدر بعنف قبل خروجه:

- لن أتركَكَ تفلت بفعلتكَ؛ سأجمع ما يكفي من أدلة للزج بكَ داخل ظلمات السجن، إلى أن يشيب رأسك ويتساقط عمرك.

عصف به الذهول والخوف في آنٍ، أتكون رؤيته للفتاة وهْمًا أو سرابًا خادعًا؟

***

(36)
المكتبة الليلية

كما تقول الكاتبة لوري غوتليب: «أحيانًا الجحيم هو نحن!»؛ نحن الأشخاص صعاب المراس الذين نُرهق الآخرين في فهمنا والتعامل معنا، لكن ليس باليد حيلة، لو اعترفتُ للضابط بكل شيء دار بيني وبين السيد «ك» في غرفة مكتبه المغلقة لذهبتُ إلى المكان الذي لا يعود منه أحد، هناك خلف خط النار عند الحدود الشمالية، حيث يُلقَى بمجرمي الأبجدية.

ولأنني كنتُ بحاجة ماسة إلى ترتيب أفكاري انطلقتُ من مركز شرطة رقابة الأبجدية مباشرةً صوب المكتبة الليلة، من حُسن الحظ أن الساعة كانت تقترب من الثانية عشرة صباحًا. وقفتُ أمام باب المكتبة المطل على زقاق خلفيٍّ ممهد بقمامة مبعثرة وروائح عفنة -أحمد الله أنني لم أعد أشتمها- كان هذا الزقاق منذ سنوات طوال مرتعًا للقطط الضالة والكلاب المسعورة، والفئران التي تتقافز هنا وهناك، أما الآن وقد غابت الحيوانات عن البلد، أضحى الزقاق مستنقعًا لمخلفات الإنسان.

أنظر في ساعة معصمي، وأراقب تحرُّك عقرب الثواني ثانيةً بثانية، حتى التحمت العقارب الثلاثة في عناقٍ خاطف لا يحدث سوى مرتين في اليوم، وفي اللحظة ذاتها أدرتُ مقبض الباب. بدايةً استقبلني الظلام الذي يلفني كل مرة أخط فيها بقدمي داخل المكتبة الليلية، وما إن اعتادته عيناي حتى تلقَّفني الضوء الباهت الأصفر لشموع مُعلَّقة فوق الجدران، المكتبة هادئة كعادتها وكأنها فارغة من الزوار، والممرات خالية من القراء، لكن الحقيقة ليست كذلك.

ولكي تفهم ذلك، دعني أصِف لكَ أولًا شكل المكتبة معماريًّا، تبدو لك للوهلة الأولى كأي مكتبة عادية، باستثناء الإضاءة الصفراء الضئيلة، التي تُلقي في قلبك الكثير من الرهبة وكأنكَ في ردهة قصر أحد أمراء العصور الوسطى، لكن إن تجوَّلتَ في أطرافها ستكتشف أنها مُصمَّمة بشكل دائريٍّ، والدائرة ذاتها مقسمة إلى مثلثات مركزها منتصف الدائرة، وكأنها علبة من الجبنة المثلثات المطبوخة التي كنا نبتاعها من البقالة قبل الحرب.

كل مثلث عبارة عن غرفة منفصلة عما حولها، لها ثلاثة جدُر، كل جدار مُحمَّل بالكتب، الكثير من الكتب المنزوع من بطونها الحاء، بالإضافة إلى مكتب صغيرة، ومجموعة من الأقلام الرصاص، والورق الذي يقدمه حارس المكتبة لزوارها بلا مقابل.

دخلتُ إحدى الغرف المثلثة القريبة من النافذة المغلقة بالممر، كانت الكتب فوق الأرفف جديدة ومختلفة عما صادفتُه في هذه الغرفة قبلًا، سيدهشك ذلك في بداية الأمر، لكن مع الوقت ستدرك أن ترتيب الكتب يتغير في كل زيارةٍ لكَ للمكتبة، لن تجد أبدًا الترتيب السابق نفسه في أي غرفة مثلثة تدخلها.

ظننتُ في البداية أن الحارس يُبدل ترتيب الكتب فوق الأرفف رغم أنني لم أفهم المغزى لذلك، وعندما وجَّهتُ إليه السؤال ذات ليلة، أجابني بأنه لا يفعل، وأن الكتب هي التي تغير موضعها باستمرار داخل الغرف المثلثة، وأضاف:

- الكتب سريعة الملل، تنتقل من رفٍ إلى آخر أملًا في أن تكون موضع اختيار.

لن تُمكنكَ الجدران العالية من رؤية زوار المكتبة الآخرين حفاظًا على الخصوصية، ولهذا السبب لا يمكن لأي مخلوق أن يعرف عدد زوار المكتبة في ساعة بعينها، وحده الحارس الذي يجلس فوق مكتبه الدائريِّ في مركز الدائرة يعرف العدد، ولم يبُح به قط.

أزحتُ المقعد الخشبيَّ أمام المكتب الصغير، ثم أزحتُ فوقه جسدًا هده الإرهاق، وعندها تذكرتُ أنني لم آكل أو أشرب شيئًا منذ أن تصبَّحتُ برسالة السيد «ك»، وحتى هذه اللحظة. من المحظور اصطحاب الطعام والشراب من خارج المكتبة، وإن فكرتُ في المغادرة لن أتمكن من العودة ثانيةً، فلا يمكن زيارة المكتبة الليلية في الليلة الواحدة مرتين، هذا أحد أهم القوانين غير القابلة للخرق، التي صبَّها الحارس في الليلة التي زرتُ فيها المكتبة أول مرة.

استعنتُ بالقلم والأوراق الموضوعة بعناية فوق الطاولة الخشبية، التي من عادتها أن تكون هناك، جاهزة لاستقبال البوح، رحتُ أخط فوق الأوراق أسهمًا وعلامات في محاولة حثيثة لفهم اللغز الذي وجدتُ نفسي بغتةً في مركزه.

بدايةً، أنا لستُ قاتلًا، لم نسمع عن قاتل يستخدم سلاح الخيال في جريمته، أليس كذلك؟ لا يمكن لشخص أن يقتل آخر بمجرد تمنِّي ذلك أو تخيُّله، لكل امرئ ما نوى، من أصغر فِعل إلى أكبَره لنا فيه نية؛ إما طيبة وإما فاسدة، والعمل الطيب لا يصلحه خُبث النوايا، مثلما لا يصلح العمل الفاسد طِيب النوايا، لكن العمل لا يتحقق بالنية وحدها، لا يكفي أن أستيقظ من نومي متمنيًا تعبئة مئتَي صندوق من السردين، ثم أجلس في فراشي لا أصنع شيئًا، مكتفيًا بأن العمل سوف يتحقق بالنية، هذا لا يحدث في عالم الواقع. لا يمكن للنية أن تحقق العمل، ولا يمكن للخيال أن يقتل، ولا يمكن للأماني أن تحرك ساكنًا ما لم يصاحبها فِعل، ومن هذا نخرج بنتيجة حاسمة لا تقبل الشك؛ أنا لم أقتل السيد «ك».

ما حدث أمر غريب، لكنه قابل للتفسير، صحيح أنني تخيَّلتُ حبة العنب، وهي تقف في حلق السيد «ك» وتخنقه، إلا أن السبب الحقيقيَّ في هذا التخيل هو كلمات الخادمة التي حفَّزت خيالي؛ «شُعلة» التي هي في حد ذاتها قصة عجيبة أخرى، كيف يمكن لهذا الضابط أن يدَّعي أنه لم يكن في البيت أي خادمات للسيد «ك» وقت وقوع الحادثة؟ وأن خادمته الخمسينية وقعت من فوق السلم منذ ثلاثة أيام، وانكسرت ساقها، فعافاها من مهامها، وانطلق باحثًا عن خادمة جديدة كان من المفترض أن تتسلَّم عملها في الغد، من تكون الفتاة التي قابلتُها اليوم إذن؟ ولماذا تعاملَت وكأنها خادمة البيت أو مدبّرته؟ ولماذا كان حوارها عجيبًا؟ هي من زرعت في رأسي فكرة اختناق إنسان بحبة عنب، وهي التي تحدثت معي عن ذراعي اليسرى بسلاسة الحديث عن الطقس، ولهذا السبب تحديدًا كان يجب أن أشك أن ثمة شيئًا غير طبيعيٍّ يدور من حولي، لكن ما هو هذا الشيء؟ هذا ما أجهدني التفكير فيه دون جدوى! بينما يمسح لساني بهوسٍ فوق سِنتي الزائفة.

***

- هل أستطيع مساعدتكَ سيدي؟

السؤال ذاته الذي يستقبل به حارس المكتبة الليلية زواره؛ رجل في منتصف العقد السابع، قصير القامة، هزيل البُنيان، يرتدي نظارة بعدسات كبيرة نسبيًّا، ويعتمر قبعة رمادية لم أره دونها قط.

- المعتاد.

أومأ برأسه، ثم توارى خلف أرفف المكتبة العامرة بالكتب، كُتُب لم تعد صالحة للقراءة بعد أن نُزِعَت الحاء من بطونها، ولكي تدرك حجم الكارثة دعني أضرب لكَ مثالًا: هل تعرف كتاب «طوق الحمامة في الأُلفة والأَلّاف»؟ تخيَّل أن كلمة «حمامة» صارت ممنوعة، لأنها تحتوي على الحاء، لذلك نزع الفرع المسؤول عن رقابة الكتب الكلمة من العنوان، فأصبح اسمه «طوق الأُلفة والأَلّاف»، وأن «أحمد بهجت» صار «بهجت» فحسب، وفي بعض الطبعات يُكتَب «أمد بهجت»، وأن «يحيى حقي»، أُزيل اسمه كاملًا من فوق أغلفة كتبه!

ثم عكفوا على نزع كل الكلمات الحائية من سطور هذه الكتب، مع استبدال بعض المرادفات بأخرى غير حائية، هذا إن وجدت بالطبع، فبعض الكلمات لا تُشبه غيرها، ولا تقاسمها المعنى، ماذا تفعل إن أردت كتابة كلمة بديلة لـ «الحياة»؟ مهما تجهد فكركَ وتعكف على تصفح المعاجم، التي هي أيضًا خلَت من الكلمات الحائية، فلن تجد ما يقاسم «الحياة» معناها، وهذا ما لم يفهمه الناس قط عندما أقرُّوا قبل ثلاثين عامًا بنزع الحاء في مقابل الطعام والكسوة، وإعادة إعمار ما خلَّفته الحرب الأهلية من فوضى، لم يدرك الناس قط أنهم يتخلون عن «الحياة» الحقيقية في مقابل معيشة زائفة!

تسألني عن القرآن وكتب الأديان الأخرى؟ كادت تنشأ حرب جديدة عندما تصاعدت هتافات مطالبة بأن يطال حذف الحاء الكتب المقدسة، ولم يجد مجلس البلدية بُدًا من إخفائها تمامًا منعًا لنشوب خلافات طاحنة؛ لن تجد في مكتبات بلدنا كتابًا سماويًّا أو نصًا مقدسًا.

- تفضل سيدي.

وضع حارس المكتبة الليلية أمامي فوق الطاولة الخشبية كتابًا مهترئًا ذا غلاف مقوى، أومأ برأسه بأدبٍ كديْدنه، ثم تولى منغمسًا في أعماله المجهولة

داخل المكتبة، لا أعرف بالضبط من أين يأتي هذا الرجل بالمال اللازم لشراء احتياجاته الأساسية التي تُبقيه حيًّا، لم يسبق له أن تقاضى مالًا في مقابل قراءة الكتب، ولا مقابل الاستعارة الخارجية لمئات الكتب الموضوع فوق الأرفف، التي يشي تراكم التراب فوقها أن يدًا لم تمسها منذ أمد بعيد، وكذلك لا يبيع حارس المكتبة الليلية الكتب.

هذا فضلًا عن أنه يتخذ من أرفف المكتبة بكل ما تحويه من كتب منزوعة الحاء ستارًا يمارس خلفه عملًا إجراميًّا تُعاقِب عليه شرطة رقابة الأبجدية، مثل: كتاب «مختار الصحَّاح» في اللغة، كاملًا غير محذوف منه كلمة حائية واحدة، الذي وضعه أمامي الآن كوليمة شهية تنتظر أن أغرس فيها شوكتي وسكيني.

لا أعرف كذلك كيف يتمكن حارس المكتبة الليلية أن يمارس عمله الإجراميَّ من الاحتفاظ بالكتب الحائية في قبو مكتبته، وعرضها على زواره القلائل من رواد المكتبة، الذين يأتون دومًا في الساعة الثانية عشرة صباحًا بلا دقة زيادة أو دقة ناقصة، فأنتَ إن حاولتَ إدارة مقبض الباب قبل أن تنتظم العقارب الثلاثة في خط مستقيم واحد لن يستجيب لكَ، وحدها الثانية عشرة هي مفتاح باب المكتبة الليلية.

سبق وأن سألتُ الحارس:

- ألا تخشى أن يدخل المكتبة فرد من شرطة رقابة الأبجدية أو بعض الواشين بكَ؟

فكان جوابه عجيبًا:

- باب المكتبة لا يُشرَّع على مصراعيه إلا في توقيت معين فقط، إنها تستقبل أناسًا بذاتهم، أنتَ تظن أنكَ فقط من يَختار، لكنك لا تعرف أن مثلما يختار القارئ الكتاب الذي يقرؤه، فالمكتبة الليلية أيضًا تختار روادها.

بدا رده شاعريًّا ومحفزًا للخيال، مكتبة ليلية تجهل شرطة رقابة الأبجدية بأمرها، وتتوارى عن أعين مجلس البلدية، قبوها عامر بآلاف الكتب الحائية التي يظن جميع الناس بالخارج أنها مُحِيَت إلى الأبد، يحرسها رجل عليم بكل كتاب وكل مؤلف أنجبته الأرض يومًا، وكأنه يملك فوق رقبته فهرسًا للكتب محاطًا بجمجمة بشرية، كي يحسبه الآخرون إنسيًّا، وفوق كل ذلك تختار

المكتبة زوارها الذين تفتح أمامهم أبوابها مع دقات الثانية عشرة صباحًا من كل يوم.

كيف عثرتُ على المكتبة؟ هل تصدق أن أحدًا لم يخبرني بأمرها، مثلما قال لي الحارس يومًا: «أنت لا تعثر على المكتبة؛ المكتبة هي التي تعثر عليكَ». رغم جنون كلماته، فإنه كان صادقًا إلى حدٍ بعيد، هل تصدق أن المكتبة عثرت عليَّ في نفس اليوم الذي هربتُ فيه من غرفة خفير بيت السيد «ك» قبل عام؟

عندما خرجتُ لاهثًا من البيت أهرول دون وجهة محددة، أخشى أن يعثر السيد «ك» عليَّ، فيسجنني مرة أخرى، سرتُ في الشوارع بلا وجهة خائفًا من العودة إلى البيت، قادتني قدماي إلى الزقاق الخلفيِّ، لو كنتُ في حالة أخرى تمكنني من شم الروائح العفنة التي ولا بد أنها منبعثة من فضلات الطعام من حولي لامتنعتُ عن الاختباء فيه، لكنني كما أخبرتُك، كنت قد فقدتُ حاستي الشمية داخل غرفة الخفير، فاختبأتُ في الزقاق شحيح الإضاءة ظمآن.. جوعان، وسياط البرد تلسع عظامي.

بغتةً، امتدت يدٌ من خلفي بماءٍ، وزاد، ودثار خفيف؛ امرأة في عمر والدتي لو كانت لا تزال على قيد الحياة، لم يبدُ وجهها غريبًا، علها كانت بالفعل إحدى صديقات أمي اللاتي اعتدن أن يزُرنها في جلسات العصاري حول أكواب الشاي بالحليب لتُفسر لهن الأحلام.

لم تنطق المرأة بكلمة، غادَرت فجأةً كما ظهرَت فجأةً، نظرتُ خلفي، فلم أجد مدخلًا آخر للزقاق، وبينما أطوف فيه متعجبًا لمجيء امرأة حسنة المظهر مثلها إلى هذا المكان القذر، وبينما كنتُ أستند إلى باب المكتبة الليلية دون أن أدري كنهه، وذلك في تمام الساعة تمام الثانية عشرة صباحًا؛ شعرتُ برغبة حثيثة تدفعني لإدارة المقبض، الذي انفتح بيُسر مفضيًا إلى ممر طويل سرتُ فيه برهبة إنسان يتلكَّأ في الخطى صوب المجهول.

مثير، أليس كذلك؟ أنتَ إذن تتفهم رغبتي المستمرة في خرق القانون بزيارة المكتبة، وقراءة الكتب المستترة المخبوءة في قبوها، أنتَ إذن تفهم كيف أن الممنوع مرغوب وبشدة، فلولا المنع والتحريم والتجريم لما كان للشهوات سطوة.

***

غصتُ لساعة كاملة بين ثنايا كل الكلمات الحائية التي حُرِمنا من التلفظ بها أو كتابتها، ستون دقيقة أمضيتهم بين «الحق»، و«الحنين»، و«الإيضاح»، و«المرح»، و«الطموح»، و«البحر». والآن بعد أن راق ذهني، وصفَت أفكاري، عليَّ أن أفتعل مغامرة محفوفة بالمخاطر، لكنها ضرورية كي أسترد النسختين الوحيدتين من روايتي الأخيرة.

بعدما قطع السيد «ك» حنجرته بالخنجر فقدتُ الوعي، بقيتُ على الأرض لنصف ساعة حسب تقديري، وعندما أفقتُ –ومن حسن حظي– كان ذلك قبل دقائق من وصول الشرطة إلى بيت السيد «ك»، بعدما هاتفهم البستانيُّ الذي دخل المكتب بهدف إقناع السيد «ك» أن يتخلص من زهور العسل، وخلال تلك الدقائق الثمينة تخلَّصتُ من بطاقة الذاكرة عن طريق بلعها! نعم، لم أجد طريقة أخرى سوى بلعها، بينما أسمع خطوات أقدام فريق الشرطة يقتحمون البيت، ويتوجهون صوب مكتب السيد «ك».

سأعود الآن إلى بيت السيد «ك»، أستغل خبرتي بثغرات البيت ومداخله، أتسلق شجرة الليمون الخلفية، التي تُفضي بعض فروعها المتينة إلى نافذة غير مُحكمة الغلق، سأفتحها وأدلف بهدوء إلى مكتب السيد «ك» كيلا ينتبه الحارسان اللذان لا بد وأنهما يشاركان البستانيَّ والخفير شُرب الشاي الساخن في هذه الليلة البادرة، سأسير فوق أطراف أصابعي متوجهًا إلى المكتبة، سأتسلق رفوفها بخفة، كي أحضر نسختَي الرواية من الرف الأخير، ثم أغادر البيت من الطريق التي سلكتها لدخوله دون أن ينتبه لي أحد، هكذا فعلتُ عندما تسللتُ لدسِّ نسختَي الرواية في مكتبة السيد «ك»، وهكذا سأفعل لإخراجهما.

ثم سأعود إلى البيت متجاهلًا لوم زوجتي وعتابها الذي لا يفتر، وسؤالها المستمر عن سبب تأخري، وشكها في أنني كنتُ مع امرأة أخرى، وادعائها بأنها تشم رائحة أنثوية تنبعث من قميصي، ثم أتلحَّف في فراشي، وأنام بعمق بلا أحلام.

كل هذا حدث بالضبط وكأنني كنتُ أرسم سيناريو لمخرج محترف تمكَّن من تجسيد المشاهد المتتابعة في رأس المؤلف، كل ذلك إلا تفصيلة واحدة.. تفصيلة صغيرة بدَت وقتها تافهة وغير مهمة؛ عثرتُ على نسخة واحدة فقط

من روايتي، الأخرى لم تكن بمكانها في الرف العلويِّ، اختفت تمامًا وكأنها لم توجد قط!

لن أفكر في هذا الآن، الدفء يتسلق الفراش من تحتي، اللحاف يحمل رائحة كبريتية ممزوجة بنفحة رماد مع عطر خشبيٌّ ثقيل هو كل ما أستطيع شمّه في هذا العالم، النوم يزحف فوق أجفاني، ويجذبهم بقوة.

سأنام الآن، غدًا سأفكر في أمر الخادمة التي تبخرَت، وثمرة العنب التي قتلت السيد «ك»، والنسخة المفقودة من روايتي، وحارس المكتبة الليلية الذي يمارس عملًا إجراميًّا، لكن اتركني أنام الآن.

***

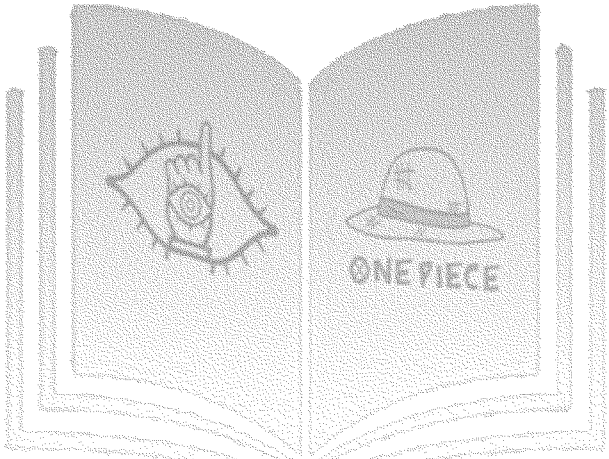

BOOKS

(37)

لقاء بين السطور

غيَّر «يوهان جوتنبرج» وجه العالم عندما طبع الكتب، كان يستغرق يومًا كاملًا لإعداد الحروف المعدنية المستخدمة في طباعة صفحة واحدة قبل أن ينتقل لإعداد الصفحة الثانية، الطباعة بالنسبة إليه كانت طريقًا للتجارة بعد أن ازدادت حاجة الطبقة المتوسطة المثقفة إلى اقتناء الكلمات المكتوبة.

في الحقيقة، كان الصينيون يسبقونه في اختراع تقنية الطباعة، صحيح أنها كانت بدائية إلا أنها البذرة التي سقاها «يوهان»، ونبتَ منها الشجر والورق والثمر. تلك الحقيقة تحديدًا هي ما كانت تسوق إلى رأسي فكرة شيطانية عن طباعة الكتب الحائية، وتوزيعها سرًا على طالبيها، ليس كنوع من التجارة كما كان الأمر مع «يوهان»، وإنما لحاجة أسمى؛ إعادة الاعتبار للحرف الذي استُبعِد طويلًا من الأبجدية.

هذا ما كان يوسوس به مارد الخيال الذي يسكن ذراعي اليسرى، ومع كل وسوسة كانت ذراعي تزداد احتقانًا، وعندما تحتقن أشعر بتنميل في أطرافي، وكأن الأعصاب قد تخلَّت عن مهمتها في هذا الموضع، فلا أعُود قادرًا على حمل علبة سردين فارغة.

- انتبِه يا أبله!

هكذا صاح رئيسي في العمل عندما تفلَّتت كرتونية كبيرة من يدي، وتبعثرت محتوياتها من علب السردين أرضًا. في البداية كانت تزعجني رائحة السردين المنبعثة من كل شيء؛ العلب، والآلات، والأرض، والحوائط، والفواتير، والملابس. كنا نتحول داخل المصنع إلى سردين مُعلَّب، بعددنا الكبير، وأجسادنا اللامعة عرقًا مالحًا.

الآن لم تعد تزعجني الرائحة، لم تعد موجودة من الأساس، الطبيب الذي عكفتُ على زيارته لشهرين بعد حادثة احتجازي لم يمنحني سببًا منطقيًّا أو طبيًّا لِما أصابني، وهذا ما جعلني أتقاعس عن الذهاب إلى طبيب نفسيٍّ كي أعالج مشكلة ذراعي، ليس هذا فحسب بل لأنني لا أملك المال الكافي لأفعل، على أي حال الأطباء لا يجيدون سوى بيع الأمل جنبًا إلى جنب المسكنات، لا شيء أكثر.

***

- ماذا تقصد بأنك لم تعثر عليها، كيف ذلك؟ أين اختفت؟

لم أعرف؛ هل يقصد الخادمة أم النسخة الثانية من روايتي؟ التففنا حول مفرش قماشيٍّ كبير وضعنا فوقه ما جادت به زوجتي من طعام الغداء، «رفيق» صديق طيب، وزميل متعاون، وأخ مخلص، ومستمع جيد، وفوق كل ذلك يعتبرني عرَّابه، كان حلمه أن يكتب الروايات، ولم أفهم كيف يكون للمرء حلم بأن يصير كاتب روايات، هذا شيء لا يُحلم به، لا تتمناه، ولا تسعى إليه، ولا تحرص عليه؛ إنه يحدث رغمًا عنك، لكن «رفيق» تمنى، وعندما اكتشف سري الثاني الخطير، وعرف بعملي المستتر ككاتب ظِل، اشتعلت رغبته أكثر في الكتابة؛ يطرح عليَّ يوميًّا العديد من الأسئلة التي تقف عقبةً بينه وبين السطر الأول، أحاول أن أمنحه إجابات منطقية شافية لأسئلته التي أعجز عن فهم أسبابها.

لا أحد يسأل السمك عن سبب عومه، أو عن تفضيله لنوعٍ معين من الماء، ودرجة معينة من الحرارة أو البرودة، لا أحد يسأل السمك عن إحساسه الداخليِّ بالحراشف، وعن شعوره إن فقد إحدى زعانفه بغتةً، ومعها قدرته على السباحة؛ كل هذه الأسئلة مرهقة للذهن ومستنفدة للطاقة، وكافية لإشعار أي سمكة في العالم أن السائل لا يفقه شيئًا عن عالم البحار، هكذا تُشعرني أسئلة «رفيق» عن الكتابة.

أجبتُه بعد زفرة عميقة أملتُ في أن تسحب كل إحباطاتي معها إلى الخارج:

- أنا أيضًا لم أفهم كيف يدَّعي هذا الضابط أن الخادمة لا وجود لها. أقول لكَ إنني تكلمتُ معها وجهًا لوجه يا «رفيق»، صورتها لا تزال مضيئة

في ذهني، وكأنني فارقتُها للتو؛ عيناها.. نظراتها.. فستانها الأسود المصنوع من قماش ممنوع استخدامه.. تصفيفة شعرها.. شامتها الصغيرة في الركن الأيسر من شفتها العلوية.

حكَّ «رفيق» ذقنه، جذب شعرة من رأسه، وتلك عادته عندما يكون منهمكًا في التفكير. ثم شاركني فِكره:

- قد تكون وهمًا بسبب إرهاقك في العمل يا «صهيل». ذات يوم استيقظتُ من شدة الجوع وأنا أتخيَّل أن في الثلاجة ملوخية بماء الزهر مطهوَّة ومُعدَّة للالتهام!
- أشعر بالإرهاق، فأتخيل خادمة تتكلم معي عن ضرورة بتر ذراعي، وإمكانية وقوف ثمرة عنب في مجرى التنفس، وقدرة الخيال على القتل. ثم يقع كل شيء كما قالت هي؟!

حكَّ «رفيق» ذقنه، وجذب شعرة أخرى:

- ممم.. بالفعل، هذه صدفة أكبر من أن تكون وهْمًا.
- لا أؤمن بالصُدف يا «رفيق»، لكل تفصيلة معنى، لأن كل تفصيلة هي سبب لتفصيلة تتبعها، التي هي في الأساس نتيجة لتفصيلة تسبقها؛ هكذا تُكتَب الروايات.. سبب ثم نتيجة، ثم سبب ثم نتيجة؛ يقود كل مشهد إلى المشهد الذي يليه وإلا كان زائدًا على النص.

تحمَّس كعادته كلما تطرقتُ إلى الحديث عن الكتابة، استطردتُ:

- مشهد الخادمة موجود لسبب، واختفاؤها أيضًا لسبب.

تنحنح قائلًا في شيء من الاضطراب:

- لكن الواقع مختلف يا «صهيل». كثيرًا ما تقع أشياء نعجز عن فهم أسبابها، ولا نملك القدرة على رؤية نتائجها، بينما أبطال الروايات يعرفون كل شيء؛ عالم الروايات غير عالم الواقع.

عارضتُه بعنف:

- خطأ، إنه العالم نفسه. أنت لا تنظر إلى الواقع من وجهة نظر الراوي العليم كُليِّ المعرفة الذي يعلم خبايا الأفعال، وسرائر القلوب، والدوافع والنوايا، وأدَق المشاعر التي تدفع الشخصية إلى أن تتبدَّل من فكر إلى

BOOKS

فكر، لأنكَ مهما تبلغ من علم وقدرة لن تصير أبدًا كُليَّ المعرفة، وكذلك بطل الرواية، وخاصةً في الروايات التي تُكتَب بصوت بطلها؛ البطل لا يدرك سوى أبعاد المأزق الذي يضعه فيه الكاتب، لكنه لا يعرف ما الذي تفعله باقي الشخصيات في المشاهد التي تسبق مشهده، والمشاهد التي تليه، لا يعرف عند أي نقطة سيتأجج الصراع، وتتأزَّم الوقائع وتتعقَّد القصة، وعندما تتكشَّف النهاية لا يدرك سوى ما أراد منه الكاتب أن يدركه. تنتهي جميع الروايات، بينما البطل يجهل أكثر مما يعرف؛ هذا هو قانون الروايات.. ومبدأ الواقع.

- تقول إذن إن ثمة هدفًا من ظهور الخادمة، ومن ثم اختفائها؟
- بالتأكيد، كل شيء في هذا الكون له سبب، وجهلنا بالسبب لا ينفيه. لا توجد صُدَف، وإنما سلسلة من الأقدار يقود بعضها إلى بعض.

***

فارقتُ «رفيق» مباشرةً أمام البيت، كنتُ بحاجة إلى الاسترخاء.

الكلمة أداة كونية، الكاتب لا يُسطِّر جُملًا جوار بعضها بعضًا، بل يُنشئ كونًا كاملًا متجانسًا، له لون وطعم ورائحة، له قوانين وأبعاد واضحة، والكلمة التي تُنشئ كونًا هي في نفسها كلمة ذريَّة، غير قابلة للتجزئة، ما فعله قانون الأبجدية هو أنه نسَف الكلمة وعصف بها، فلم ينشأ عنها سوى أكوان هشَّة، باهتة، متخلخلة.

أجواء البيت خانقة، لا تساعدني على الاستغراق في التفكُّر والتأمل، والتخييم في غابات الخيال، بحثتُ عن دفتري الذي أدوِّن فيه أفكاري الآمنة، المطيعة، غير المخالفة للقوانين، فلم أجده.

- هل رأيتِ دفتري؟ ما هذا الدخان؟
- أقلي الباذنجان!

كانت تلك من المرات النادرة التي نُجري فيها حديثًا عاديًّا بلا شجار، حتى إن هاتين العبارتين تُعدَّان حوارًا كاملًا، صار العالم صامتًا بشكل يفوق الاحتمال، أصابنا جميعًا سرطان الصمت؛ تكاد ترى للصمت لونًا، تشمّه، تتنفسه، تغوص فيه من رأسك إلى أخمص قدميك.

هل تتخيل بلدًا يُجرَّم فيه «الحوار»، وبيتًا يخلو من «الحنان»، و«التضحية»، و«الإحسان»؟ صارت البيوت جافة.. باردة، والشوارع قاتمة.. باهتة؛ منعَت المقاهي والنوادي والندوات، وكل الأمكنة التي من الممكن إنشاء حوارٍ بها، يؤمنون أن «الحوار» يقود إلى التحزُّب، و«التحزُّب» يدفع إلى الإتيان بالحُجة، و«الحُجة» تستجلب سحق المخالِف، و«السحق» يستجلب الحنق، و«الحنق» يخلق الأحقاد، و«الأحقاد» تعقبها مشاحنات، و«المشاحنات» تستدعي السلاح، و«السلاح» يُفضي إلى الحرب؛ سلسلة من الكلمات الحائية الملعونة تفضي إحداها إلى الأخرى (كما زعموا).

- تعرفين أنني لا آكل الباذنجان.

- لا تأكله إذن!

كان رأسي يفيض بتأليف القصص، وكتابة الروايات؛ قالوا لي: «أنتَ مريض بالخيال؛ تزوَّج فالخيال يخنقه الزواج»، تزوجتُ فأصبحتُ مريضًا بالخيال وبالزواج! ما كدتُ أدور على أعقابي حتى استوقفتني كلمات زوجتي:

- ليس بهذه السرعة!

انحنَت صوب قميصي تتشمّمه؛ تتقصى أثر عطر أنثويٍّ يُثبت لها بالدليل القاطع أنها متزوجة من زنديق عربيد، انكمش أنفها لما صفعته رائحة السردين، ولما يئسَت من أن تجد رائحة أخرى تشارك السردين قميصي، ابتعدَت ترمقني بذات النظرة الضيقة، تُشمِّر عن لسانها لتخوض النقاش الوحيد الذي تجيده:

- أين ستذهب؟

- بالطبع إلى «رفيق»، وهل لي غيره؟

- فيمَ ستتكلمان؟

- عن العمل، وهل أفعل غيره؟

- أين ستجلسان؟

- في بيته، وهل يملك غيره؟

BOOKS

تقهقر الشك، وإن لم يتبدد تمامًا، منحتها ابتسامة واسعة، أواري بها اضطراب قسماتي، ثم تجمَّدت بسمتي فجأةً، اقتربتُ من طبق الباذنجان، أتأمل الورق المفروش أسفله والمشبع بالزيت، متسائلًا بحدة:

- ما هذا الورق؟ من أين أتيتِ به؟

- من دفترك.

قالتها بلا مبالاة شديدة، كظمتُ غيظي، لا لأجلها، بل لأجلي، إن تشاجرنا سيطول مكوثي في البيت، ولا أحب إليَّ الآن من المغادرة، في اللحظة التي فتحَت فيها فمها لتسأل سؤالًا جديدًا، كنتُ قد درتُ على أعقابي بالفعل مغادرًا المطبخ كطلقة.

بالطبع لم أذهب إلى «رفيق»، تحسستُ الغلاف الجلديَّ للرواية التي أُخفي نصفها داخل بنطالي، وأواري نصفها الآخر بمعطفي البُنيِّ، يفصلني ساعتان عن الثانية عشرة صباحًا، لم أجد ما أفعله سوى الانتظار في الزقاق الخلفيِّ. مر الوقت ببطء كشأن كل الأوقات التي ننتظر انقضاءها بصبرٍ فارغ، وما إن تعانقت العقارب الثلاثة حتى أدرتُ مقبض الباب، وولجتُ داخل أروقة المكتبة الليلية.

***

هل أسعدكَ الحظ يومًا بزيارة مكتبة تسمع فيها هسيس الكتب بينما تمر بجوارها من رواق لآخر؟

عندما أخبرني حارس المكتبة الليلية أن المكتبة تختار روَّادها، كنتُ على ثقة كذلك بأن الكتب تختار قرَّاءها، فقط الكتب الهالكة هي التي تعجز عن الاختيار، وكل الكتب التي تراها معي فوق الرفوف هالكة، ومُهلِكة، ما فائدة قراءة كتاب لا يتحدث عن «الحياة»، أو «الروح»، أو «الفرح»، أو «الحرية»؟!

هل تعرف كم كتابًا جديدًا يصدر سنويًا؟ كم رواية تنضم إلى أرفف هذه المكتبة وما سواها؟ الكثير، أكثر مما يمكن حصره، لكنها فارغة مثل بطن شحَّاذ، تجتمع فيها الأحرف الخائنة لابن الأبجدية المعزول، تُشكِّل كلماتٍ تدور وتدور حول المعنى دون أن تصيب الهدف، كيف أقرأ كتابًا عن السعادة دون أن أعرف عن «الحب»، وكتابًا عن القوة دون أن أعرف عن «الكفاح»،

وكتابًا عن السلام دون أن أعرف عن «الحرب»؟ ربما يؤمن الجميع أن تلك الكلمات هي التي تسببت في اشتعال رحى الحرب في البلد قبل ثلاثين عامًا، لكن منعها ليس حلًا، إنه كمحاولة التخلص من جمرة بدفنها داخل بركان!

كلماتي هذه مجرد هرطقة، جنون، أو عتَه، هكذا سأبدو للناس إن فكرتُ بالإفصاح عن أفكاري ومشاعري الحقيقية. هل تعرف لماذا نجحت جميع الروايات التي كتبتها للسيد «ك»؟ هل تعرف لماذا أحبها الناس، واحتفوا بها وبكاتبها الزائف؟ لأنهم زائفون مثله ومثلها، قرؤوا فيها ما أحبوا أن يقرؤوه، لم تضعهم في مواجهة مباشرة مع النسخة الأخرى من ذواتهم؛ داهَنَتهم وخدعتهم وأوهمتهم أنهم الأقوى والأنقى والأفضل، جسدَت الصورة التي أحبوا أن يروها في أنفسهم. كتابات زائفة خطَّها كاتب ظِل زيَّف مشاعره وأفكاره، ثم ألصق كاتب زائف اسمه عليها ليقرأها قراء زائفون.. هذه هي معادلة النجاح هنا.

أما روايتي هذه فلها شأن آخر، مسحتُ بكفي فوق الغلاف الجلديِّ الأسود، نفَّضتُ عنه شوقًا طال لأشهر، تأملتُ صفحة الإهداء الفارغة، وصفحة الشكر الخالية، ثم تحركت عيناي صوب الصفحة الأولى والسطر الأول فالثاني، وعندئذٍ تجمدت البسمة فوق وجهي.

ثمة خطأ في السطر الثاني، كلمة تبدَّل حرفاها، صحيح أنها مجرد نسخة أحتفظ بها لنفسي، لكن ذلك أزعجني بشدة؛ أزعجني إلى الحد الذي دفعني لألتقط من جيبي السريِّ بمعطفي قلم حبر ورثته عن أمي، ربما قلم الحبر الوحيد الباقي في هذا البلد، أُخفيه عن أعين الجميع، وأحمله سرًا عندما آتي إلى المكتبة الليلية.

كان بإمكاني بسهولة محو الكلمة المكتوبة بالقلم الرصاص وتصويبها، لكنني كنتُ مفتقدًا لملمس «الحبر» فوق الورق. أمسكتُ بقلم الحبر أخط به الكلمة الصحيحة فوق الكلمة الخاطئة، بدت الكلمة التي احتلَّت الفراغ بين السطر الأول والثاني كأنها رواية أخرى تكتب نفسها؛ رواية غير قابلة للمحو. كانت الكلمة «نجحتُ»، ولسبب أجهله وجدتني مدفوعًا لأكتب بجوارها «نجحتُ، لأول مرة أعرف ماذا أريد حقًا».

كلمتان حائيتان في جملة واحدة ومكتوبتان بقلم «حبر»، شعرتُ بالزهو، لكن هذا لم يمنعني من التلفُّت حولي بخوف رغم ثقتي بأن شرطة رقابة الأبجدية لو كانت تعرف بأمر هذه المكتبة لكنتُ وحارسها في عداد الأموات منذ زمن طويل.

أغلقتُ الكتاب، مسحتُ فوق غلافه ثانيةً، تواتيني فكرة مجنونة، بينما أتذكر سؤال الخادمة: «هل للخيال قدرة على القتل؟». للخيال قدرة غير محدودة في العوالم الروائية، لكن ماذا لو امتدت سطوة الخيال إلى الواقع؟ ماذا لو أصبح للخيال قدرة على إحداث تأثير حقيقيٍّ في العالم الحقيقيِّ؟ ماذا إن تحققت المعجزة، وزارتني جنية الأسنان، وأخذت سِنتي مقابل القدرة على تجسيد الخيال؟

مسحتُ بلساني فوق سِنتي الاصطناعية، رحتُ أتخيل، ماذا لو فتحتُ هذا الكتاب الآن لأجد قارئًا خفيًّا يقرأ روايتي سرًا بشكلٍ ما، ويُعلق على السرد سطرًا بسطر؟ أمَا كان هذا ليكون رائعًا؟ الكاتب والقارئ يتبادلان حوارًا حقيقيًّا بين سطور العالم الروائيِّ.

- كيف أستطيع مساعدتكَ سيدي؟

- كتاب من اختياركَ.

أومأ الحارس برأسه بأدبٍ، ثم اختفى خلف الأرفف ليأتي لي بطلبي من القبو، ريثما يعود وجدتُني أفتح الرواية مرة أخرى. الإهداء الفارغ، والشكر الخالي، والصفحة الأولى... السطر الأول والثاني و... ما هذا؟! عند بداية الفراغ بين السطرين؛ الثاني والثالث، وجدتُ هذه العبارة مكتوبة بقلم حبر وبخط اليد:

«ليتني مثلك أعرف ما أريد!».

انتفضتُ ملقيًا بالكتاب من يدي، خفق قلبي بشدة، شعرتُ بتنميل خفيف تتصاعد وتيرته في أصابع يدي اليمنى، أمسكتُ بالكتاب ثانيةً، فتحتُ صفحاته علَّ الإرهاق دفعني لرؤية وهْمٍ، لكن الكلمات المكتوبة باللون الأزرق وبخط يدٍ مُغاير لخطي بدَت واضحة لرؤى العين.

- تفضل سيدي.

انتفضتُ ثانيةً، وأنا أغلق الرواية بقوة، قلتُ بصوت متلجلجة خلجاته:

- شكرًا.

انصرف الحارس يستكمل أعماله الغامضة، بينما قلبي يتواثب في صدري، كيف حدث ذلك؟! أنا لم أفقد عقلي، أم تُراني فقدتُه؟ أساسًا العقل كان الشيء الوحيد الذي أمتلكه، الأثمن والأجود، إن فقدتُه سأصير أنتَ أو هو أو هم، سأكون مجرد واحد من آلاف الناس الذين يسيرون في الطرقات بالخارج، ويؤمنون أن نزع الحاء من الأبجدية كان حلًا مثاليًّا لوقف الحرب.

مسحتُ بيدي فوق الكلمات التي لم أكتبها، والتي نبتت فجأةً من العدم، كانت حقيقية جدًا؛ حقيقية بشكل أثار بداخلي زوابع وأعاصير، بأنامل مضطربة ورغبة ولهفة رحتُ أخط بالقلم في الفراغ بين السطرين -الثالث والرابع- هذه الكلمات.

«الطفل الذي لم يجرب الأشياء الغبية، مثل: أكل التراب، ولعق الطبشورة، وطرق باب الجيران، ثم الفرار؛ لا يستطيع اكتشاف العالم الحقيقيِّ، لذلك يكبر دون أن يتعثر بشغفه، فلا يدرك ما يريد، وما لا يريد».

انتهيتُ من كتابة هذه الكلمات، وانتظرتُ معجزة، تعلَّقت أنظاري بالفراغات بين السطور؛ الفراغات التي ظلت على حالها لنصف ساعة أو يزيد، أغلقتُ الكتاب بقوة، ثم ألقيتُ به فوق الطاولة بانزعاج، ألوم نفسي سائلًا إياها: ماذا توقعتَ يا «صهيل»؟ أن تحاوركَ يدٌ خفية؟ يا لكَ من أبلَه! لعل الكلمات الأولى كانت موجودة منذ البداية وأنت الذي لم ترَها. لعل شخصًا ما أخذها بفضول من مكتبة السيد «ك»، فتحها ودوَّن الكلمات دون أن يقرأ منها سطرًا، وإلا لأدرك على الفور أنها رواية محظورة، ولكان وقتها السيد «ك» متهمًا بخرق قانون الأبجدية، ولعل السيد «ك» نفسه هو الذي دوَّن هذه الكلمات، نعم.. هذا منطقيٌّ، عثر على الرواية فوق أرفف مكتبه، وما كان مساومته لي قبل موته سوى خدعة، لقد كان يعرف بالفعل أن الرواية بحوذته.

كان ذلك مقنعًا جدًا، دقيقًا جدًا، منطقيًّا جدًا، لولا أنني ما إن فتحتُ الكتاب حتى رأيتُ هذه الكلمات مكتوبة بخط اليد ذاته في الفراغات بين السطور:

«كنتُ طفلة مثالية، حالمة، منطوية؛ لعل هذا هو السبب».

BOOKS

الآن أدركتُ ثلاثة أشياء دفعة واحدة:

أولًا: أنا لستُ واهمًا، ثمة يد خفية تحاورني في أغرب مكان قد يلتقي فيه شخصان... بين سطور رواية!

ثانيًا: أنها فتاة أو امرأة أو عجوز.. المهم أنها لم تعد طفلة.

ثالثًا: أنها تستطيع كتابة كلمات حائية دون أن تخشى المساءلة، وتلك النقطة الأخيرة رفعت مُعدَّل الإثارة إلى درجتها القصوى، شخص يُشاركني الممنوع! رحتُ ألهث وأتبسم دون قدرة على التحكم في ردة فعلي، حتى نظرات الحارس الفاحصة من أسفل نظارته لم تكن كافية لأعود إلى رشدي.

احتضنتُ الكتاب بين يدي، وكأنني أحمل كنزًا ثمينًا.. فريدًا، لا مثيل له في العالم؛ كنزًا يخصني وحدي.

***

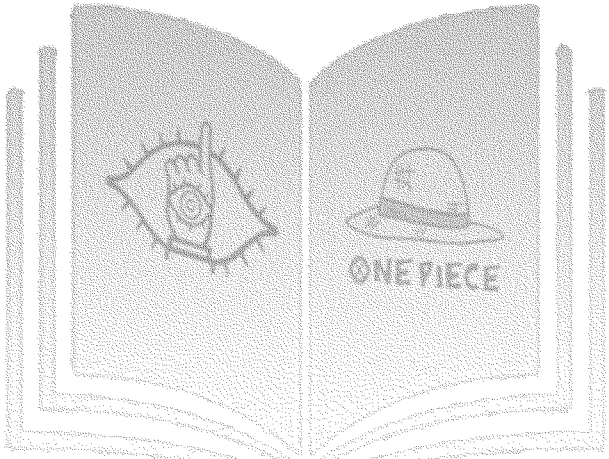

BOOKS

(38)

جريمة خارج أسوار الإمكان

لم يغمض له جفن طوال الليل؛ يتقلب فوق جمر الأرق، إلى أن نضج واستوى وطاب أكله، فأعدَّ منه الغضب وجبة فطور.

اندفع «مؤيد» من فراشه ما إن أبدت الشمس أطراف ثوبها، لم يشارك والده مائدة الإفطار؛ لم يرغب في أن تلتقي الأعين كيلا ينكشف الخواء الذي يشعر به في نفسه إثر التهام الغضب له منذ قليل، هذا الخواء يُشعره بالانزعاج، فلم يعتَد أن يكون رجل مشاعر تجرفه العواطف مدًا وجزرًا.

لطالما كانت تأدية الواجب يسيرة على نفسه، لم يُوضَع من قبل في قلب الاختبار، يقال إن الإنسان يظن في نفسه القوة والشجاعة، والنزاهة، والجود والنبل، وكل ما عظُمَ من خصال، إلى أن يُوضَع بين فكّي التجربة؛ اختبار أخلاقيٌّ غير متوقع يأتيه من مأمَن يدفعه لأن يواجه نفسه في المرآة.

وقف أمام المرآة ناقمًا على الانعكاس الذي يتطلع إليه في انزعاج، تطل من عينيه مشاعر انكسار تثير في نفسه عواطف لا يجب أن تعصف برجل شرطة نزيه مثله، عندما مر في ذهنه رغبة عابرة لمخادعة القانون وطمس الأدلة، كي ينقذ أمه من مصيرها الأسود، انتفض وكأن مسًا أصابه. عنَّف الانعكاس الذي يُطالعه في المرآة: «عُد إلى رشدكَ، هذا ليس أنتَ! إنها مجرمة، ويليق بها المصير الذي ينتظرها».

لم يجد ما يقطع به الوساوس على نفسه سوى العمل؛ دفن نفسه داخل مكتبه، يُطالع ملف قضية موت السيد «ك»، يدير دفة الغضب صوب المشتبه به، الذي لم يتمكن من إثبات التهمة عليه بسبب تقرير الطب الشرعيِّ، إذ تبيَّن أن زاوية القطع وعمقها، وميل الخنجر فوق رقبة السيد «ك» يؤكد أن الشق

نتج عن يد السيد «ك» شخصيًّا، وليس عن شخص يقف أمامه أو خلفه، خاصةً وأن السيد «ك» رجل أعسَر، عكس المشتبه به.

فضلًا عن عدم وجود دماء متناثرة فوق ملابس المشتبه به، وغياب بصماته كذلك على الخنجر، والأقوى من ذلك كله أن الطب الشرعيَّ أثبت وجود عنبة كبيرة سدَّت منفذ الهواء عن رئتَي السيد «ك»، تمامًا كما ادعى هذا الـ «صهيل»، لذلك لم يستطِع توجيه تهمة القتل العمد إليه.

لكنه شرطيٌّ ماهر؛ ماهر إلى درجة أن يعرف بقرون استشعاره البوليسية أن ثمة شيئًا غير طبيعيٍّ في هذا الرجل، ليس للأمر علاقة بقصة ذراعه اليسرى، التي هي بالفعل غريبة، ولم يسمع بمثلها قبلًا، ولكن أيضًا بسبب نظراته، وإيماءاته، ولغة جسده، إن كان «مؤيد» بارعًا في إنهاء كل القضايا التي كُلِّف بها إلى الآن، فهذا لسبب أكبر وأهم من قوته وشجاعته وذكائه؛ إنها قدرته على شم المجرم من بُعد أزمنة ومسافات، وهذا الرجل المدعو «صهيل» مجرم لم يُكتشَف جُرمه بعد، لكنه سيفعل، بكل ما أُوتِيَ من غضب يتصاعد بداخله، ويُسلمه للعدالة بنفسه.

«لن يفلت من يدي.. لن أقبل بذلك»، قالها وهو يضم قبضته، ويضربها فوق المكتبة بقوة، ما دامت أمه لم تنجُ، وما دام لا يستطيع إيجاد مخرج قانونيٍّ لإنقاذها، ما دامت يد القانون قاصمة وقبضتها عادلة؛ لن ينجو مجرم على ظهر هذا البلد، لن يترك «صهيل» يفلت بفعلته أبدًا. وإن لم يستطِع إثبات جريمته أمام القضاء سيضطر إلى تنفيذ العقوبة بنفسه، سيكون الضابط والقاضي والجلاد؛ لن يُفلته.

***

- وقعَت جريمة قتل جديدة جنوب البلد. سيادة القائد يريد منك تولي القضية بنفسك.

بادره مساعده بشغفٍ، وهو يدلف إلى المكتب، ازدادت أجواء المركز إثارة؛ أولًا جريمة السيد «ك»، والآن هذه الجريمة الجديدة، لم يكن من عادة القضايا التي يُكلَّف بها مركز رقابة الأبجدية أن تكون دموية وعصية بهذا الشكل، وهذه الطفرة أجَّجت النشاط في نفس مساعده، ودفعته لأن يضيف:

- إنها قضية مهمة جدًا؛ قد ننال بسببها ترقية.

لم يعبأ «مؤيد» لأمر الترقية، كل ما يفكر فيه الآن أن يقتل الفراغ بالعمل، ويوجه الغضب إلى أي هدف آخر غير نفسه. سأله:

- ولماذا نُكلَّف بهذه القضية؟ لماذا لا يتولاها قسم جرائم القتل؟ تولينا أمر جريمة السيد «ك» رغم أنها ليست من اختصاصنا، لكن لكون الرجل كاتبًا معروفًا، وثمة إمكانية قوية لأن تكون للجريمة علاقة بابن الأبجدية فعلنا وتولينا أمرها، لكن ما بال هذه الجريمة الجديدة؟ ما شأننا بها؟!

أجاب مساعده شاعرًا بالإثارة:

- لا بد أن للواقعة علاقة بابن الأبجدية الملعون.

هزَّ «مؤيد» رأسه متفهمًا، وانطلق من فوره إلى المكان المذكور.

***

القسم الشماليُّ من البلد اختفى نصفه خلف خط النار، جدار عازل كبير، لا يمكن المرور عبر بوابته إلا في مواقف نادرة جدًا، خلف خط النار يعيش قادة مجلس البلدية التسعة، هناك يُعاقَب مرتكبو جرائم الأبجدية، يذهبون ولا يعودون أبدًا. خلف خط النار تُنصَّع الآلات، والأدوات المعدنية، وتستخدم المعادن، وتشتعل النار، والناس هنا راضون بشرائها منهم بأثمانٍ باهظة.

أما القسم الجنوبيُّ من البلد، فينتهي عند غابة كبيرة كثيفة الشجر، مهجورة في أغلب الأوقات، يعرفها «مؤيد» جيدًا، اعتاد أن يُخيِّم فيها في الليالي الجسام التي يعجز فيها عن التعايش مع قسوة أبيه وبكاء أبيه.

وبالقرب من الغابة توجه «مؤيد» وفِرقته، إذ كان هذا هو مكان الجريمة الجديدة. غيَّر إعادة الإعمار الكثير من معالم البلد، وكأن الخراب نسف خريطة البلد، ورُسِمَت الجديدة فوق ركامها، هل يمكن استبدال بلد بآخر لا يشبهه؟ هذه هي الإشكالية التي وضعها الناس أمام مجلس البلدية.

لم يعرف «مؤيد» البلد القديم إلا من قصص قليلة سمعها من أفواه أجداد وجدات تسبّ الماضي وتلعنه، وأفلام وثائقية تعرض وقائع جامدة لا ينكرها، لكنها لا توفر له الشعور بذلك البلد القديم كي يتمكن من مقارنته بما يعايشه

الآن. رغم ذلك يؤمن أن البلد الجديد أفضل؛ صارت الأمور أهدأ، والعالم أأمَن بعدما تخلصوا من ابن الأبجدية الملعون.

- أنعِم وأكرِم.

أخرجه شيخ المنطقة من شروده، رجل على وجهه سمات الخوف جنبًا إلى جنب الجبن، عرف أن الرجل سيغرد مثل البلبل ما إن يفرد أمامه الأسئلة، يستطيع «مؤيد» أن يدرك بقرون استشعاره البوليسية أن فم الرجل مثقل بالكلمات.

- ماذا تعرف عن هذه الجريمة؟

- سأخبرك بكل شيء يا سيادة الضابط. أنا في خدمة شرطة رقابة الأبجدية ومجلس البلدية. سأقول كل ما أعرف؛ لم يقع هذا من قبل في منطقتي، وأريد بقدرك أن يُقبَض على...

- أنجِز!

- اسمه «منعم»، عمره خمسةٌ وأربعون عامًا، يملك بقالة صغيرة، قبل أن تأتي الشرطة جمعتُ أهل المنطقة، وعرفتُ منهم أنه أغلق دكانه في السابعة مساءً، لأنه رجل كسول لا يطيق العمل، ثم توجه إلى بيته الذي يعيش فيه بمفرده، ثم رأيناه عند آذان الفجر.

- هل أدى الصلاة معكم؟

- أي صلاة يا سيادة الضابط؟! الرجل لا يركعها، كان بيده زجاجة خمر يشرب منها، ويطوف على البيوت مغنيًا بصوت نشاز!

الخمر كانت من أكثر الأمور التي تثير استهجان «مؤيد»، كان من الممكن أن تُمنَع بسهولة، لأن بها مادة مُسكرة ومخدرة من كلمة ممنوعة، لماذا لم يُخفِها الناس من الوجود مع ما أخفوه، وفضَّلوا استخدام اسمها الآخر «الخمر»؟

- وماذا بعد؟

- عندما خرجنا من الصلاة، وذهب كلٌّ منا في طريقه سمعنا صوت صراخ قادم من هذه الشجرة الكبيرة بآخر الغابة؛ هرعنا جميعنا إلى هناك، فوجدنا صبيًا صغيرًا عثر على جثة «منعم» بهذا الشكل المقرف. لم يفهم أيٌّ منا ما وقع له.. اللهم انجدنا.

- أنتَ من أبلغ الشرطة؟

- نعم.. أنا يا سيادة الضابط، أنا هنا من أجل خدمة الـ...

- وأين الصبي الذي رأى الجثة؟

- الصبي جاءته سكتة بعدما رأى هذا المنظر المقرف، لم يتفوه بكلمة. فقدَ وعيه، فذهبوا به إلى بيته، زرتُه قبل مجيئكم، فرأيتُه وكأن مسًّا أصابه.. ينظر إلى السقف ولا يتكلم.

ثم مال قليلًا وهمس:

- هذا لأن الشجرة ملعونة؛ يسكنها الجن والعفاريت. لا بد أن صرخة الصبي أيقظت عفريتًا من رقاده، وسكنَ جسد الصبي.

- أي عفريت يا رجل يا خرف! كيف تكون شيخ منطقة، وتؤمن بهذه الشعوذة؟!

- أنا يا فندم.. أنا لم أقصد.. يعني كنتُ أفكر أنه ربما...

- لا تفكر.. أنا هنا من يفكر!

طأطأ الرجل برأسه مخافة إثارة غضب «مؤيد» أكثر، تقدَّم «مؤيد» إلى الشجرة، كي يستطلع أمر الجثة التي تركن إلى ساقها الضخمة. تسمَّرت قدماه في الأرض، بينما يُقلِّب النظر في الجثة الهامدة أمامه، يُنقل أنظاره منها إلى مساعده المصدوم مثله، يمتثل أمامهما أغرب مشهد قد تراه أعينهما؛ مشهد لا يمكن أن يقع في البلد الذي يمنع النطق بابن الأبجدية الملعون، مشهد لم يره إنسان منذ ثلاثين عامًا؛ كان أمامهما جثة رجل مات بطريقة غير ممكنة.. جثة أكلت النيران كل شبرٍ منها! والأسوأ أن ابن الأبجدية الملعون مرسوم فوق التراب بخط متعرج، لكنه قابِل للقراءة، تمامًا بجوار الجثة!

نال الفزع قدرًا كبيرًا من نفوس الجميع؛ «مؤيد»، ومساعده، ورجال الأمن، وشيخ المنطقة، والقِلة من الناس الذين يراقبون من بعيد، لم يرَ أيٌّ منهم شيئًا كهذا من قبل، لم يعرف أيٌّ منهم الشيء القادر على قلب رجل آدميٍّ ليبدو بهذا الشكل البشع؛ أصغرهم لا يعرف النار، وأكبرهم نسي كيف يبدو الرجل بعد أن يتبخر جلده ويُشوى جسده.

«مؤيد» لم يرَ النار من قبل، لكنه يعرف من الأفلام الوثائقية كيف يمكن للنار أن تكون غولًا شرسًا يأكل الناس بلا شفقة، تمامًا كما فعلَت في بلدهم من قبل؟! النار هنا ممنوعة، وملعونة، كابن الأبجدية المغضوب عليه؛ من جرؤ على إشعالها الآن؟

***

(39)

سردين مصنع السردين

يقول أرسطو: «العلم يبدأ بالاستغراب»، وأقول -أنا العبد لله- إن الكتابة تبدأ بالدهشة، ولأن هذا البلد لم يعد مدهشًا؛ بات فِعل الكتابة شحيحًا وهزيلًا.

الكتابة تُعيد اختراع العالم، فقط إن كان تحت طوعها أبجدية كاملة، منذ أن نُزِعت الحاء من الأبجدية شاخ العالم، وكثُرت تجاعيده، فمثلًا: يمكنني رؤية أمارات الشيخوخة في العلاقات بين الجميع، لا تكاد تتذوق لذة البدايات حتى تُباغتكَ نكهة مُرة كالعلقم، وشعور بالوَهَن والاستنزاف؛ تأتي للطرف الآخر مُحمَّلًا بكل شروخك وندباتك، تلقيها في حجره، وتنتظر أن يُطيِّب ويداوي، لكن المشكلة أن الطرف الآخر يستقبلكَ بشروخه وندباته، ويلقيها في حجرك، ثم تشرعان في البحث عمن يداويكما معًا.. هذا لأن كلًا منكما لا يحتاج إلى شريك، بل إلى طبيب.

- هل سمعتَ يا «صهيل» ما وقع بالأمس؟ عامل التعبئة اليدوية؛ ذاك الخمسينيُّ الذي لا يتكلم كثيرًا، ولا يُشاركنا طاولة الطعام، قُبِض عليه بالأمس بعدما وجدت شرطة رقابة الأبجدية بين أغراضه هويته القديمة.. هل كنتَ تعرف أن اسمه السابق كان به ابن الأبجدية الملعون؟

تُدهشني قدرة «رفيق» على الإلمام بدقيق المعلومات وجديد الأخبار، كنا نعمل جنبًا إلى جنب في هذا اليوم الغائم، أعرف بعض عمال التعبئة اليدوية، وبخاصة الرجل الذي ذكره «رفيق»، كنتُ قد تحدثتُ إليه ذات مرة ليتوسط لي عند المشرف، كي ينقلني من مرحلة نزع الأمعاء إلى مرحلة التعبئة اليدوية، عملتُ فيها قليلًا، ثم اكتشفتُ أن رائحة العمال الذين يقتصدون في استخدام الماء والاستحمام مخافة الضرائب المرهِقة أسوأ من رائحة أمعاء السردين،

فعدتُ إلى العمل في قسمي بجوار «رفيق»، كان العامل كتومًا وقورًا، أضبطه متأملًا الجميع بصمتٍ وترقّب، وكأنه يتعامل مع مسوخ!

- غبي، كان عليه إخفاؤها جيدًا.

ما إن نطقتُ بذلك حتى لكزني «رفيق» بقوة، مائلًا على أذني مُعنِّفًا:

- ماذا تقول يا «صهيل»، إنها جريمة شنيعة سواء أظهرها أم أخفاها!

- أنتَ مصيب.

قلتُ مستسلمًا، فلا فائدة من محاولة إقناع «رفيق» بأيٍّ من أفكاري الشيطانية التي تدور في رأسي؛ الأفكار التي لم تكن بداخله من قبل، والتي تولَّدَت قبل عام، حين حُبِستُ لشهر كامل في غرفة مغلقة.

ركزتُ كل طاقتي على نزع أمعاء السردين، لم يعد الناس يأكلون ما ينجبه البحر من خيرات، بل وعزلوه في المنطقة الشمالية خلف خط النار، استبدلوه بمزرعة سردين تنتج أسوأ أسماك في العالم.

أتمنى لو أبلغ نهاية اليوم في رفَّة هدب، فأتوجه إلى الزقاق، أنتظر بشغف دقات الثانية عشرة، أمسك روايتي بين يديَّ، وأُكمل مع اليد المجهولة حوار الأمس الذي قُطِع في بدايته، اضطررتُ إلى المغادرة وقتها، إذ إن من قوانين المكتبة الليلية ألا يمكث فيها القارئ إلا ساعة واحدة، يقول حارسها إن الكتب المحظورة يجب التهامها على مهل، وإلا أصابت صاحبها بالتخمة، ومن ثم ينكشف أمره.

- بالمناسبة يا «رفيق»، قلتُ لزوجتي إنني سأقضي الليلة في العمل كدوام إضافيٍّ مدفوع الأجر.

لكزني بقوة في كتفي قائلًا بخبث:

- موافق بشرط، أينما ستذهب خذني معك.

- لا.

قلتها بحزم، فمال صوبي هامسًا بحماسة:

- هل ستكتب؟

لم أجد بُدًا من هز رأسي بالإيجاب، فاستطرد بشغف:

- عندما تنتهي هل ستجعلني أقرأ ما كتبتَه مثلما كنتَ تفعل معي في الروايات التي تبيعها للسيد «ك» ولغيره؟

اقشعر بدني عندما استشعرتُ عينَي المشرف المسلطة علينا، همستُ بحزم:

- اصمت الآن.

رحتُ أشق بطون السردين، وأنزع أمعاءها بوتيرة ثابتة، بينما أراقب العاملين في المصنع من طرفٍ خفيٍّ، أصبح الناس يحملون الوجه ذاته وإن تبدَّلت ملامحه؛ شيء غامض زحف على أرواحهم، وصنع منهم نسخًا لا تكاد تتمايز عن بعضها بعضًا، إن التقَت عيناك بأعين مَن حولك تقرأ فيهم الكلمات ذاتها: «لا تقترب، ليس لدي ما أعطيه للآخرين!».

- «صهيل»، أسرِع قليلًا، لن نمضي اليوم كله نُجهِّز لهذه الطلبية!

أومأتُ برأسي صوب المشرف، يعشق الجميع السرعة لسببٍ غامض، هل فكرتَ في أن السبب الحقيقيَّ لزعزعة عالمنا أنه يدور بسرعة أكبر من اللازم؟ نأكل، ونشرب، ونحب، ونغضب، ونستمتع، ونقرأ، ونتزوج، ونمشي، ونعمل بسرعة؛ لا نمنح أفعالنا وقتًا كافيًا لتنمو ولا مسافات كافية لتنضج، ومن ثم لا نشعر أننا على قيد الحياة، كانت تلك هي الطريقة الفريدة التي استطاع الناس بها في هذا البلد نزع «الحياة» من الحياة.

دوت صرخة مباغتة لم أتبين مصدرها، بدت صادرة عن جميع الاتجاهات، حتى اتسعت حلقة بقرب ماكينة إلصاق تاريخ الإنتاج على عبوات السردين، اندسستُ بينهم، اشرأب عنقي أستطلع ملتقى أنظارهم، هناك في منتصف الحلقة يقف رجل مذعور يصرخ هلعًا، يُمسك برسغ يديه اليمنى، بينما كفه واقعة أرضًا بين قدميه! الدم الذي ينطلق كنافورة من رسغه المبتور دفع أحدهم ليهمس:

- لم يسبق لي أن شاهدتُ شيئًا مشابهًا. رائع، أليس كذلك؟

كدتُ أفقد عقلي بينما أحتكُّ بالأجساد اللزجة التي تنضح عرقًا مالحًا، أخترق التصاقهم ببعضهم بعضًا، وأندفع صوب منتصف الحلقة، أنزع

قميصي، وأكتم به النافورة المندفعة من رسغ الرجل، بينما أصيح في الجميع، وقد شعرتُ بعروق رقبتي تكاد تنفجر:

- الإسعاف.. أين الإسعاف؟ فليفعل أيٌّ منكم شيئًا!

حركتهم بطيئة، كأن شخصًا مد يده صوب المشهد، وضغط زِر الإبطاء، مرت اللحظات التالية بصعوبة وكأن الدقائق قد ملَّ بعضها بعضًا، وكأن الزمن قد فقد شغفه فجأةً، شعرتُ وأنا أساعد المسعفين على رفع الرجل داخل العربة بأنني مفلس من الطاقة.. من التفكير، ومن الرغبة في الاستمرار، طفتُ بنظراتي في وجوه العمال الذين عادوا يمارسون أعمالهم بنفس الوجوه المتشابهة التي بدؤوا بها يومهم، 36 عضلة مسؤولة عن تعبيرات الوجه بدا أن خللًا قد أطاح بها؛ أدركتُ السبب الذي خلق في وجوههم كل هذا التشابه؛ لقد أفلس الجميع من «الإحساس»!

قبضَت أصابع يدي الخيالية بقوة على سكيني، متسائلًا: ماذا لو اندفعتُ الآن أبقر بطونهم، وأنزع عنها الأحشاء؟ خاصةً ذاك العامل الذي يرى في فقد الرجل لكفه مشهدًا استثنائيًّا رائعًا، لن أحتاج إلى مراحل تخليل أو طبخ أو إضافة صلصة، يكفي أن أُعبِّئ لحمه في علب السردين كما هو، وطبْع تاريخ إنتاج وانتهاء الصلاحية!

***

(40)

لا تروى الأساطير إلا ليلًا

ليلة كاملة سأقضيها بين جنبات المكتبة الليلية، شعرتُ بإثارة لم أتذوقها قبلًا، تكاد قدماي تسابقان الريح إليها، ليت السحاب ناقلات بشر، فأُحمَل على ظهرها إلى حيث أشتهي وأرجو، هكذا آنيًا، بلا مسافات، بلا زمن.

- كيف أستطيع مساعدتكَ سيدي؟

- شكرًا لكَ.

لن أطلب كتابًا محرمًا هذه الليلة، كيلا يحتسب الحارس وقتي داخل المكتبة، فيطالبني بالانصراف بعد ساعة. بالأمس دسستُ روايتي سرًا خلف قضبان النافذة المغلقة بالممر، الموضوعة كديكور مُكمِّل للمشهد، مكنتني الإضاءة الخافتة لشموع الجدران من التستر عن عينَي الحارس بينما أسحب الرواية من مخبئها، وأعود بها صوب الطاولة الخشبية داخل الغرفة المثلثة، أدسها تحت الأوراق، أمسك بقلم الحبر متظاهرًا بالكتابة في بادئ الأمر، ثم شرعتُ بالفعل في الكتابة بين سطور روايتي ما إن غفل عني الحارس.

- أمَا زلتِ هنا؟

كتبتُها، ثم أغلقتُ الكتاب، تعلمتُ في الأمس وجوب غلق الكتاب، كي أتمكن من رؤية الإجابة، وكأن الأجوبة تخشى الأسئلة التي نطرحها فتجيبها سرًا. خطر في بالي أمر؛ هل اليد الخفية التي تكتب بين سطور روايتي ستكون متاحة في أي وقت شئتُ؟ ربما هي مشغولة بالكتابة في كتابٍ آخر، ربما كانت اللحظة السحرية مقتصرة على الأمس فحسب، ربما المعجزة التي حدثت مرة لن تتكرر ثانيةً.. أبدًا.

باغتني الغم لوهلة، أطبق على صدري، بأصابع متلهفة أفتح روايتي، أستطلع ما بين السطور، لأجد المفاجأة في انتظاري:

- هُنا!

المعجزات تتكرر، والسحر لا يتبدد، صحتُ مبتهجًا، مما لفتَ انتباه الحارس، فرفع رأسه صوبي مستطلعًا، همستُ لنفسي: «اهدأ يا «صهيل»؛ سينكشف أمرك».

هززتُ رأسي فيما يشبه الاعتذار صوب الحارس الذي يكره الضوضاء، فعاد مُنكبًا على عمله بأمارات متذمرة. كيف أبادرها الحديث؟ استحضرتُ ما استهلّه الفيلسوف الألمانيُّ «نيتشه» في حديثه مع فتاة روسية: «من أي نجم سقط كلٌّ منا على الآخر؟». كنتُ سأكتب الكلمات نفسها لولا أنني خشيتُ أن أبدو في عينيها لص كلمات.

- هل أنتِ حقيقية؟
- هذا متوقفٌ على معنى كلمة «حقيقي» بالنسبة إليكَ، قد يكون خيالي حقيقة، وحقيقتي خيال مقارنةً بكَ.
- من تكونين إذن؟ وكيف نتواصل بين سطور رواية؟!
- ومن تكون أنتَ؟
- أنا مؤلف الرواية.
- أنا قارئتكَ الأولى إذن، أما إجابة السؤال الثاني، فلا أعرفها، أنا مذهولة بقدركَ.

توقفتُ قليلًا عند هذا القدر، أستجمع الأفكار، وأرتبها في رأسي، تقول إنها قارئتي الأولى، وهذا يعني أنها تملك نسخة من روايتي، وبما أن النسخة الثانية مفقودة، إذن فهي من أخذَتها من مكتبة السيد «ك»، وبما أنها تستطيع دخول بيت السيد «ك» بعد وفاته، إذن فهي إما واحدة من الورثة، وإما الخادمة المجهولة.

- أنتِ «شُعلة»، أليس كذلك؟

طال انتظاري للجواب هذه المرة بينما أتذكّر شرارات النار في عينيها، قطرة الحبر فوق شفتيها، فستانها الحريري، حديثها العجيب عن قدرة

الخيال على القتل. أغلقتُ الكتاب وفتحتُه ما يقرب من عشر مرات؛ ظل الفراغ بين السطور كما هو، هل أغضبتُها؟ هل أزعجتُها؟ هل أخفتُها؟ ألن تتحدث معي مرة أخرى؟ تبًا لكَ يا «صهيل»! دائمًا ما يدفع فضولك بالأشياء الجميلة إلى الهرب. وددتُ لو تكون هي، تمنيتُ ذلك بشدة، إلا أن الرياح تأتي بما لا يشتهيه الربان، فتحتُ الكتاب بعد عشر دقائق أو يزيد لأجد الفراغ قد حُبِّر أخيرًا بردِّها.

- لا أعرف عمن تتحدث، لا تسألني من أكون، لن أمنح معلوماتي الشخصية لشبح أتواصل معه من خلال صفحات كتاب؛ رواية يزعم أنه مؤلفها، أنا خائفة جدًا، أظنني أُصبتُ بالجنون!

سأتريث، لن أُخيفها كيلا تهرب، لن أسمح لفضولي اللعين أن يفسد السحر، تأملتُ كل الكلمات الحائية التي دارت بيننا وكأنها منبَت السحر، لعل الحرف المحظور هو البوابة التي فتحت طريقًا بيني وبين قارئتي الأولى.

- أمَا زلتَ هنا؟

أبهجني سؤالها، فكتبتُ بحروف تتسابق بلهفة:

- أنا دائمًا هنا.

- هل أنتَ إنسِيٌّ؟ جِنِّيٌّ؟ شبح؟ وهْمٌ؟ حلمٌ؟ أم خيالٌ يقودني إلى الجنون؟

- في هذه اللحظة، أنا حروف تتجمع بين سطور كتاب، وأنتِ كذلك.. دعينا لا نذهب أبعد من ذلك، لكل معرفة لعنة، والجهل مفيدٌ أحيانًا.

- هذا يناسبني.

كانت المساحات البيضاء بين السطور ممتدة بشكل مغوٍ؛ شعرتُ بحاجة مباغتة إلى الاعتراف؛ الاعتراف بكل شيء، وكأن روحي عطشى للبوح دون أن يكون الدافع لذلك هو ارتكاب خطيئة، بل حتى دقيق الخطايا وكبيرها شعرتُ برغبة في تحبير الورقات بها، المهم ألا تنغلق دروب الحوار بيننا.

- أمَا زلتَ هنا؟

- أنا دائمًا هنا.

- سمعتُ أن الروايات لا تُكتَب إلا ليلًا، من يحاول كتابتها صباحًا تصيبه لعنة الثقوب؛ تتسرب الأفكار من رأسه المثقوب، تتلجلج الكلمات،

وتشيخ منابت الحروف، وتضطرب المعاني في كتابه، فما يعود يفهمها قارئ.

- صحيح ما تقولين؛ لليل قدسية خاصة، عيون الخيال لا تتفتح إلا في الظلام، كلما كانت الأجواء عامرة بالعتمة استطاع الخيال أن يرى بوضوحٍ أكبر. في النهار تضطرب جفون الخيال، تحتقن أحداقه، وتصعب عليه الرؤية؛ الشمس التي تشير بأناملها صوب الحقيقة هي ذاتها التي تفقع عيون الخيال.
- وأنا كذلك لا أحب القراءة إلا ليلًا، النهار يلوي أعناق الكلمات، يعتصرها، فتقذف في رأسي ألف معنى. كثرة الاحتمالات تشتتني.. تربكني، وكأن القصة كُتِبَت لآلافٍ غيري. في الليل تقل الاحتمالات، ويتفرد المعنى، كأن القصص التي كُتِبَت في الليل لا يجوز قراءتها إلا تحت أستار الظلام.
- الظلام سيد الخيال.. من المؤسف أن الجميع يخشاه.
- هذا لأنهم يظنون أن التفاصيل تتضح في النور أكثر، وأن السعادة مضيئة، وأن قوس قزح مُبهِج، وأن الشمس لا تكذب، يجهلون أن الجمال يختبئ بين ثنايا الظلام، وما يرونه في النهار ما هو إلا انعكاس لظله، انعكاس زائف، غير حقيقيٍّ.
- أتعرفين؟ أؤمن أن الأساطير لم تُروَ إلا ليلًا، لذلك هي خالدة.
- أحب الأساطير، لأنها أصوات قديمة تفتح نافذة على الزمن، ورغم ذلك عندما تسمعها تشعر أنها رُوِيَت للتو، أقرأ الأساطير عندما أرغب في الرفقة.
- أما أنا فعندما أرغب في الرفقة أعانق القلم، خاصةً عندما يكون القمر ناضجًا، لا أحب القمر الأخضر.
- أفهمكَ، القمر غير المكتمل يُذكّركَ بالأجزاء المفقودة من روحكَ، مثل رقم مفقود من متوالية عددية.
- أو كحرف منزوع من الأبجدية.. كما هو واقع بلادنا.
- أنا أعيش في بلدٍ كل حروفها تامة.

توقفتُ قليلًا عند هذه النقطة، إنها لا تعيش في البلد الذي يمنع النطق بالحاء! هذا يفسر قدرتها على كتابة كلمات حائية دون خوف أو تردد، لم يدُم الصمت بيننا سوى دقائق، ثم عُدنا إلى الكتابة من جديد.

- في بلدنا لم يعد ثمة كلمات بحرف الحاء، مُحِيَت تمامًا من الوجود.
- أين ذهبت حاؤكم؟ لماذا تختفي كلماتها من بلادكم؟
- في البدء كانت الحرب، ثم الخوف من أن نعيش حربًا جديدة، كلنا يخاف تكرار تلك الأيام المريرة، أتعرفين؟ فقدتُ أمي في الحرب؛ أمي لم تكن كغيرها من النساء، لم تكن تملك ذراعين، كانت أمي قمرًا أخضر، وفي ليلة اشتد سعير الرصاص فوق رؤوسنا، فريقان يقتتلان أمام باحة دارنا، أو لعلهم ثلاث فِرَق، أو أربع.. لا أذكر؛ تركنا الدار وذهبنا إلى جيراننا، وفي دارهم كان يدور مشهد آخر لأحد وجوه الحرب، فالحرب كثيرة الأوجه، وجميعها منفرة، الدماء والأشلاء في كل مكان؛ في الأرض، في الجدران، نرى اللون الأحمر حتى في أثناء نظرنا إلى السماء. ذهبنا إلى السوق الكبير نبحث عن ركن نعتصم فيه من الموت، وهناك رأينا النار تمد ألسنتها في كل مكان، صراخ لا يتوقف، ظننتُه في البداية صوت النار، ثم أدركتُ أنها الشهقة الأخيرة لأناسٍ تحترق. أتعرفين؟ ليلتها تصاعدت رائحة شواء في الأجواء، وخُيِّل إليَّ أن الرماد والأطراف المبتورة والبقايا المتفحمة تتجول حزينة تحت ستار الليل. سمعتُ من بعيد صوت بقرة تخور وتضحك، بحثتُ عن أمي وسط الدخان والأجساد المتفحمة، الرؤية مشوشة، الدخان يغشى الأعين ويخنق الأنفاس، أتحسس مغمض العينين الجثثَ، بحثًا عن جسد بلا ذراعين، هل تعرفين أن جلد المرأة التي تُغنّي لطفلها يكون أنعم من غيره حين يحترق؟ وجدتُ أمي ببشرة طفل، بدت وكأنها نائمة، وكنت أشعر بالنعاس، فتمددتُ ونمتُ بجوارها، ثم عانقتُها بشدة، عناقًا يكفي لكلينا.
- أنا آسفة، لا بد أنها كانت أيامًا عصيبة. لماذا وقعت الحرب؟
- يقال إن الشرارة الأولى وقعت عندما اختصم فريقان على بقرة؛ واحد اشتراها وآخر أطعمها، وكلٌ يدَّعي أنه الأحق بها، فتدخَّل طرف ثالث

أزعجته أصوات الصياح، نحرها ليلًا والناس نيام، وفي الصباح هبَّ شجار كبير بين الفريقين، كلٌّ منهما يتهم الآخر بقتلها، مات أحد أفراد الفريقين في الشجار، فهبَّ الفريق الأول للأخذ بالثأر، فقتل ثلاثة من الفريق الآخر، وهكذا بدأ سعير القتل ينهش صدور الجميع، لكنني لم أصدق هذه الحكاية، ربما بالفعل اختصم فريقان على بقرة، واقتتلا بعدها، لكن لم تكن هذه الحادثة هي الشرارة الأولى للحرب؛ الشرارة الأولى كانت قبل ذلك بزمن طويل، عندما أُسِيء استخدام «الحرية»، مُنِحنا إياها فجأةً، مثل طفلة أتاها أحدهم يومًا، وألقى في حجرها رضيعًا، لم تعرف ماذا تصنع به؛ هل تُطعمه أم يُطعمها؟ هل تعتني به أم يعتني بها؟ هل تتخذه ابنًا أم أخًا أم أبًا أم خليلًا؟ ثم في النهاية فعلَت الشيء الوحيد الذي تجيده، قررت أن تلعب به، لم تُطِق صبرًا لتتعلم كيف تربيه، فهي نفسها طفلة تحتاج إلى من يعتني بها؛ طفلة أخبروها أنها لن تنضج أبدًا، فصدَّقتهم، وآمنَت بضعفها، وقلة حيلتها وهوان نفسها، فغابت عنها الحكمة.

توقفتُ قليلًا أجتر ذكريات مُرة، ثم بادرتُها بفضولٍ:

- أخبريني، هل ترتدون «الأحذية»؟ هل تشربون «الحلبة»؟ هل هي لذيذة؟ عندما يبكي الصغير هل تحمله أمه «بحنان»؟ عندما يخطئ الصبي هل يعامله أبوه «برحمة»؟ هل ترسم النساء فوق أجسادهن بـ «الحناء»؟ هل «رائحتها» جميلة؟ هل تعرفون كيف تستمتعون «بالحياة»؟ هل يدخل «الفرح» بيوتكم؟ هل «تحسنون» ضيافته؟ كيف يكون العيش بصحبة «حيوان» أليف؟ كيف هو طعم «اللحم الأحمر»؟ هل يطير «الحمام»؟ هل تؤمنون بكل ما يقال لكم، أم تسعون بأنفسكم «للبحث» عن «الحقيقة»؟ في بلادكم، أما زال ثمة «حب»؟

لو كان للقلم رئة لسمعتُ أنفاسه اللاهثة من شدة الهرولة بين السطور، اضطررتُ إلى التوقف عن الأسئلة كي لا أُخيفها، كي لا أنفِّرها، فتتوقف عن الكتابة.

- كل هذا موجود، لكن...
- لكن ماذا؟

- شيءٌ ما تغير في نفوس الجميع، وكأن الحياة فقدت لذتها، في بلدكم لم يعد ثمة «حب»، وفي بلادنا نملكه، لكن لم نعد نقدر قيمة امتلاكه، مثل شخص أصابته التخمة، فلم يعد يستشعر نعمة الشبع. رغم اختلاف القوانين في عالمينا، لكنها في النهاية بلاد متشابهة؛ مستنسخة من نفسها، باختلاف اللون والعرق، واللغة والقوانين.

أعجبني حديثها عن البلاد المستنسخة رغم أنه أصابني بالخيبة، كنتُ أفكر دومًا أن جميع البلاد أفضل، على الأقل أبجدياتها كاملة، لكن فكرة الاستنساخ بدت لي واقعية أكثر من خيالاتي الحالمة، هذه العوالم متشابهة مهما تتغير أبجدياتها؛ العلة في الناس لا في الكلمات.

الناس يقرؤون ويسمعون طوال الوقت، هل أعطوا «الأرحام» قدرها؟ هل عظّموا «الحرمات»؟ هل دعموا حقًا «الحريات»، أم اقتصر دعمهم على ما يوافق مطامعهم وأهواءهم؟ تجد أكثرهم قراءة أخفَّهم عقلًا، وأوقحهم رأيًا، وأشدهم فجاجة، كأن الكلمات فقدت قدرتها على إحداث تغيير، كأن الكلمات أضحت خاوية من المعنى.

كم كتابًا يُكتَب؟ ومقابل كل كتاب يُقرَأ كم شخصًا يتغير؟ كم شخصًا يدرك؟ كم شخصًا يُنتِج؟ كم شخصًا يقتنص حقيقة المعنى؟ بغتةً بدت لي مهنة الكتابة مزيفة، خيالًا عاجزًا عن التجسيد، غير قادر على إنعاش الأمل، تختبرنا الحياة، تمنحنا الكتابة الأجوبة التي نحتاجها، لكن ما إن نمتلك الأجوبة حتى تتغير الأسئلة. لهذا السبب لم أتمكن من كتابة الفصل الأخير من روايتي، لم أفهم ما طرحته عليَّ الحياة من أسئلة قط.

***

- قهوتكَ سيدي.

انتفضتُ محاولًا قدر المستطاع دس الرواية أسفل الأوراق المتناثرة، وإخفاء قلم الحبر، في المكتبة غير مسموح بالكتابة إلا باستخدام أقلام الرصاص، كما هو الحال في سائر أرجاء البلد. أومأتُ باضطراب صوب حارس المكتبة الذي لم أشعر بوقْع خطواته:

- شكرًا لكَ.

- ألن تقرأ اليوم؟
- أفضّل الكتابة.
- كما ترغب سيدي، أذكّركَ فقط أن المكتبة الليلية تغلق أبوابها فجرًا؛ لا يجوز بقاؤكَ بعد نداء الفجر. الكتب هنا تبغض النهار وقراء النهار.. ذلك يزعجها، وعندما تنزعج الكتب تأكل كلماتها، مثلما يأكل جدار المعدة نفسه عندما تزداد عصارتها.
- نعم، أعرف ذلك.. لا تقلق، سأنصرف قبل الفجر.
- شكرًا لك سيدي.

أومأ الحارس بأدبه المعهود ثم انصرف، فتحتُ الكتاب محاولًا اقتناص كل دقيقة متبقية، أُطيل الحديث قدر استطاعتي، سألتُها بفضولٍ لا يخلو من حرج:

- هل قرأتِ الرواية؟
- ليس بعد، ما إن فتحتُ الكتاب حتى باغتتني كلماتكَ من بين السطور، شعرتُ بالفزع، وما زلتُ أشعر به، رغم ذلك أمسكتُ بالقلم وكاتبتُكَ.
- أتعرفين؟ لم يسبق لأحد أن قرأها.
- كيف ذلك؟
- إنها مسودة غير منشورة، حتى إنني لم أكتب فصلها الأخير بعد.
- لم يسبق لي أن قرأتُ مسودة غير منشورة، وكذلك لم يسبق لي أن قابلتُ كاتبًا، منذ متى تكتب؟
- أكتب سرًا منذ عشر سنوات، في الحقيقة أنا كاتب ظِل.
- كاتب شبح يعني.. تبيع إنتاجكَ للآخرين ليضعوا أسماءهم عليه، أليس كذلك؟
- هكذا أتكسَّب رزقي، فمرتبي من عملي الدائم لا يكفي، أتعرفين؟ كل الروايات التي كتبتُها لم أسكب بها شيئًا من روحي؛ ظلت جميعها خاوية مني؛ كنتُ أبخل بنفسي عليها، أكتبها تحت الطلب.
- هل يستطيع صاحب قلم أن يكتب تحت الطلب؟

- يستطيع أي شخص في العالم أن يطبخ قصة ما إن يعرف المقادير المناسبة، لهذا تنتشر ورَش الكتابة هنا وهناك، الكتابة في الأساس حِرفة شأنها شأن النجارة والحدادة والجزارة، ما إن تتحدد أساسيات المهنة حتى يستطيع أي شخص أداءها. أما الكتابة الإبداعية فأمرها مختلف، لأن الكاتب فيها لا يطبخ قصة، بل يخلقها خلقًا بمقادير لم تُدوَّن سابقًا.
- أي أنكَ طوال هذه السنوات كنتَ تطبخ القصص، وهل هذه الرواية التي بين يديَّ مطبوخة كذلك؟
- أبدًا.. إنها مختلفة؛ كتبتُها بقلم مغموس بروحي، ستجدينني فيها، في كل سطر، في كل معنى، لذلك أقول عنها: «روايتي»، بينما كل ما كتبتُه سابقًا روايات لقيطة، مجهولة النسب، سمحتُ بأن تتبنَّاها أسماء غيري. في صغري ظننتُ أن فكرة الأرقام نبتت في رأس رجل كان يملك لحية زرقاء كثيفة، ابتكر الأرقام ليُحصي شعرات لحيته، وأن حروف الأبجدية الثمانية والعشرين نبتت من مفاصل أصابع يدَي الكاتب الثمانية والعشرين، لذلك لم يكن بإمكاني أن أكتب روايتي دون الحاء، إنه شيء لا تستطيع أصابعي التوقف عن توليده على الورق، إنه.. إنه كنزع مفصل من يدي قبل الشروع في الكتابة، ما كان بإمكاني أن أفعل!
- كنتُ لأحب أن أستمر في الحديث معك وقتًا أطول، لكن باغتتني هجمة جديدة، لعلنا نلتقي مرة أخرى بين السطور. هذا إن لم تكن وهْمًا، سأستيقظ صباحًا لأجده قد تبخر.
- ماذا تقصدين بهجمة؟ أمَا زلتِ هنا؟

بقيت كلماتي هي الأخيرة لساعة كاملة، وقبل أن يشقشق الفجر كنت في طريقي لمغادرة المكتبة الليلية، تساورني الشكوك، ويفترسني التفكير حول «الهجمة»... ماذا تعني بها؟

***

(41)
شجرة الدردار

أدركَ «مؤيد» الآن لماذا كُلِّف هو بالذات بهذه القضية الأخطر بين كل القضايا التي واجهت مركز رقابة الأبجدية منذ إنشائه، فهو الضابط الأكفأ القادر على فك غموض أعصى القضايا وأغربها، ثقة القائد بكفاءته أثلجت صدره، وكلمات أبيه المتشككة في أثناء اجتماعه برؤسائه نغزت قلبه، لو كانت أمه هنا لأفشى لها ألمه، ولطيَّبت مواضع نزفه.

خلع معطفه ومشكلاته وهمومه، وعلقها على المشجب، أمضى ساعات الليل الطويلة خلف مكتبه يُعيد ترتيب ما توصل إليه من معلومات، لم يواجه قضية مثلها قبلًا، ففي هذا البلد لم يعد ثمة نيران. تذكّر كلمات قائده عندما اجتمع معه منذ قليل:

- هذا معناه أن ممارسات ممنوعة تجري في خفية عن شرطة رقابة الأبجدية، وهذا يضع جهاز الشرطة في موقف عسير أمام مجلس البلدية، وأمام الناس قبلهم، من أين أتت النيران؟ من الذي يجرؤ على الإبقاء على مصدر للنيران في هذا البلد؟ الشخص القادر مرة على خرق هذا القانون السامي يستطيع أن يفعل ذلك ثانيًا وثالثًا، لا بد منع تكرار ذلك، والقبض على المجرم في أسرع وقت مهما يكلف الأمر.. أفهمتَ يا «مؤيد»؟
- لا تقلق يا فندم، سأقبض على الفاعل، لن نُوضَع في موضع تخاذل أبدًا.
- وأنا أثق بك.

لماذا يخالف الناس القوانين التي ما وُضعت إلا لوقايتهم؟ لماذا يتباهون بذلك، ويخالون خرق القوانين شجاعة ومصدر تفاخر؟ لماذا يعبر السائق

تقاطع الطريق، بينما الإشارة ما زالت برتقالية، ثم يتباهى أنه لم يُمسَك بذلك؟ لماذا يتجاوز آخر السرعة القصوى على طريق خطرة، ثم يتباهى بخداع الرادار؟ لماذا يسرق رجل ناضج قلم رصاص أو دبَّاسة أوراق أو ملفات، أو غطاء بالوعة، أو خُف مسجد، أو لمبة من عمود إنارة على قارعة طريق بينما يستطيع شراء أضعاف أمثالهم بماله الخاص؟ لماذا يُسرَق ماء الشرب لري الأرض، والكهرباء لنصب فِراشة زفاف صاخب مزعج في منتصف الليل؟ ما الماتع في مخالفة القوانين؟!

لماذا يصر البعض على التماس مع ابن الأبجدية الملعون؟ هل نسوا الفاجعة التي تعرض لها البلد بسببه؟ لماذا لا يريدون لبلدهم أن يتطهر؟ لماذا يريدون للنار أن تنبش مخالبها، وتضرب بألسنتها فوق الأجساد والبيوت والشوارع من جديد؟

خدش الصداع بأظافره باطن رأسه المكتظ بالأفكار والأسئلة، فطلب من الساعي فنجانًا آخر من القهوة، في هذه الأثناء دخل مساعده متخذًا مقعدًا في مواجهته قائلًا بإجهاد:

- مع الأسف لم نتوصل إلى شيء جديد. الأقوال نفسها تصدر عن الجميع، لم يروا شيئًا، ولم يسمعوا سوى صرخة الصبي.

تضافرت أمارات الامتعاض فوق قسمات «مؤيد» متسائلًا:

- وتقرير الطب الشرعيِّ؟

- سيكون جاهزًا خلال ساعتين، أخبرتُ الطبيب بضرورة إنهاء تدقيق الجثة الليلة.

بدت أمارات التركيز على وجه «مؤيد»، فبادره مساعده:

- فيمَ تفكر؟

استرخى في مقعده مبينًا، وهو يشير إلى صورة للجثة في وضعيتها أمام الشجرة:

- الشجرة والنباتات القريبة من الجثة لم تتضرر: أي أن الجريمة وقعت في مكان آخر، ثم نُقِلت الجثة إلى آخر الغابة.

- هذا ما فكرتُ فيه أيضًا، لكن الغريب أننا فتشنا بيوت المنطقة بيتًا بيتًا؛ لم نعثر على آثار للنار، أو رماد يشي باشتعال جثة.

هزَّ «مؤيد» رأسه نفيًا:

- الغريب أكثر أن الوقت الذي استغرقه «منعم» في الابتعاد عن المنطقة ودخول الغابة إلى أن سمع الرجال صرخة الصبي؛ لا يكفي أبدًا لإشعال جثة في مكانٍ ثم نقلها إلى آخر.
- كيف وقعت الجريمة إذن؟ من غير الممكن أن يُشعَل الرجل عند الشجرة، وإلا لتضرر المكان ولوجدنا آثار ذلك، وفي الوقت ذاته، الوقت الذي استغرقه غياب الرجل عن العيون وصرخة الصبي لا يكفي لقتله في مكان آخر.. هذه معضلة عويصة!

كان هذا ما يشغل بال «مؤيد»، كيف نفّذ المجرم جريمته دون أن تمس ألسنة النار شيئًا سوى الجثة؟ دون أن يراه مخلوق؟ دون أن يُخلِّف أثرًا يقود إليه؟!

قال بغتةً:

- غدًا نهارًا يُعاد تفتيش كل بيوت المنطقة شبرًا شبرًا؛ أي رجل أو امرأة أو صبي عجز عن إثبات مكانه وقت وقوع الجريمة يُقتاد إلى المركز، ويُعامَل كمشتبه به.
- أمرك يا فندم.. سأشرف على ذلك بنفسي.
- ما هو وضع الصبي الآن؟ هل بإمكانه الكلام؟

هزَّ المساعد رأسه آسفًا:

- لا جديد؛ لا ينطق بكلمة. يقول الطبيب إنه في صدمة. هذا طبيعيٌّ بعد رؤية منظر كهذا.

هتف «مؤيد» مُعنِّفًا، وكأنه المتسبب في مرض الصبي:

- ومتى سيتكلم؟ ماذا يفعل هذا الطبيب معه إذن؟ لماذا لا يؤدي عمله كما يجب؟
- الطبيب يبذل ما بوسعه، لكن...

- فهمتُ، لا بد من أن أفعل كل شيء بنفسي!

اندفع بانفعال مرتديًا معطفه، سارع مساعده في الذهاب معه إلى المشفى. دخلا الغرفة، واقتربا من الصبي، كان بمفرده، يرقد وسط الفراش باستكانة، فتساءل:

- ألا يرافقه أهله؟

- أخته ترافقه يا فندم، ليس له سواها، لا بد أنها ذهبت لتجلب شيئًا.

اقترب «مؤيد» من فراش الصبي، بدا وكأنه في عالم آخر، يتطلع إلى الجدران بصمتٍ مطبق، أغرقه «مؤيد» بالأسئلة، ظلت شفتا الصبي ملتصقتين بغراء الصدمة، اندفع «مؤيد» ممسكًا بتلابيب منامته مُعنِّفًا:

- لا شاهد غيرك، لن أدعكَ إلى أن تتكلم. ماذا رأيتَ عند الشجرة؟ من الذي أشعل النيران في الرجل؟ كيف يبدو الفاعل؟ رجلًا أم امرأة؟ شابًا أم عجوزًا؟ من أهل المنطقة أم غريبًا عنها؟ انطق.. تكلم!

دنا منه مساعدة يرجوه:

- الصبي ليس في وضع يساعد على...

لم يدعه «مؤيد» يكمل جملته، أغلظ على الصبي في القول، شرع الصبي في الأنين بشكل متواصل انتهى بالبكاء، أرخى «مؤيد» قبضته، جلس بجواره قائلًا بصوتٍ أهدأ:

- لا تخف.. لن أؤذيكَ؛ أريدك فقط أن تخبرني بكل ما رأيتَ. أنا هنا لأساعدكَ.. يجب أن أقبض على المجرم الذي فعل ذلك. أنتَ لا تريده أن يؤذيكَ، ولا أن يؤذي أختكَ، أليس كذلك؟

هزَّ الصبي رأسه، ولم يتوقف بكاؤه، فاستطرد «مؤيد»:

- أخبرني إذن بكل شيء؛ من الذي أشعل النيران في الرجل، وألقاه أسفل الشجرة؟ أم أن الجريمة حدثت عند الشجرة؟ هل رأيته جيدًا؟

الصبي يغالب خوفه، لكن المشهد يجثم مرة أخرى فوق صدره، فيعاود الأنين، يستمر «مؤيد» في الضغط عليه بدافع اليأس:

- إن لم تخبرني الآن سيأتي هذا المجرم ليقتل أختكَ، ثم يقتلكَ، هل ترغب في ذلك؟!

أزال الصبي العبرات المتساقطة فوق وجهه بظهر كفه، ثم همس بصوت مهزوز، متقطع، يصرعه الفزع:

- لا.. أعرف.. شيئًا.

- كيف ذلك؟ ألم ترى القاتل؟ ألم تصرخ؟

- هذا لأنني رأيتُ.. الشيء الأسود أسفل الشجرة.. لم أرَ من فعل به ذلك.. رأيتُ ذلك فصرختُ.. ثم لا أتذكر.

- فكِّر قليلًا.. تذكَّر، لا بد أنكَ رأيتَ شيئًا آخر.. تكلَّم.

جذب منامة الصبي بعنفٍ إلى أن تمزق أعلاها، تصاعد نشيجه بقوة أكبر هذه المرة، هنا توقف «مؤيد»، وعند نقطة في باطن كف الصبي ثبَّت عينيه، ثمة رسمة بدائية بقلم رصاص لم يتبيَّنها كفاية، سارع يأمر مساعده:

- صوِّر هذا بهاتفك.

أدركَ أنه لن يجني شيئًا مهما يقسُ عليه، إنه بالفعل لا يعرف أكثر مما قال، خرجا من الغرفة قبل عودة الأخت، وعندما خلا بمساعده في مكتبه طبع الصورة وكبَّرها، وفيما يتطلع إليها باغته شعور أن هذه القضية لن تكون الأخطر فقط، بل والأعجب كذلك؛ تمامًا في منتصف كف الصبي كان ثمة رسمة صغيرة لشجرة!

بعثر ملف الصور فوق مكتبه إلى أن عثر على مبتغاه؛ الشجرة التي رسمها الصبي على كفه مشابهة تمامًا لتلك التي عُثر على الجثة تركن إلى جذعها!

التفت «مؤيد» إلى مساعده يقول بصرامة:

- أريد أن أعرف نوع الشجرة التي وجدنا عندها الجثة. اجلب خبير نباتات إلى هنا فورًا.

قال مساعده ببشاشة:

- لا داعي إلى ذلك؛ أعرف هذه الشجرة جيدًا.. إنها الدردار، لا توجد شجرة مماثلة لها في الغابة.

- الدردار!

رددها «مؤيد» مُجيلًا ببصره بين الصورتين متسائلًا: هل ثمة علاقة تربط الصبي بهذه الجريمة أكثر من كونه شاهدًا عليها؟ لماذا يرسم صبي لم يبلغ الثانية عشرة من عمره شجرة دردار في باطن كفه؟ ما الأهمية التي تُمثلها هذه الشجرة عنده؟ لماذا لم يعثروا على الجثة في مكان آخر؟ هل ثمة قاتل يتوارى خلف براءة وجه الصبي؟ أيكون هو من أشعل النار؟

دخل فرد أمن قائلًا:

- تقرير الطب الشرعيِّ وصل يا فندم.

فضَّه «مؤيد» متعجلًا، يلتهم الأسطر بنهم، إلى أن وصل للتتمة وقد امتقع وجهه، ازدرد مساعده ريقه متسائلًا في قلق عما يتضمنه التقرير، مدَّ له «مؤيد» التقرير ليقرأه بنفسه، قرأه سرًا إلى أن أتى للجملة المفخخة، ففجّرها جهرًا وسط الغرفة:

- هذا وقد توصلنا بناءً على النتائج الأولية لتدقيق الأعضاء الداخلية واختبار أنسجتها؛ إلى أن النار قد أضرَّت بها قبل الوصول إلى العضلات والجلد، كما أننا لا نملك سببًا طبيًّا أو علميًّا لإمكانية وكيفية وقوع ذلك!

ثم استطرد ذاهلًا:

- ما معنى ذلك يا فندم؟

أجابه «مؤيد» مفكرًا بعمقٍ، وبصوت اتسع لكل صنوف الدهشة:

- معناه أن النار بدأت في الاشتعال من داخل الجسم إلى خارجه.. وليس العكس!

***

(42)

غير مرئي

حلمتُ أنني أغتسل في اللهب، أعلاه أزرق لامع، وأسفله أحمر متوهج، لم أرَ الأحمر منذ الحرب، رغم ذلك كان شديد التوقُّد داخل الحلم. لم أحترق، ربما لأنني أقرأتُه السلام أولًا، تقول أُمُّنا الغولة للشاطر حسن: «لولا سلامك سبق كلامك، لكنتُ أكلتُ لحمك قبل عظامك»، السلام في تراث الحكايات الشعبية بمنزلة عهد غير مُدوَّن بين مُلقي السلام ومتلقِّيه، لهذا السبب لم تأكلني النار في الحلم.

استيقظتُ شاعرًا بالحلم يستيقظ معي، يرافقني في أثناء ارتداء ملابس العمل التي مهما تجتهد زوجتي في غسلها لا تفارقها رائحة السردين، وتلازمني حول مائدة الفطور التي أعددتُها لنفسي من كسرات الخبز الجاف، وطبقين صغيرين؛ في أحدهما جبن بلا «ملح» مصنوع من سائل لا يمُتُّ لـ «الحليب» بِصلة، وفي الآخر عسل مُر لم تنتجه بطون النحل، كان لكليهما مذاق خشب مغموس في الرماد. التهمتُ الفطور سريعًا، يجب أن أُسرع الخطى صوب الباب قبل أن تستيقظ زوجتي وتسألني:

- لماذا تأخرتَ ليلة أمس؟

سبق السيف العذل، التفتُّ صوبها أسيطر على قسمات وجهي ونبرة صوتي ما بلغتْ مقدرتي من استطاعة:

- مرضَ «رفيق»؛ اشتباه زائدة. أخذته إلى المشفى، وأمضينا الليلة هناك.

تقترب مني كنمر يستطلع أمر فريسته، تضيّق عينيها، وكأنها تستجلب زاوية رؤية أكبر تمكنها من اختراق رأسي ورؤية أفكاري، واصطياد الكذب من ثنايا حديثي. أعرف أنها بعد انصرافي ستهاتف «رفيق»، وأنه سيردد ما

قلتُه لها للتو، لكن شكوكها لن تهدأ، ستحاول تضييق الخناق على حياتي أكثر، كي لا تترك بها ثغرة واحدة تمكنني من خيانتها عبرها، غير مدركة أنني لا يمكنني خيانتها مع امرأة أخرى، لأنهن سواء، جميعهن زائفات، فارغات، حمقاوات، يتصنَّعن الود. لا تدرك زوجتي أنني أرى العالم كله زائفًا؛ يُحرِّف المشاعر كي يبدو أجمل، ويُطوِّع الأفكار كي يبدو أنضج، ويبدل الأدوار كي يظهر وكأنه يتحرك صوب الحق والخير والجمال، بينما هو غارق في وحل الزيف إلى الخصر.

عالم ليس بيني وبينه عهد السلام، لذا أعرف أنه يومًا ما سيلتهم لحمي قبل عظامي.

***

- كيف تسير روايتك الجديدة؟ متى ستنتهي منها؟
- لا أعرف، أعجز عن كتابة الفصل الأخير.
- قُصَّها عليَّ، ربما أساعدكَ في العثور على نهاية مناسبة.

لأن أنامل «رفيق» لم تنغمس في طين الكتابة قط، ولم يستطِع لمرة أن يُشكِّل منها جسدًا قابلًا للقراءة؛ يحسب أن نهايات القصص يمكن استجلابها من رأس آخر غير رأس كاتبها، لا يدرك أن النهايات من جنس العمل، وأن تلك التي يستقيها كاتب من عقل غيره تكون زائفة كزيف العالم، يمكن لقارئ حصيف أن يدرك عوَرها، وأن يستشعر إقحامها في مخيلة الكاتب كدفع جزرة في وِجَار ضبع، فلا هو بآكلها، ولا المراقِب بقادرٍ على أن يستوعب سبب وجودها داخل الرواية.

- ربما أخبركَ يومًا.
- أخبِرني الآن.. أرجوكَ، أنا متشوق جدًا. أشعر أن هذه الرواية ستكون مختلفة.
- لماذا تظن ذلك؟
- لأنك مختلف يا «صهيل»، منذ أن اختطفكَ السيد «ك»، وأبقاكَ في بيته؛ لم تعد «صهيل» القديم. صرتَ... لا أدري كيف أقول ذلك.. صرتَ مملوءًا!

- مملوء بماذا؟

- لا أدري، لكن ثمة ما يملؤكَ؛ ربما الشغف.. الجرأة.. أو الإدراك.

أحيانًا يتفوه «رفيق» بما يستجلب كل اهتمامي وتركيزي... مملوء بالإدراك! لعل هذا هو التوصيف الأمثل، لكن إدراك ماذا؟ أن العالم فقد ألوانه منذ انتزاع الحاء من قلبه، ومن أحشاء الكتب؟ أن الزيف يحيط بكل شيء حولنا؟ أن الجميع يصرفون طاقاتهم في محاولة للبقاء على قيد الحياة، بينما قلة منا تبذل جهدها في محاولة يائسة للبقاء على قيد الإنسانية؟ هذا ما كنتُ أراه دومًا، لم يجدّ شيء على حياتي سوى ذراعي اللعينة، وحاستي المفقودة، ما الفائدة التي تعود عليَّ من إدراك أن ذراعي زائفة، وأن للعالم رائحة هي مزيج من الكبريت والرماد والخشب؟

هل الإدراك المقصود هو معرفة أن الخيال قادر على أن يدس أصابعه في عين الواقع؟ ليس للخيال هذه السطوة، هذا ما أنا متأكد منه، إنها الصدفة، ولا شيء سوى الصدفة، حديث الخادمة عن قدرة الخيال على القتل كان صدفة، وظنها أن حبة العنب قادرة على الخنق كان صدفة، وتخيُّلي للثمرة وهي تقف في حنجرة السيد «ك» كان صدفة، وأن الخنجر المدسوس قسرًا داخل المشهد يُشبه بندقية تشيخوف كان صدفة؛ تجمعَت الصدف لتوهمني أن للخيال سطوة على الواقع، وأنا لستُ غرًا لأصدق ذلك!

- اسمع يا «رفيق»، سأرتب الأمر، وكأنني سأبيت عندك اليوم لأراعيكَ في مرضكَ؛ زوجتي تعرف أن لا أهل لك.

- طبعًا.. طبعًا، يجب أن تستمر في الكتابة. لا تقلق أبدًا. ماذا لو أخذتني معكَ؟ ربما أساعدكَ أو ألهمكَ، فتعثر على نهاية روايتك.. ها.. ما رأيكَ؟

- أفضّل الكتابة في عزلة.

- طبعًا.. طبعًا، العزلة مهمة جدًا؛ إنها نبع الإلهام.

في الواقع العزلة ليست نبعًا، إنها الشجرة التي نستظل بها بعد أن نشرب من ماء النبع، لكنه يكرر ما يسمعه من أفواه الكُتّاب، وما يقرؤه في سيرهم الذاتية دون أن يذوق التجربة بحلوها ومُرها، العزلة مطلوبة، لكن الاختلاط بالناس أهم؛ تأمُّل قسماتهم، سماع أحاديثهم، تتبُّع حواسهم، فك شفرات

لغة أجسادهم، فهم دوافعهم، تخمين نواياهم، زلاتهم وسقطاتهم، الغوص داخل أفكار هذا، والانغماس في مشاعر ذاك، ممارسة لعبة المحاكاة، فأتخيل مشهدًا وقع أمامي لعشرات المرات أجسد فيه كل مرة شخصيات متباينة، اقتراف التقمص مع كل ما أسمعه وألمسه، وأتذوقه وأشمّه وأراه؛ هذا هو النبع الذي يستقي منه الكاتب مخزونه الفكري، وليس العزلة.

- نعم، العزلة نبع الإلهام، لذا كما ترى لا أستطيع أخذك معي.. سأنصرف الآن، نلتقي في الغد.

ما كان بإمكاني أن أخبره بالسبب الحقيقيِّ الذي يمنعني من اصطحابه رغم شغفه بذلك، لم يعد ما أُخفيه عنه سرًا واحدًا، أصبح لدي الآن حفنة من الأسرار؛ المكتبة الليلية، والرواية الحائية، والفتاة التي أقابلها سرًا في أغرب مكان قد يلتقي فيه رجل وامرأة؛ بين سطور روايتي «مصنع الكلمات»! ألم أخبركَ قبلًا أن اسم روايتي «مصنع الكلمات»؟ معذرةً.. نسيتُ ذلك، ها أنتَ صرتَ تعرف.

- عوِّضني إذن يا «صهيل»، على الأقل أخبِرني بعبرة جديدة تخص الكتابة.

- عبرة جديدة.. ممم.

عصرتُ ذهني في محاولة لإيجاد أي شيء كافٍ لاسترضائه: «الكتابة تُبنَى كعادة، لن تكتُب القصة نفسها، عليكَ أن تجبر نفسكَ على الجلوس أمام الورقة البيضاء يوميًّا». لا.. هذه قلتُها له سابقًا. «الكتابة فِعل تلاشٍ، تفقَّد نفسك في الورق لتجدها في الواقع»، وهذه قلتُها. «السؤال الذي يجب أن يلقيه الكاتب على نفسه، وهو أمام الورقة البيضاء ليس (ماذا أكتب؟)، بل (ماذا أكون؟)». هل أخبره عن عظمة القلم، واستحضار القسامة به («وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ»[1])؟ تطلعتُ إليه قائلًا:

- أنتَ تعجز عن البدء في كتابة قصة، أليس كذلك؟

- بلى، أعاني من متلازمة الورقة البيضاء.

قالها بيأس متبرمًا، ثم أولاني جُل انتباهه عندما استطردتُ:

---

(1) سورة القلم، آية (1).

- اسمعني إذن، هل تعرف اختبار تداعي الكلمات؟ تلك اللعبة التي كنا نلعبها صغارًا في المدرسة، تختار المعلمة كلمة، ثم تطالبكَ بأن تأتيها بكل ما يخطر على عقلك بشأن تلك الكلمة، إذا لعبتَ هذه اللعبة ستتمكن من إيجاد مدخل لقصة، ولعلك تجد قصة كاملة.

بدت البلاهة على وجهه، لم أنزعج، قلتُ بصبرٍ:

- سأختار الكلمة، مثلًا: (بيت). هيا.. فكِّر، دع الكلمات تتداعي في رأسك.
- ممم.. أب.. أم.. طفل.. صورة.. غرف.. باب.. قفل إلكتروني.. ساعة.. شجار.

أوقفتُه بإشارة من يدي، ثم استطردتُ:

- سأبدأ في جمع الكلمات التي اخترتَها أنتَ داخل قصة، مثلًا: (أم) تستيقظ فجأةً لتجد (طفلها) غير موجود في فراشه، توقِظ (الأب) الذي يسارع بالتفتيش عن الصغير في (غرف) البيت دون جدوى، يدور (شِجار) عنيف بين الأبوين، كلٌّ منهما يتهم الآخر أنه مَن خبأ الطفل لغرض في نفسه، يدق (الباب) ثم يدس شخص مجهول ظرفًا أسفله، يقرأ الأبوان بفزع رسالة تهديد بقتل طفلهما مع (صورة) له في مكان غريب، خُطِف الطفل لمقايضته في مقابل رقم سريٍّ لـ (قفل إلكتروني)، ومع الرسالة (ساعة) بها مؤقت بعَدٍّ تنازليٍّ يشير إلى ست ساعات من الآن.. والمشكلة أن أيًّا منهما لا يدري شيئًا عن الرقم السري!

شعرتُ بالراحة ما إن رأيتُ أمارات الدهشة والرضا على وجه «رفيق» مع ابتسامة واسعة، ونظرة امتنان، بالطبع هو لا يزال برعمًا أخضر، عندما يشتد عوده سأخبره أن الأفكار أيضًا تتداعى بالطريقة ذاتها عندما تواجهنا مشكلة انقطاع الإلهام في أثناء الكتابة.

فجأةً سمعنا الصرخة، والكثير من الصخب والغضب، تلاحمت الأجساد حول بقعة في مستودع المصنع، الذي نحتفظ فيه بالطلبيات التي انتهينا من إعدادها استعدادًا للشحن، اندفعتُ مع «رفيق» نستطلع الأمر، اندسستُ بين الأجساد المتلاحمة، وما إن اقتربتُ من الصف الأول حتى هالني ما رأيتُ! تشنجت معدتي، وكدتُ أتقيأ في وجوه من حولي؛ فوق الأرض تتسع بقعة كبيرة من الدماء، كمية لا تخرج من رؤوس السردين، ولا من يد مبتورة لعامل

مسكين، دماء كافية لتملأ أوردة وشرايين وأعضاء رجل بالغ، أو ما كان جسد رجل بالغ، فقد تحوَّل لحمه إلى شرائح صغيرة، مدسوسة داخل عشرات من علب السردين!

اصطدمت شهقة «رفيق» الفزعة بأذني، ثم أتبعها بقول:

- اللعنة على ذلك! هذا ليس من فِعل قاتل عاديٍّ، بل مختلٍ عقليٍّ، لم يكتفِ بقتل الرجل؛ قطَّعه وعبَّأ بجسده طلبيةً كاملةً من علب السردين!

***

لا أدري كيف ساقتني قدماي إلى الزقاق الخلفيِّ، ولا كيف انتظرتُ فوق الرصيف حتى موعد فتح المكتبة الليلية لأبوابها، ولا كيف ولجتُ الغرفة المثلثة، ثم ألقيتُ بجسدي فوق مقعدها أتوسَّد طاولتها، كل ما أعرفه أنني أكاد أجن من فرط الذهول والفزع!

لستُ بحاجة إلى تقرير شرطة، ولا إلى رأي خبير الطب الشرعيِّ، كي أعرف أن المقتول هو نفسه الرجل الذي تخيَّلتُ أنني أبقر بطنه، وأحشو به علب السردين، بشكل يفوق كل منطق كانت ذراعي الزائفة تنفّذ كل ما أتخيله في رأسي، كل ما تشتهيه نفسي من أمنيات محرمة أو أفكار مسمومة. وكأن يدي تحوَّلت بعصا ساحر أو بمس جن إلى يد الخيال؛ قادرة على أن تُحدِث تغييرًا رغم أنف الواقع، أو لعلها منذ البداية ليست يدي بل يد الخيال، اقتطعها الخيال من جسده، وألصقها بجسدي عندما كنتُ حبيس الغرفة اللعينة!

***

- هجمة ألم...

هذا أول ما طالعني عندما فتحتُ صفحات الرواية، إجابة الفتاة عن سؤالي عن الهجمة، ما معنى هجمة ألم؟ هل هي مريضة؟ هل مرضها خطير؟ هل.. هل ستموت؟ عند هذه النقطة، غمرتني سحابة من الغم، الطريق التي فُتِحَت بين عالمينا أشعرتني لأول مرة أنني على قيد الحياة، منحتني الأمل في أن أجد من يشبهني، والآن لا يمكنني أن أفقد هذا الأمل، لا يمكن للموت أن ينتزعها مني، لن أسمح بذلك.

- هل أنتِ هنا؟

أغلقتُ الكتاب، وفتحتُه عدة مرات بعصبية، وما إن رأيتُ الجواب حتى شعرتُ بالارتياح.

- نعم، أنا هنا.. ظننتكَ لن تكتب أبدًا. حسبتكَ وهْمًا اختلقه عقلي.. ظننتُني أجن!
- كنت أعمل، لكنني هنا الآن، الليل بطوله لنا.
- أنتَ من أرباب الليل.. مثلي.
- لأن الليل يأكل الأصوات.. يتغذَّى عليها، فنتمكن من سماع همساتنا الداخلية بوضوح. أما النهار، فيخرج من أحشاء الصخب.. أبغضه كثيرًا.
- لكن التفاصيل في النهار أوضح.
- من قال لكِ ذلك؟ التفاصيل في النهار تعبث بها أيادي الشمس، فتتموه.. يظن الناس أن الشر ينام بالنهار، ثم يجوب العالم ليلًا، فيمنع الأب طفله من الخروج، وتُحذِّر الأم ابنتها من البقاء خارج البيت حتى وقت متأخر، لكن في الحقيقة أن الشر يجوب العالم طوال اليوم، ولا يغمض له جفن أبدًا.
- معكَ حق، لكن يمكن مغافلة الشر نهارًا، لأنه جبان يخشى العيون المتلصصة، عيون النهار واسعة الحدقة، وعيون الليل يحرقها الأرق.
- أنتِ مخطئة؛ عيون النهار يعميها الضوء فلا ترى. أنا لا أتمكن من رؤية شيء في النهار، ولا حتى نفسي.

طال صمتنا لدقائق قليلة، كنتُ أسترق النظر خلالها صوب الحارس المنكفئ على مكتبه الدائريِّ، ومنشغل بتدوين شيءٍ ما في دفتره الكبير. سألتُها:

- أنتِ مريضة؟
- نعم.
- مريضة بماذا؟
- مريضة ألم.
- الألم ليس مرضًا، بل عرَضًا لمرض.
- ألمي هو العرَض والمرض.

اكتفيتُ بهذا القدر من الحديث عن مرضها مخافة أن أزعجها، فتتوقف عن الكتابة، الليلة طويلة، ولا أريد أن أفقد منها لحظة واحدة، تحدوني رغبة شرهة في التحدث معها دون انقطاع، عن أي شيء، وكل شيء. بادرتُها متسائلًا، بينما حادثة المصنع تطرق رأسي، فتسبب لي صداعًا شرسًا:

- هل تظنين أن للخيال قدرة على التجسد؟

- لماذا هذا السؤال؟

لم يدُم ترددي سوى لحظات، يشعر المرء براحة كبيرة حين يحادث شخصًا لا يراه، ولا يمكن له أن يراه، يستتران خلف حاجز غير قابل للاختراق، الحواجز لها قدرة كبيرة على استخراج الأسرار المُخبَّأة في مغارة الصدر، من أعمق زواياه وأشدها ظلامًا.

- تحدث معي أشياء غريبة، لا أجد لها تفسيرًا؛ أشياء تدفعني لأظن أن للخيال سطوة غير مفهومة... قدرة أكبر من كل تصوراتنا عن أنفسنا وعن العالم.

- أنتَ تريد أن تتخذني مرآةً لكَ، أليس كذلك؟

- لا أرى أحدًا غيركِ يصلح لأن يكون مرآتي.

- لماذا؟

- لأنكِ غير مرئية. هذه القدرة على عدم التجسد تدفعني لأن أتهوَّر، فأحدثكِ عن روايتي الحائية المحظورة في بلد تُجرِّم النطق بالحاء أو كتابتها، وأحدثكِ عن المكتبة الليلية التي أجلس فيها الآن؛ المكتبة التي تختار زوارها، والتي تتبدل الكتب فوق أرفف غرفها المثلثة باستمرار، وعن الكتب المحظورة التي تسكن مستودعها، ويحرسها رجل يحفظ أسماء كل الكتب التي وُجِدت على ظهر الأرض وكأنه فهرس متنقل. أستطيع أن أحدثكِ عن خيالي الذي قتل السيد «ك» بدس حبة عنب في حنجرته، والذي قطَّع جسد عامل إلى شرائح، وعبأها في علب السردين. أستطيع حتى أن أحدثكِ عن مخازيَّ وآثامي، ونواياي الفاسدة، وتطلعاتي الدنيئة دون أن أخشى شيئًا. هذه القدرة على الاعتراف..

على الإفشاء.. على التعرِّي؛ لم أشعر بها قبلًا، هذا لأنكِ غير مرئية.. أنتِ الوحيدة التي أستطيع أن أتخذ منها مرآةً لي.

- ألهذه الدرجة أنتَ وحيد؟

أصابني سؤالها في مقتل، نعم، وحيد جدًا؛ وحيد إلى درجة الشعور بالغربة، وكأنني طفرة غير مرغوب فيها، أو مسافر فضائيٌّ هبط من كوكبٍ آخر.

سألتني بغتةً:

- كيف تبدو؟

أشعرني سؤالها بالحرج، وكأن عينين نبتتا فجأةً من الفراغ بين الأسطر لتستطلعا أمري، اتجهتُ صوب كريستالة صغيرة على شكل كتاب مفتوح، موضوعة فوق أحد رفوف الغرفة كزينة بين الكتب، وفي انعكاسها رحتُ أتأمل قسماتي بدقة، غصتُ أكثر أتأمل ملامحي من الداخل؛ الملامح البعيدة كل البعد عن أبطال الحكايات، فلا أنا بالوسيم ولا بالجذاب، ولا بالغني ولا بالقوي، ولا من ذوي النفوذ، ولا من أرباب السلطة، ولا من فرسان الحكايات، البطل عادةً ما يكون خارقًا للعادة، غير مألوف، شجاعًا، مقدامًا، متحديًا. ولما كنتُ خاليًا من كل ذلك لم يتبقَّ لي سوى دور ثانويٍّ على هامش حكاية؛ دور عامل في مصنع للسردين، كاتب ظِل يؤلف الروايات سرًا، ويبعها لمن يدفع أكثر، يحاول أن يتمم كتابة روايته الخاصة التي لن تُنشر أبدًا، حتى إنه عاجز عن كتابة فصلها الأخير.

أخبرني السيد «ك» في الليلة التي ذهب فيها لتسلُّم جائزة تقديرية عن إحدى الروايات التي اشتراها مني، بينما كان يضبط رابطة عنقه أمام المرآة:

- أنا أقدم لكَ معروفًا بإضافة اسمي إلى رواياتك، أنتَ لا تبدو ككاتب، أنتَ أشبه بصعلوك، والصعالكة لا يكتبون، وإن كتبوا لا يُقرأ لهم، لكي تشتهر في هذا العالم عليكَ أن تبدو جذابًا أولًا، ثم ماهرًا ثانيًا. إن فقدتَ الأولى لن تشفع لكَ الثانية.

يومها سألتُه:

- هل تقصد وسيمًا؟

- لا بل جذابًا؛ الجاذبية مختلفة عن الوسامة.. الوسامة خِلقة ربانية، أما الجاذبية فيصنعها المال، وتُقلِّمها الرفاهية، وتُشذبها العلاقات القوية بذوي الجاه والرأي، وتُلمعها اللقطات التي تسرقها منكَ العدسات، فتُقدمكَ للناس بشكل أنيق. ينجذب الناس للصورة التي تصنعها عن نفسك؛ للماركة التي تبنيها باسمك، أكثر من اهتمامهم بجودة إنتاجك. أنتَ صعلوك معجون بماء البؤس. أنتَ تشبههم، ولا يتقبل الناس القراءة لصعالكة يشبهونهم؛ الناس تنجذب للأيقونات.. مثلي. انظر إلى الشيب في رأسَينا، إنه يُكسبني أنا وقارًا، ويُضفي عليك عجزًا!

أسقطتُ جسدي فوق المقعد، وقد أصابني الغم، لا يجب أن تراني، لا يجب حتى أن ألوح في خيالها، إن رأتني على الحقيقة سأفقد السحر، لن أعود بالغموض الكافي لأن تُحمِّله هي بما شاء لها من صفات، يجب أن أظل غير مرئيٍّ، غامضًا، وإلا سأفقد جاذبيتي في عينيها إلى الأبد. أجبتُها:

- كيف يصف المرء نفسه؟ لا أعرف كيف أفعل.
- هل أخبركَ أمرًا، وإياكَ أن تسخر مني؟
- لن أسخر منكِ.
- لقد رأيتكَ بالأمس!

***

(43)
من يُلبي النداء؟

- كُلِّفتُ بتسليم سيادتك رماد والدتك.

أمضى «مؤيد» ليلة شاقة مرهقة في قبو البيت؛ المكان الأخير الذي رأى فيه أمه قبل أن تُساق بعيدًا، وتختفي للأبد.

كان معتادًا على اختفاء الشخوص والأشياء؛ قريب يذهب، صديق يمل، عشيقة تفتر، أغراض تتبدل أماكنها، وأماكن تُبدِّل أغراضها، أوراق تبلى، هدايا تُلقى، وسنين تجر معها الذكريات تقذفها في جُب النسيان، كل شيء قابل للاستبدال، هكذا كان يظن، إلا أن غياب أمه قاصمٌ للظهر، وكأنها كانت رمانة ميزان هذا البيت، وفي غيابها زلَّت أقدام الكون. يستشعر الآن ربما لأول مرة أن بعض الأشخاص -وربما الأشياء- غير قابلة للمرور عبر البوابة الضيقة للذاكرة، فلا طريق لنسيانها سوى بتدمير الذاكرة نفسها.

تسلَّم المغلَّف البلاستيكيَّ من فرد الأمن المكلَّف بتسليم أغراض أمه؛ ملابسها، الطوق الذي كان مثبتًا على رقبتها، وما كان معها وقت أن سلَّمها أبوه إلى الشرطة، وهذا لا يعني سوى أنها نالت الجزاء الذي يناله كل مقترف لجريمة الأبجدية.. الموت.

في هذه الجرائم لا يُسلَّم الجثمان، ولا يفصح عن طريقة الموت، هو نفسه لا يعرف هل صُعِقَت بالكهرباء؟ شُنِقت؟ أُغرِقَت؟ أم قُطِّعَت من خلاف قبل أن يلقوها في فم النار، وتصير رمادًا في زجاجة؟!

أمسك بالزجاجة بيدٍ مرتعشة، ممزقًا بين الغضب لجُرمها والقهر لفقدانها؛ طفق يطوف في القبو صانعًا دوائر من اللاشيء، مجوفة كالفراغ الذي تُخلِّفه قضمات الشوق لأنامل صبره. فضَّ المغلَّف البلاستيكيَّ، أمسك قطعة من

ملابسها، ودسَّ أنفه في أعماقها يتشمم آخر ما تبقى من آثارها، تفلَّتت من عينه دمعة، فاجأته، أفزعته، أربكته، أخفاها بظهر يده وكأنها دليل إدانة.

- المشاعر لا تخيف، المخيف هو ألا تشعر.

طافت كلمات أمه بخاطره، كانت امرأة معجونة بالمشاعر، وكأنها لا تنتمي إلى هذا المكان، كانت لا تزال تُخفي بداخلها جزءًا من آثار البلد القديم، قطعة من عبق الماضي الذي لا يود مخلوق أن يتذكره، كانت تروى له قصصًا عن البلد قبل أن يتدمر، كانت تخبره:

- لم يكن الأمر بهذا السوء، على الرغم من كل شيء كانت الإنسانية لا تزال تنبض في النفوس، رأيتُها وسط ألسنة النار وركام الموت يا بني، تطوف من رجل إلى امرأة، إلى صبي إلى شيخ، وتربت بأناملها فوق قلوبهم. رأيتُ من يندفع وسط النار لينقذ نفسًا لا يعرفها ولا تعرفه، ومن ينقل المصابين بسيارته وسط الدمار دون أن يخشى أن يُقتل معهم، ومن تُشرع صدرها بيتًا لأيتامٍ يبكون، من يقتسم مع عجوز كسرة خبز لا يملك سواها.. لم يكن الأمر بهذا السوء قط!

لكنه لم يصدق هذيان أمه قط، إنها تتذكر كل شيء بالطريقة التي تجعلها تشعر أن العالم كان لا يزال بخير، لكنه يعرف جيدًا أن مجلس البلدية هو ما جعله بخير، عندما انتزع ابن الأبجدية الملعون، وعندما أطفأ النار... النار التي يسعى المجرمون لإشعالها ثانيةً.

وضع ملابس أمه في القبو كي لا يراها أبوه، فيلقي بها مع كل ما ألقاه من أغراضها، ألقى نظرة أخيرة على هاتفها، وهو يدير طوق رقبتها بيده الأخرى، كانت صورتها في واجهة الهاتف، تأملها طويلًا، يُشبع عينيه، ويملأ قلبه بوجهها الطيب، وابتسامتها الصافية، تسللت دمعة أخرى من عينه، لم يُخفِها هذه المرة، تركها تتساقط فوق صورتها، تمامًا بين عينيها.

***

- وجدتُها يا فندم.. الاشتعال البشري الذاتي!

في البكور توجَّه إلى مكتبه قبل أن يأتي الساعي ليؤدي عمله الدوريَّ في تنظيف المكتب، وبعد ساعتين فوجِئ بمساعده يدلف إلى مكتبه ليخبره بنظريته عن الاشتعال الذاتيِّ:

- جلستُ طوال الليل مع الطبيب الشرعيِّ أتطلع لإيجاد تفسير منطقيٍّ، لن تصدق -يا فندم- ما توصلتُ إليه من معلومات.
- أنجِز!
- الجسم البشريُّ غير قادر على الاشتعال ذاتيًّا، لأنه لا يولِّد سخونة كافية لذلك، ولا يوجد في جسم الإنسان مواد قابلة للاشتعال سوى أنسجة الدهون وغاز الميثان، لكن الكمية لا تكفي أبدًا لأن يشتعل إنسان من الداخل، وإن وقع ذلك، فسيتكفل الماء المخزن في الجسم بإطفاء النار قبل الوصول إلى الجلد، لذلك لا بد من عامل خارجيٍّ يساعد على الاشتعال.
- هل هذه هي المعلومات الثمينة التي توصلتُ إليها؟ أتظن أنني لا أعرفها؟ كيف سيفيدنا ذلك في القضية؟
- لا، ليس هذا يا فندم فقط؛ ارتفاع نسبة الطاقة الكهربائية الساكنة في جسم الإنسان قد تؤدي أيضًا إلى اشتعاله ذاتيًّا، لكن يجب رفعها إلى درجة كبيرة، ولا أعرف ما الشيء القادر على توليد كل هذا الكم من الكهرباء داخليًّا، كما أن الجسم داخليًّا قد يتعرض لسلسلة من التفاعلات الكيميائية أشبه بالتفاعلات النووية داخل الخلايا، قد تؤدي إلى الاشتعال داخليًّا.
- كل ما تقوله لا يُعَد تفسيرًا منطقيًّا!
- نعم يا فندم، كل هذا كان مجرد رؤى لتفسير الظاهرة، لكنني لم أيأس، تابعتُ التفتيش إلى أن توصلتُ إلى أن الاشتعال البشريَّ الذاتيَّ قد يكون بسبب تراكم مادة الأسيتون داخل الأنسجة الدهنية في الجسم نتيجة لشرب الخمور، و«منعم» كان يعاقر الخمر كما سبق وورد في إفادات الشهود، كما أن الاشتعال الذاتيَّ لا يتسبب في أي خسائر في مكان تموضع الجثة، تمامًا كما في قضيتنا، ولا يشترط وجود عامل يساعد على الاشتعال، لأنه يحدث ذاتيًّا من داخل الجسد.

انتهى مساعده متفاخرًا من سكب ما بجعبته من معلومات بسرعة وإثارة، كمؤدٍ استعراضيٍّ يسعى إلى إخراج أرنب من قبعته، لم تتسع عينا «مؤيد» انبهارًا، ولم يصفق انتشاءً:

- ما هذا الهذيان؟! هل هذا تفسيرك المنطقيُّ للواقعة؟

تقهقرت الابتسامة فوق شفتَي مساعده، اضطربت قسماته فيما يشرع في إقناعه:

- يا فندم، هذا هو التفسير الأمثل القادر على فك لغز القضية.

- هذا تفسير ساذج غير قادر على إقناع طفل في الابتدائية!

ابتلع مساعده الإهانة، ومن خلفها رشف جرعتين من زجاجة ماء بين يديه، كان يظن أنه توصَّل إلى التفسير الأمثل، ولا يزال يظن ذلك، يعرف كم أن «مؤيد» عنيد.. معتد بنفسه، يظن أنه أفضل وأذكى من الآخرين! هذا هو السبب الذي يدفعه لعدم تقبُّل التفسير الذي عكف ساعات الليل الطويلة على العمل إلى أن تمكن من الوصول إليه، ما كان عليه مشاركته هذه المعلومات القيمة، امتلأ صدره بالغيظ، تمنَّى لو واتته الشجاعة كي يلكم هذا الـ «مؤيد» في وجهه، ويصرخ معلنًا رأيه فيه دون مواربة.

- هل قال الصبي شيئًا جديدًا؟

أخرجه سؤال «مؤيد» من أفكاره المتصارعة، أجاب باقتضاب:

- كلا.

- والشجرة؟

ألزم نفسه بتبديد أمارات الانزعاج عن وجهه، هذه القضية أكثر أهمية من كل القضايا التي كُلِّف بها قسم رقابة الأبجدية، ولن يدع غرور هذا المتعجرف يتسبب في استبعاده منها. استرسل:

- شجرة عادية؛ لا يوجد ما يميزها. لا يتذكرون متى زُرِعَت، ولا من زرعها. البعض يقول قبل سنوات، وهناك من يدَّعي أنها من مخلفات البلد القديم.

استدعت المعلومة الأخيرة جُل انتباه «مؤيد»، رددها مفكرًا:

- شجرة من مخلفات البلد القديم! كيف؟ أعرف جيدًا أن المنطقة تدمرت بالكامل، ولم يبقَ منها لا إنسان ولا نبات ولا جماد.
- فعلًا هذا ما كنت أعرفه أنا أيضًا، لكن سمعتُ أنها الشيء الذي تبقى دون أن يتدمر. ربما معلومة خاطئة... هي بالتأكيد كذلك.

سأله «مؤيد» بفضولٍ متوقِّد:

- من أخبرك أن الشجرة من عمر البلد القديم؟

اعتصر مساعده ذهنه لثوانٍ، ثم هتف:

- الفتاة.
- أي فتاة؟

ازدرد ريقه ثم قال وقد أدرك متأخرًا أنه أعطى «مؤيد» على طبق من ذهب معلومة ستجعله يسبقه بخطوة:

- أخت الصبي.
- أخت الصبي!

كررها «مؤيد» شاردًا، الصبي وأخته يظهران في أركان الصورة أكثر من اللازم، وبدرجة تثير كل أعاصير الشكوك في نفسه.

***

المرأة الماهرة في التعامل مع الألوان يصير جلدها ناعمًا، شفافًا، لا يشيخ، رفعت «نداء» كفها أمام ناصية الشمس، تتأمل عروقها البارزة، بينما كلمات أمها المتوفاة تنبض بذاكرتها:

- لا تهب الألوان أسرارها إلا لأيادٍ بلا لون، تشف الرفق والخير ومجرى الدماء بالعروق. الأيادي الشفافة لا تسيء، لا تنتقم، لا تخون، بل تعفو، وتغفر، وتجود. تبدِّل الرماديَّ إلى أخضر، فتتسع رئة العالم.

أعادت «نداء» غمس ريشتها في الألوان، تضرب بها ذات اليمين وذات الشمال فوق إطار يضم قماشًا أبيض عاريًا من الصور، تقف الثواني والدقائق والساعات، بينما تنتقل هي كعقرب زمنيٍّ يدور مع المكان أينما دار. في مشغلها الصغير القريب من الغابة لا يتقدم الزمن، بل المكان؛ تنتقل من

أقاصي الريف إلى أعالي الجبال، من أعماق الينابيع إلى وعورة التلال، من صفرة الغلال ونضرة الثمار النابتة بين عينَي الشمس، إلى سواد ليلة قمرها هلال.

اسمها «نداء»، يعجبها مذاقه في فمها، ويطربها وقْعه على أذنها، لم يكن ليناسبها اسم غيره، هكذا تشعر دومًا.

أداة النداء، والمنادى.. تلكما رُكنَا النداء؛ يُشعرها ذلك كما لو أن داخل اسمها يختبئ اسم آخر، منادى لم يظهر إلى النور بعد، مميز، ستعرف عندما تسمعه أنه يخصها هي، لم تعثر عليه بعد في كل الأسماء التي سمعتها، كمنادى لأقرانها، لكنها تثق بأنها يومًا ستسمع من يناديها به، وعندها لن تتعرف فقط على اسمها المختبئ داخل اسمها، بل وعلى المنادي كذلك، سيكون بالتأكيد شخصًا استثنائيًّا، على الأقل كروعة اسمها الذي سينطق به.

- ما أخبار أخيكِ الآن؟ ألم يخرج من المشفى بعد؟
- كلا، لسببٍ لا أفهمه أصر الطبيب على استبقائه فترة أطول.
- مسكين هذا الصبي؛ الجثة كانت في وضع يُرثى له. اقشعر بدني لمجرد نظرة ألقيتُها عليها من بين الجموع التي تجمهرَت عند شجرة «الدردار» للمشاهدة.

تُكِن «نداء» مَعزَّة خاصة لهذا العم الذي لا يصلها به رابطة دماء، وتدين له بالفضل العظيم، لولاه لما وجدت وأخوها الرعاية بعد وفاة والديها قبل خمس سنوات، هيَّأ لها هذا المشغل الذي يُدِر عليها مالًا كافيًا لكفالة نفسها وأخيها الصغير، مراعاةً لعشرته الطويلة، وصداقته الوفية بأبيها.

- هل تسير أمورك على ما يرام يا بنيتي؟

سألها الرجل بقلق أبويٍّ، وهو يجيل نظراته داخل المشغل، يقف عند الأطُر المتكئة على الجدار إلى أن تجفَ ألوانها، تبرز منها وجوه متباينة، كل إطار يُطوِّق وجهه بقسمات فريدة، ونظرات لا تشبه غيرها؛ نابضة.. مشعة، لو دنا منها لسمع الكلمات تتسرب من أشداقها، وكأنهم أناس مسجونون داخل الأطُر، لا مجرد رسم تتبختر فيه الألوان.

- العمل هذه الفترة أكثر من أن أؤديه بمفردي يا عم، لذلك طلبتُ من شيخ المنطقة أن يجد لي عاملًا أمينًا ومُجِدًا.

- هذا أفضل.. لا ترهقي نفسكِ كثيرًا؛ تُبدين مُتعبة. هوِّني على نفسكِ يا بنيتي. سأمر على المشفى لزيارة الصبي.

شعرت «نداء» بوافر الامتنان لهذا التصرف الأبويِّ، لم يكن غريبًا عليه، فمنذ أن مات أبواها، وكان لها نِعم الداعم. رجل بسيط لا يملك من المال الكثير، لكن قلبه كبير؛ كبير إلى درجة أن يسعها وأخاها الصغير.

همَّ بالمغادرة، فسبقَته بودٍ:

- فلنشرب شيئًا معًا يا عم.. سأعد لكَ شاي النباتات الخاص بي.

أبدَى لها أجمل ابتساماته ثم قال:

- وقتًا آخر يا بنيتي.. آه بالمناسبة، سأتغيب لأيام؛ عندي أعمال سأنشغل بها.

ثم التفتَ صوبها ما إن وصل إلى باب المشغل، مهَّد الطريق أمامها بكلماته القلِقة:

- عندما يأتي العامل الجديد، تشمّميه جيدًا. إياكِ وعبير زهر العسل!

قالها وهو يمس بأنامله ندوب وجهه وعينه المفقودة، أو للدقة فراغها المختبئ خلف قطعة جلد تجعله أشبَه بقراصنة الفايكنج!

أومأت «نداء» برأسها تطمئنه، رغم أنها لا تفهم سِر خوفه وهلعه من نبتة طيبة ورائقة مثل زهر العسل، تجهل السبب الذي يدفعه لأن يظن السوء في كل من يختلط بعبيرها، سألته من قبل، لكنه لم يعطِها إجابة شافية، دومًا جُملًا مبتورة بلا معنى ظاهر:

«زهر العسل منبَت الأوهام».

«شيطان الخيال يسكن بتلات زهر العسل».

«أولئك الذين يمتزجون بعبيرها أشر أهل الأرض، لأنهم يعرفون كيف يمزجون الواقع بالخيال».

هكذا عبارات تُنبت بداخلها ثورة من الأسئلة، بأكثر مما تعطيها من سكون المعرفة. شرعَت في استكمال رسمتها، تتجوَّل في الأمكنة، بينما الزمن ثابت لا يتزعزع كعادتها عندما ترسم، إلى أن سمعت صوت الجرس المثبَّت عند باب المشغل، وقفت تستطلع القادم، للوهلة الأولى ظنته عميلًا جديدًا أتى إلى مشغلها من أجل رسمة، لكن وقفته الهادئة، ونظراته الثابتة، وقسماته المعجونة بماء التأمل دفعتها لأن تظن أنه أكثر من ذلك.

- تفضل.. أنا مالكة المشغل، بماذا يمكنني مساعدتك؟

تقدم الرجل الغريب عنها خطوة ثانية، تتجوَّل نظراته في أرجاء المكان برويّة وكأنه لم يسمعها، يدس كفيه في معطف جلديٍّ بسيط، لا ليُدفئهما بل ليُخبئهما، هكذا شعرت، بدا لها وكأنه من أرباب الصبر، أولئك الذين يفكرون كثيرًا أكثر من اللازم قبل أن يأتوا بقولٍ أو فعلٍ، ولأنها سيدة ربَّات الصبر عقصت ذراعيها أمام صدرها، وانتظرت جواب سؤالها في صمتٍ.

لما انتهت عيناه من التنزه داخل أركان مشغلها، عادتا لتستقرا فوق وجهها، يباعد ما بين شفتيه ببطء مجيبًا:

- أنا العامل الجديد.. أرسلني شيخ المنطقة.

ثم أضاف دون أن تسأله:

- اسمي «عامر».

- تشرفنا يا «عامر». وأنا «نداء».

قالتها مبتسمة في وجهٍ تظن أنه لـ «عامر»، مستبعدةً فراستها التي أخبرتها من النظرة الأولى أنه أكثر مما يدَّعي، هاتفها شيخ المنطقة يُبلغها بقدوم «عامر»، فأخبرته أنه الآن أمامها بالفعل، لم تُطِل النظر إلى وجهه، ولم تدقق النظر في عينيه علها ترى جزءًا مما تواريه نفسه، لم تطلب إثبات هوية، ولم تخصص له فترة اختبار؛ وثقَت به لكونه قادمًا بتزكية من شيخ المنطقة، وهو رجل تُكِن له الكثير من التقدير. بادرته:

- سأخبركَ بطبيعة العمل المطلوب منكَ؛ إن أعجبكَ ستبدأ من اليوم.

تم الأمر بسرعة أكبر مما تصور، يا لها من فتاة ساذجة! لم يبذل جهدًا يُذكَر، اتفاقه مع شيخ المنطقة على أن يرسله بدلًا من العامل المنتظَر،

واتفاقه مع مدير المشفى لمنع الصبي من مغادرتها الآن لكيلا يتعرَّف عليه، لم يتطلب منه الأمر أكثر من ذلك. بهذا المعدل سيتمكن من فك غموض الفتاة والصبي، وعلاقتهما بالجثة وشجرة الدردار خلال أيام قلائل، وسينغلق ملف القضية مضيفًا فوزًا جديدًا في سلسلة مفازاته؛ اتسعت ابتسامة «مؤيد» شاعرًا بالظفر!

***

(44)
رجل الطوابير

- لقد رأيتكَ بالأمس!

التهبت أعصابي ما إن قرأتُ عبارتها، أغلقتُ الكتاب بقوة مُلقيًا به فوق المكتب كأنه لعنة على صاحبه، اكتفيتُ من هذه الليلة، لن أتمكن من الاستمرار أكثر؛ زال الغموض وفسد السحر.

دسستُ روايتي في المكان المعتاد خلف قضبان نافذة الممر، صحيح أن الحارس يأتيني بكتب حائية من القبو، لكن من الممنوع اصطحاب الكتب الحائية من خارج المكتبة، فهذا يُعرِّض القارئ والحارس للخطر، فضلًا عن قانون المكتبة الذي لا يجيز قراءة الكتب المحرمة لأكثر من ساعة، لذا كان عليَّ أن أكون حريصًا في إخفاء سري عن الحارس. غادرتُ دون أن أوجِّه إليه تحية الانصراف؛ كنتُ في مزاجٍ عكِر.

طفقتُ أركل الأرض الأسفلتية بمقدمة خُفِّي، غير آبهٍ لوحشة الليل خارج المكتبة، ولا لدوريات شرطة رقابة الأبجدية التي تحوم من شارع لآخر، تفتش في أحشاء الليل عن مجرم يقترف جريمة الحاء. لم يزُرني اللهب في الحلم تلك الليلة، لم أستحم بحُمرته، وأتمرغ بزُرقته؛ ضاعف هذا من كآبتي في الصباح.

- تبدو كأن عزيزًا لكَ قد مات!

رغم السخرية التي تفوح من نبرات زوجتي، فإن هذا ما أشعر به بالفعل.

- لا تنسَ موعد دفع الإيجار، وفواتير الكهرباء والماء.. وضرائب الموقد الكهربائي، والقفل الإلكتروني، ورسوم إعادة تدوير المخلفات... هل تسمعني؟!

لم أجد في نفسي الطاقة المعتادة للمداهنة، أومأتُ برأسي، ثم خرجتُ من البيت يلفني الصمت، تُشيِّعني نظرات زوجتي التي تشعر أنها باتت قاب قوسين أو أدنى من إثبات خيانتي، والعثور على الدليل الذي تبحث عنه منذ يوم زواجنا الأول!

إن لم تجد الزوجة ما يُشغلها يصبح زوجها هو شاغلها الوحيد، يا لها من حياة لعينة! مضى اليوم رتيبًا إلى حد لا يُطاق، خاليًا من الأحداث، يمكن حذفه من دفتر العمر دون أن يسبب خللًا بيانيًّا.

وفي صباح اليوم التالي، كنتُ في حالة حداد طوال الطريق إلى المصنع، اتفق الزملاء على التجمع من أجل معرفة إمكانية الاستمرار في العمل في ظل هذه الظروف البئيسة، بينما القاتل لا يزال طليقًا، والجميع في موضع اشتباه.

ما إن وصلتُ إلى المصنع حتى عرفتُ أن الشرطة أغلقته باعتباره مسرح جريمة؛ لم أُكثِر الحديث مع الزملاء القلقين على لقمة عيشهم، بل لم أتحدث أصلًا، كنتُ مبتلعًا لساني، ومعه أفكاري عن الحادثة البشعة، لكن «رفيق» بادرني بآخر الأخبار كعادته، وهو يتسلى بأكل مكعب مُر:

- تقول الشرطة إنها جريمة عنيفة لم يسبق لهم أن واجهوا مثلها، وإن العثور على الفاعل بين مئات العمال ضعيف للغاية... يبدو أن القاتل سينجو بفعلته.

ثم مال على أذني هامسًا بفحيح، مما يدل على أن الكلمات التي سيتفوه بها خطيرة للغاية:

- يقولون أيضًا إن العلب خالية تمامًا من البصمات ومن المادة الوراثية، وكأن القاتل بلا أصابع.. بلا ذراع.. بلا جسد.

نعم، القاتل بلا جسد، لأنه ابن الخيال، والخيال لا يترك خلفه بصمات أصابع، ولا مادة وراثية كما تعلم! أنا مجرم مُدان بجريمتَي قتل، لهما دوافع قوية، مع تبييت النية، وسلاحي هو يدي اليسرى اللعينة التي قبضَت على ظهر المقعد، ومنعتني من إنقاذ السيد «ك»، وأمسكت بالسكين ودفعتني لتقطيع عامل المصنع، فقط مع اختلاف واحد يميز جرائمي عن أي جريمة أخرى؛ أنني اقترفتُها في عالم الخيال! تخيَّلتُ اختناق السيد «ك» بحبة العنب، وجسد العامل الممزق منزوع الأحشاء، وهو يندس في علب السردين، فقُل لي بربك هل أنا المجرم، أم الخيال؟!

ماذا إن أردتُ تسليم نفسي للشرطة والاعتراف بكل شيء؛ هل سيصدقون أنني قاتل صنعه جموح خياله، أم سيلقون بي في أحد عنابر الخانكة؟ وإذا كنتُ مجرمًا بالخيال، فلماذا ينجو ملايين الكُتَّاب الذين يقترفون الجرائم بخيالاتهم، ويبوحون بها على الورق، ألأنها لم تتحقق في عالم الواقع؟ ما أدراك أنها لا تتحقق؟ ربما لكل كاتب أو لبعضهم مقدرة تجسيد خيالاته مثلي، ربما لهذا السبب تنتشر الحوادث، وتكثر الجرائم، وتحدث الحروب، ربما مَنبت الشرور هو عقل الكاتب المنطلق بجموح في عالم الخيال.

- سأذهب الآن.

- إلى أين يا «صهيل»؟

- يجب أن آتي بالمال، لدي التزامات كثيرة.

دنا «رفيق» من أذني هامسًا:

- لو عرضتَ روايتك التي تكتبها للبيع، فلعلكَ تكسب مالًا أكثر من كل ما كسبته سابقًا. كما أخبرتكَ أشعر أنها رواية فريدة لم يسبق لكَ أن كتبتَ مثلها، بِعْها إذن.

- كلا.

قلتُها بقوة، قلتُها بحزم، قلتُها بعنف؛ توتر «رفيق»، وبادرني مُلطفًا:

- آسف، لم أقصد إزعاجكَ يا «صهيل»، لكنكَ تبدو في مشكلة مادية، فقلتُ أساعدكَ في التفكير و...

- أفهمكَ يا «رفيق»، لكن هذه الرواية ليست للبيع.

وضعتُ حدًا لاقتراحه ببيع الرواية، مجرد سماع ذلك دفع بالدماء لتجري حارّة في عروقي، وتندفع برعونة في أوردة رأسي، وكأنه يقترح عليَّ أن أبيع روحي للشيطان، ما بعتُه من قبل لم يكن روحي، لذلك لم يعز عليَّ مفارقته، لكن هذه المرة مختلفة، لن أبيع رواية محظورة لجاهل يريد أن يلقي بحجرٍ في بئر راكدة ليترك أثرًا لا يُنسى، حتى وإن اضطررتُ إلى تسوُّل الطعام والشراب في الطرقات.

***

فعلتُ الشيء الثالث الذي أجيده بعد الكتابة وتنظيف أحشاء السردين؛ الوقوف في الطوابير!

يقال في المثل الإنجليزي: «إن الحاجة أُم الاختراع»، وتلك المقولة مستمدة من قصة لغراب مع إبريق ماء، كان الغراب يطير في السماء يمزقه العطش، فلا يجد شربة واحدة، وفي أثناء طيرانه وقع بصره على إبريق ماء، فهبط إليه فرحًا، تبددت فرحته ما إن لامس الإبريق، فالماء كان راكدًا في قعره، حاول الغراب مرارًا وتكرارًا دس منقاره في الإبريق للوصول إلى الماء، باءت كل جهوده سُدىً فنهشه اليأس، ولم يكَد يطير مغادرًا حتى أسقطه الإعياء والعطش، فأُرغِم مرة أخرى على محاولة الوصول إلى الماء، وبغتةً خطرت له فكرة؛ راح يُمسك بالأحجار الصغيرة بمنقاره، ويلقي بها في قاع الإبريق، إلى أن ارتفع منسوب الماء، وتمكن أخيرًا من إرواء ظمئه، فلولا حاجة الغراب الشديدة إلى الماء لما اخترع حلًا للوصول إليه، هكذا نشأت المقولة إنجليزية الأصل.

وأنا هنا بعد آلاف السنين أسير على درب الغراب، فأخترع طريقة للحصول على المال، أمارسها منذ نحو عام؛ لم أعد قادرًا على إعالة زوجتي بمرتبي الهزيل بعد أن توقفتُ عن بيع رواياتي ككاتب ظِل.

- هذا مكاني.

- بل مكاني.

هكذا تبدأ المشاجرات داخل الطوابير، صرتُ خبيرًا بها إلى حدٍ كبير، طفقتُ أتابع الشجار الدائر بين رجلين، يحاول كلٌ منهما إثبات أن «هذا مكانه»، بينما أتابعهما بعين كسولة ورغبة معدومة في فض المشاجرة، ستتعلم مع الوقت أن التدخل لفض المشاجرات يجعلك تخسر مكانكَ في الطابور، وأن ثمة رجلًا خبيثًا في مكانٍ ما ينتظر نشوب أي هرج ومرج كي يحتل مكانكَ مُدعِيًا أنه مكانه، ولن تستطيع بدء شجار جديد، لأن الناس يكونون في أكثر حالاتهم مللًا وغيظًا واختناقًا، وإن أصررت على بِدء شجار جديد سيأكلونكَ حيًّا، لذا ستعود خائبًا إلى مؤخرة الطابور مُنكَّس الرأس مخافة البطش.

***

عملي بصفتي «رجل طوابير» سهل للغاية، أنضم إلى أي طابور في أي مكان على ظهر هذا البلد، لا فرق بين طابور صرافة، أو مخبز، أو سينما، أو مؤسسة رسمية، فكلها طويلة ولا نهاية لها، أنتظر بصبرٍ لساعات حتى أحتل مكانًا جيدًا بمقدمة الطابور، وعندئذٍ أعرض مكاني للبيع.

قد تهزأ الآن حاسبًا أنها طريقة غير مُجدية لكسب المال، ستظن ذلك حتى تجربها بنفسك، الناس في مؤخرة الطوابير على استعداد لبيع قطعة من لحمهم الحيِّ في مقابل تخطي الدور، والقفز إلى مقدمة الطابور.

الناس تمل الطوابير، لأنها تتيح لهم فرصة مثالية لتأمل أحوالهم البائسة وحيواتهم المزرية، تمنحهم الوقت الكافي لمراجعة النفس والتفكير والتأمل والتدبر، والناس لا تحب التفكير. فضلًا عن ذوي الأسقام الذين لا يستطيعون الوقوف في طابور لساعاتٍ حتى وإن وَدُّوا ذلك.

مع الوقت أصبحتُ معروفًا بـ «رجل الطوابير»، لم أعد بحاجة إلى عرض «مكاني» للبيع ما إن أصل إلى ترتيب جيد بمقدمة الطابور؛ يأتي إليَّ المشتري من تلقاء نفسه يعرض السعر الذي يناسبه، ثم ثانٍ وثالث ورابع، فيدور مزاد صغير أكون فيه المستفيد الأول، والمُتفرج الأكثر بهجة، فأبيع «مكاني» لمن يدفع أكثر.

الفقراء في هذا البلد لا يملكون شبرًا من الأرض، لذلك يخترعون في أذهانهم أرضًا فوق الأرض؛ أرضًا خيالية يكونون فيها أصحاب أملاك، فتجد من يقطع عليكَ الطريق ليلًا ليقول لكَ: «هذا مكاني»، ويرغمك على دفع «الإتاوة»، أو من يلقي الحجارة على نوافذ متجركَ الجديد الذي افتتحته لبيع الزيتون، ويدفعكَ لغلقه بحجة أن «هذه منطقته، ولا أحد فيها يبيع الزيتون!».

حتى إن الامتلاك في أرض الخيال طال الأجساد والأرواح، فتجد من يرهبكَ، كي لا تتزوج بمن اخترتَ بحجة أنها «امرأته» حتى وإن لم ترغب به، وتقابل من يرغمكَ على زيادة ساعات العمل، مما يخالف قانون العمل بحجة أنكَ «موظفه!».

الفقراء هنا لا يَملكون، لذا فهُم يتملَّكون!

بعد الوقوف في ثلاثة طوابير خلال ست ساعات اكتفيتُ بما جنيتُ من مال، على الأقل سأتمكن من دفع فواتير المياه وضريبة القفل الإلكتروني لباب

البيت، كافأتُ نفسي بطبق مرَق ساخن في مطعم صغير يقع على مقربة من المكتبة الليلية.

***

- لقد رأيتكَ بالأمس!

رأيتُكَ في حُلمي، شعرتُ أنه أنتَ، كنتَ حزينًا.. متخبطًا، وكأنكَ في طريق مسدودة لا تعثر على مَخرجها. تحمل في يدكَ اليمنى روايتكَ تلك وسط غابة كثيفة من الشجر، تُشهرها وكأنها سلاح، وكأنها سيف مسلول تحارب به طواحين الهواء. أما اليسرى، فلم تكن مكانها.. أقصد لم تكن موجودة على الإطلاق، وكأنكَ رجلٌ أبتَرُ!

كدتُ أضرب رأسي بسطح المكتب، ثم برفوف الكتب إلى أن تتفتت، لماذا لم أنتظر إلى أن أقرأ تفسيرها؟ يا لي من غبي! قضيتُ هذا الوقت في غم بغير سبب، التسرع وعدم التروي في اتخاذ القرارات هو الآثار الجانبية لعصر السرعة؛ تخطِّي التفاصيل، المحاضرات المختصرة، العلاقات العابرة، المعلومات المركزة في كبسولة، التخطيط السريع، سَقْط الحب غير مكتمل النمو، كل هذه ضرائب باهظة ندفعها نظير إيقاع حياتنا السريع!

لم ترَني الفتاة على الحقيقة، وإنما في حُلم! يبدو أن غيابي لم يؤثر في رغبتها في الكتابة لي؛ كانت صفحة كاملة مُحبَّر ما بين سطورها بخط يدها:

- غريب أن يسألني كاتب مثلك عن سطوة الخيال! إن كنتَ متشككًا في قدرته على إحداث تغيير في الواقع، إذن لماذا تتحالف معه من أجل أن تكتب رواية؟ ألا تعرف أن الخيال هو سلطان التمرد؟ أول ما يتمرد عليه الخيال هو الحدود التي تحبسه في عالم منزوع الحواس غير مرئيٍّ؛ عالم ينبت في مخيلة كاتب ليزهر ويثمر في مخيلة قارئ. الخيال لا يحب التقييد، لذلك أحيانًا ما يتسرب عبر مسام الواقع، تاركًا آثار أقدامه واضحة وكأنها محفورة على الرمال، نفحة هواء تردمها، وكأنه لم يعبر من هذا المكان قط، لكن الكاتب الذكي يعرف، والقارئ الحصيف يدرك.

ثم تركَت سطرًا فارغًا، يبدو أنها توقفت لتنتظر ردي، ولما لم يأتِها كتبَت:

- هل رحلتَ؟ لا أحب الرحيل دون وداع!

سمعتُ نبرة العتاب تفوح من كلماتها، ورائحة حزن تنبعث من مسامات حروفها، التقطتُ القلم، وسارعتُ بالكتابة:

- أعتذر عن رحيلي المفاجئ، باغتني ظرف طارئ. وحسنًا.. لن أرحل ثانيةً دون وداع.

طال انتظاري للرد لما يقرب من ساعة أو يزيد، هل تعاقبني على حماقتي؟ أنا راضٍ بأي عقوبة إلا أن تتوقف عن مُكاتبتي، أعدتُ قراءة ما كتبَته عن حلمها، وخاصةً الجزء المتعلق بذراعي المفقودة، باغتني شعور أنه لم يكن مجرد حلم عاديٍّ، الفتاة لم ترَني من قبل، ولم أحدثها عن ظنوني بشأن ذراعي الخيالية قط، لا يمكنها أن تحلم بشيء لم تره، ولم تسمعه، ولم تفكر فيه في عالم الواقع، الحلم ما هو إلا حالة من الوعي الفكريِّ النشِط لِما يحدث في حياتنا.. كيف حدث هذا إذن؟ كيف تحلم الفتاة بشيء حقيقيٍّ جدًا لم تسمع عنه من قبل؟!

دفعني هذا لأشعر أن ثمة رابطًا قويًا يجمع بيننا؛ رابطًا أقوى من كل أبجديات الواقع.

- سامحتكَ.

لم يسبق أن شعرتُ بهذه البهجة لأجل شيء بسيط مثل قبول اعتذاري، ربما لأنني لم أتلقَّ من قبل ردًا على اعتذاري كمثل «سامحتكَ»، فكما تعلم الكلمة حائية محظور استخدامها. «المسامحة» هنا لا مكان لها، يحسبونها فِعلة الضعفاء، وقرينة النُقصاء، أحد الأخلاق الملعونة التي تسببت في إشعال نار الحرب، يستبدلونها بـ «قبِلتُ اعتذارك»، لكن لفظ «المسامحة» مختلف الوقْع على قلبي، فيه تساهُل وكرَم، أشياء قادرة على أن تأسر القلوب كما ترى، ربما لهذا السبب يكرهها الناس؛ ينفرون من كل ما هو قادر على أن يجعل قلوبهم أرقى.

- ظننتكِ تعاقبينني.

- لو لم تعتذر لعاقبتُكَ، غير أنني لا أعاقب بالصمت.

- بماذا تعاقبين إذن؟

- بالاستبدال.

- كيف؟!

- أصادق شجرة في الطريق، أستظل بفروعها، أشاطرها الحديث، أمنحها جهدًا وعُمرًا. أُشعِرك أنها أقيم منكَ، أخبركَ بكل ذلك وأنا فرحة، أسحبكَ من مكانكَ القريب مني رويدًا رويدًا، وأستبدلكَ بجماد أو نبات.. بشيء خالٍ من الروح، مثل شجرة.

- وإن اعتذرتُ؟

- أسامحكَ.

- وإن أصررتُ؟

- أعيدكَ غريبًا كما كنتَ.

نبتت على ثغري ابتسامة أثق بأنها بلهاء في عُرف من يراها، لم أحاول استعادة قسماتي الجادة حتى عندما شعرتُ بنظرات حارس المكتبة الليلية تسطع فوق وجهي.

- هل أصابتكِ هجمة ألم جديدة؟

- ليس الأمس، وليس اليوم.

لم أُطِل الحديث عن مرضها كي لا أزعجها، وفيما كنتُ أفتش عن موضوع لإدارة دفة الحديث بادرتني هي:

- فيبروميالجيا.

- لم أفهم!

- مرَضي.. إنه الفيبروميالجيا.

شعرتُ بقمر الجهل مكتملًا في يوم تمامه، يسطع معلنًا عن نفسه وسط سماء العتمة، لم يسبق لي أن سمعتُ باسم المرض حتى، هل هو بسيط، خطير، قابل للشفاء، مُزمن؟ لا أعرف أبدًا؛ باغتني الحرج، هل أعترف لها بجهلي أم أتظاهر بالمعرفة؟ وبينما أحاول حسم قراري كانت هي قد أدارت دفة الحديث إلى اتجاه آخر، كأنها فراشة لا تطيق صبرًا على الرحيق، فتقفز من زهرة لأخرى، أعجبني تشبيهها بالفراشة، لكن أي نوعٍ من الفراشات هي؟ هذا ما أنا بصدد اكتشافه.

- قرأتُ الفصل الأول من روايتكَ.

خطَّت ذلك ولم تزِد، اندفع قلبي يدق بقوة لم يعتَدها نبضه، كأنني أمام نتيجة اختبار مصيريٍّ، أتبعتُ كلماتها بسؤال متردد:

- وما رأيكِ؟

طفقتُ أقضم أظافري؛ تلك العادة التي تلازمني منذ الصغر عند لحظات التوتر، التي تبغضها زوجتي بشدة.

- لا أستطيع تكوين رأيٍ واضحٍ الآن، يجب أن أُكمل القراءة.

لا أخفيكَ سرًا، انزعجتُ، وددتُ لو تقول رأيًا مبدئيًّا يدثِّرني بالاطمئنان ولو قليلًا، لا أصعب من انتظار رأي القارئ الأول لتكتمل الحلقة الأولى، كل كاتب لرواية ما هو إلا نصف حلقة، لا يُكمل نصفها الآخر سوى القارئ، لكل قارئ بصمة عقل لا تشبه غيره؛ فريدة، ولا تتكرر، إذا فشل الكاتب في تقديم رواية جيدة، أو عجز القارئ عن فهمها والتفاعل معها؛ تتكون على طول القراءة حلقة فاسدة، هشَّة، تتبخر عند التتمة، أما إن أجاد الكاتب، وفطن القارئ؛ تتكون بينهما حلقة قوية لا تنكسر، ولا ينفصم عُراها.

لذلك وددتُ لو تقول الفتاة شيئًا يُنبئني بنوع الحلقة التي تتكون بيننا، لكنها لم تفعل. ولسببٍ خفيٍّ، وددتُ لو أستعيض عن الخيبة التي شعرتُ بها بقراءة فصلٍ عشوائيٍّ من روايتي، هذه المرة أقرؤها بعين قارئ لا كاتب، أو بمعنى أدق: بعين قارئتي الأولى التي ما زلتُ أجهل اسمها.

- مصنع الكلمات.. لماذا اخترتَ لها هذا الاسم؟

أجبتُها بغموضٍ متعمد يحفز شغفها:

- إن قرأتِ ستعرفين.

أنا سعيدٌ معها.. سعيد كما لم أكن من قبل، سعيدٌ حتى وإن لم أرَها، وإن لم ألمسها، إنها مسافة لم تطأها قدم، وصوت غاب عنه الصدى، ولمسة بغير اقتراب، إنها رواية لم تكتبها الكلمات، وحكاية غير مروية محبوسة في عين كاتب فقدَ يديه ولسانه. إنها الشيء الوحيد في هذا البلد الذي يُشعِرني أنني على قيد الشعور.

***

(45)
العضّة

- العمل المطلوب سهل، لكن كثيف.. بعض الأيام يأتينا عملاء كُثُر لدرجة تدفعنا للعمل ليلًا نهارًا، وبعض الأيام تمر ساكنة بلا ضجيج. أخي يساعدني عندما تتكاثر الأعمال، لكنه الآن مريض في المشفى، لذلك طلبتُ من شيخ المنطقة أن يرسل لي شخصًا موضع ثقة يساعدني هذه الفترة العصيبة.

تجاهل «مؤيد» ما قالته، واندفع سائلًا باهتمام زائف، بذل جهده ليبدو أصيلًا:

- ما به أخوكِ؟

أطرقَت «نداء» قليلًا، ثم أجابته بأسى:

- تعرَّض لصدمة عنيفة.. يتعافى من تبعاتها.

لم يتخيَّل «مؤيد» في أسعد السيناريوهات التي رسمها أن يدخلا في صلب الموضوع بهذه السرعة، لم يدع الباب الذي شرع ينغلق بسهولة، التقط طرف كلامها قائلًا:

- عندما أخبرني شيخ المنطقة عن فرصة عمل كنتُ قد سألتُه إياها، طرتُ سعادةً، لكنني لم أتخيل أنني سآخذ مكان صبي مريض! تقولين إنه تعرَّض لصدمة، ألا يجب أن تكوني بجواره الآن.. أم أن أهلك معه؟

- ليس لنا سوى بعضنا بعضًا.. تُوفِيَ والداي منذ بضع سنوات.

قالت هذا بشجنٍ يعلو قسماتها، لم تُضِف تفصيلة عن سبب موتهما، لكنه يعرف جيدًا كيف ماتا، يعلم أي نوع من الناس كانا، ويستطيع تخمين أي نوع

من الأبناء قد أنجبا، صرف تفكيره وامتعاضه، ثم شرع في تغيير الموضوع، كي لا يستجلب شكَّها:

- عرِّفيني أكثر على طبيعة عملي. قال شيخ المنطقة إن الأجرة باليومية، أليس كذلك؟ هذا ما اتفقتُ معه عليه.

صرفت هي أيضًا الأسى عن وجهها، أجابته مؤكدة بِود:

- بلى، إنها كذلك.. عملك يتلخص في تولِّيكَ أمر صناعة الأطُر الخاصة برسوماتي.

- أصنعها من ماذا؟

- من الخشب، ثم تُطليها بالفضة.

تركَته يتأمل ما قالت، ابتعدت عنه إلى زاوية المشغل، التقطت إطارًا كانت تعمل عليه الليلة الماضية، تقدمت منه وأدارته صوبه، كي يتمكن من رؤية الرسمة التي تبرز من منتصفه، ثم استطردت بجدية شديدة، وكأنها سيدة أعمال خبيرة:

- دوركَ هو صناعة مثل هذه الأطُر الخاصة. أنتَ تجيد النجارة، أليس كذلك؟ وإلا لما أرسلكَ شيخ المنطقة للعمل معي.

- عملتُ نجارًا من قبل.

- جيد، يجب أن تلتزم في صناعة الأطُر بثلاث قواعد لا يجوز مخالفة أيٍّ منها؛ أولًا: كل إطار يجب أن يُصمَّم من الخشب بشكل مزخرف، أنيق، وجذاب، ثم يُطلَى بالفضة، بعض العملاء يفضلون الذهب، وآخرون يكتفون بالخشب. ثانيًا: لا يجب أبدًا أن يشبه أي إطار غيره من الأطُر الأخرى التي تصنعها؛ كل إطار لرسمةٍ ما يجب أن يكون مختلفًا عن غيره بشكل فريد، فكِّر فيه كبصمة إصبع لا تتكرر. ثالثًا: وهذا أهم ما في الأمر، عليك أن تولي عناية فائقة عندما تلصق فوق الإطار الأغراض الخاصة بكل وجه أرسمه.

- أغراض خاصة مثل ماذا؟

- غالبًا أزرار، فرشاة، مرآة، أقلام رصاص، أقاصيص، وغيرها من الأغراض التي تخص الشخص الذي أرسم صورته داخل الإطار.

- أنتِ رسامة إذن.

- نعم، هذا القسم هو عملي.

تساءَل بينما يجيل بعينيه في أرجاء المشغل، وهو العارف بالجواب:

- كيف ترسمينها؟ أقصد أي المواد تستخدمين؟ أفهم قليلًا في الألوان.

اقتربَت منه خطوة، علا وجهها أمارات غامضة؛ مزيج من الأسى والقوة وشيء آخر يشبه الغضب، أجابته بنبرات جامدة لا تشي بأيٍّ من المشاعر التي تعتمل بداخلها:

- أصنع الصور من الرماد.. ألصقه بمواد خاصة، ثم ألوِّنه.

عليه عند هذا المبلغ من الكلام أن يُبدي عجبًا، إلا أنه بدلًا من ذلك سألها بنبرات جامدة لا تشي بما يعتمل بداخله هو الآخر من مشاعر:

- رماد ماذا؟

بنفس النظرات الجامدة قالت:

- رماد المواطنين الذين يقعون في أيدي شرطة رقابة الأبجدية.

انزعج من استخدامها لفظة «المواطنين»، اندفعت الدماء إلى رأسه، سألها بشكل مندفع كاد يُخرِّب مهمته:

- المجرمون قصدكِ، أليس كذلك؟

ودَّ لو يُضيف: «مثل أبويكِ اللذين قُبِض عليهما قبل سنوات بتهمة امتلاك كتب لابن الأبجدية الملعون، ولقيا نفس مصير أمي، ولم يتبقَّ منهما إلا رماد في زجاجة».

استعادت نظراتها المتراخية، وابتسامتها الودود، كررَت من خلفه:

- بلى، بالطبع، المجرمون!

قالتها بغموض، واستهزاء التقطته أذناه في التو، ثم استطردَت وقد عاودتها الجدية:

- رغم جرمهم، فإن بعض الناس يرغبون في التعامل مع رمادهم المتبقي بهذه الطريقة الفريدة، لصقه في صورة تشبه تمامًا الشخص المفقود، يصنعون منهم عالمًا خاصًا مؤطَّرًا على الجدران.

- لماذا يرغب أهالي المجرمين في تأطير صورهم من رمادهم؟
- تنكيلًا بهم، مثلما كان فلاد الثالث يقطع رؤوس المخالفين لأوامره، ويعلقها على مدخل المدينة، وبما أن جثث المجرمين تعود من خط النار رمادًا بلا رأس؛ البعض يفضل تأطيرها على الجدران كي تكون عِبرة وعِظة لباقي أفراد العائلة.
- هل الجميع يرغبون في رسم صور المجرمين بالرماد لهذا السبب؟
- كلا، البعض يشتاق إلى من فقدوهم، وإن كانوا مجرمين مخالفين لقوانين مجلس البلدية؛ بهذه الطريقة يقدمون لهم إكسير الخلود.
- وأنتِ، هل تؤمنين أنها طريقة جيدة لاستبقاء الأموات؟

اتسعت ابتسامتها تقول ببساطة:

- رأيي ليس مهمًا، أنا أرسم بالرماد، وأقبض مالًا أعيش منه أنا وأخي، وأدفع أجور عُمَّالي، لا شيء يهمني أكثر.

أدرك بخبرته في سبر أغوار النفوس أن اللامبالاة البادية في كلماتها وسكناتها ما هي إلا قناع يواري خلفه الكثير من الغضب.. والعميق من الأسرار!

***

لم يتخلَّ المساعد عن اقتناعه بنظرية الاشتعال الذاتيِّ البشريِّ، رغم استهزاء «مؤيد» بما توصّل إليه؛ عكف على تتبع هذا الخط بمفرده، مرددًا لنفسه:

- إن استطعتُ فك شفرة هذه القضية الغامضة سأُخرِس هذا المتعجرف، وأنال الترقية التي أستأهلها.

طاف المساعد في مكان الجريمة، يُعيد استجواب أهل المنطقة، يفتش بين أقوالهم عن معلومة دفينة، أو طرف خيط قد يوصله إلى مبتغاه، أمضى الساعات متجولًا من شارع إلى آخر، طارقًا الأبواب، ومندسًا بين الناس ساعيًا لاستخراج معلومة مُخبَّأة في صدر بعضهم بعضًا. وبينما كان اليأس قد أوشك على الانتهاء من قضم كل أطراف الأمل، التقطت عيناه رجلًا يستعد

لدخول بيتٍ صغير من الطين، عصر ذاكرته لبرهة، ثم توجَّه من فوره صوب الرجل قائلًا:

- انتظِر!

توقف الرجل عن غلق باب بيته، والتفتَ بكل جسده صوب المساعد الذي بادره:

- أنتَ البستانيُّ الذي كان يعمل في بيت السيد «ك»، أليس كذلك؟ أنت الذي أبلغ عن الجريمة فور وقوعها؟

مرأى الرجل مفقود العين كان يثير في نفسه شيئًا من التقزز، والرغبة في إبعاد النظر، خاصةً وأنه كان قد نزع قطعة الجلد التي تُخبئ فراغ عينه، لكنه قاوم رغبته قائلًا بعدما أومأ الرجل برأسه إيجابًا:

- ألن تدعوني إلى فنجان قهوة؟

بتردد التقطته عين المساعد أشار إليه بالدخول، لم يبالِ المساعد بانزعاج البستانيِّ من التطفل البغيض على بيته، منذ أن استجوبه يوم مقتل السيد «ك»، أخبره «مؤيد» أنه يشعر في قرارة نفسه ولسببٍ مبهم أن الرجل يعرف أكثر مما يقول، ويُخفي أكثر مما يُبدي، ووجود بيته في هذه المنطقة التي وقعت فيها جريمة الاشتعال الذاتيِّ، أثار الشك في نفس المساعد أكثر.

بيتًا بسيطًا كان، غير مؤهل لمعيشة آدمية مرفَّهة، لكن يبدو أن البستانيَّ كان مكتفيًا به.

- هل لديك معلومات عن واقعة الشجرة.. أو عن المقتول؟

تطفَّل عليه المساعد، بينما كان البستانيُّ يُعِد القهوة في ركن قصيٍّ خصصه ليكون مطبخًا شديد التواضع، يُقلِّب القهوة في الماء ببطء بغصن شجرة ويقول:

- لا أعرف أكثر مما قاله الجميع.

لم يكتفِ المساعد بهذا الجواب:

- هل كنتَ تعرف القتيل؟

- نلتقي في الطريق صدفةً مثلما يتصادف جيران المنطقة نفسها.. لا أكثر ولا أقل.

- ألم تتكلم معه قط؟

- ربما... مرة أو مرتين.

- عمَّ تكلمتما؟

- لا شيء مهم.

- أرغب في السماع.

- لا أذكر.. علها تهنئة بمولود، أو سلام يُلقيه عابر طريق على آخر.

- استأتَ لموته بالطبع.

- كلا.

- لماذا؟

- لأنه كان وغدًا!

كان كذلك بالفعل، خاصةً في مراهقته قبل إعادة إعمار البلد، تبيَّن المعلومات التي جمعها من أفواه أهل المنطقة أنه كان جزارًا، وما شجَّه بساطوره من رؤوس البشر أيام الفرقة الغابرة، كان أكثر مما شجَّه من رؤوس المخلوقات الأخرى.

لا يملك المساعد دليلًا أو إشارة قوية على تورُّط البستانيِّ في شيء، لماذا إذن يشعر بهالة غموض مثير للريبة تدور فوق رأس البستانيِّ؟ إنه من الضباط الذين يتبعون غرائزهم، وإن لم يوافقها المنطق؛ من الأشخاص الذين على أتم الاستعداد لتصديق نظريات مبهمة عن الاشتعال البشريِّ الذاتيِّ، بل والتنقيب عن دليلٍ لإثباتها، هذا كله دفعه للسير خلف غريزته التي تشير بجلاء صوب البستانيِّ، ويسأله:

- تعيش هنا بمفردك؟

كان البستانيُّ قد انتهى من إعداد القهوة، صبَّها في الفنجان، ثم مد بها يده صوب المساعد الذي أخذها منه شاكرًا، قبل أن يشاركه الجلوس فوق الوسائد الأرضية غير الوثيرة:

- لم أتزوج، ومات كل أهلي قبل ثلاثين عامًا؛ التهمتهم النار أمام عينيَّ فردًا تلو آخر إلى أن شبعَت.

- تفتقدهم بالتأكيد.

- كلا.

لم تكن المرة الأولى التي يلتقي فيها المساعد مع شخص فقدَ كل أهله في الخراب الذي وقع قبل تولي مجلس البلدية زمام البلد، لكنها المرة الأولى التي يقص عليه الناجي الأخير لعائلته ذلك دون مرارة أو ضغينة تمتلئ بها كلماته! عادةً ما يتذكر الناس هذه الأيام بكثير من الأسى، واللامبالاة التي رآها على الوجه المتغضِّن المعروق للبستانيِّ أدهشه، وأثار نفوره، خاصةً عندما استطرد:

- التهمَت النار الفرد الأخير من عائلتي، وتوجَّهت صوبي، ظننتُ أن الموت قادم وبأبشع طريقة ممكنة، لكنني تفاجأتُ بخمود النار بغتةً، لأنها كانت قد شبعَت. هل تعرف أين تذهب النار عندما تشبع؟

هزَّ المساعد رأسه نفيًا، يرقب الرجل بانتباه وكأنه مجذوب فقدَ عقله، قد يأتي بفعل مباغت غير متوقع، أجاب الرجل بنفسه عن السؤال الذي ألقاه، بينما عيناه تشعان ببريق مصدره أشعة الشمس الهاربة من شق بجدار بيته:

- تطوف النار في الأرض مع إشراقة النهار الأولى، تُشبِع بطنها بكل ما تلاقيه في طريقها من أرض وبيوت وشجر، وعندما تشبع النار، فإنها تنام في جوف البشر.

- وماذا تفعل بالنوم في جوفهم؟

- تنتظر شرارة كي تستطير وتلتهب.

- شرارة! عود ثقاب تقصد؟

- كلا، شرارة المعرفة.. الإدراك. الناس أموات خاملة تسير على قدمين، يقرض الوهم نفوسهم من الداخل، ينهش أعضاءهم وهم نيام، يمصمص أوردتهم المملوءة بالدماء الفاسدة في أثناء ممارستهم أعمالهم اليومية، ورغم ذلك لا يرغبون في الخلاص من الوهم. وشرارة إدراك صغيرة كافية لتفجير الوهم، وإيقاظ النار النائمة في جوفهم.

شيء ما في كلامه عن النار استجلب انتباه المساعد، وعزز تركيزه، الرجل يتكلم عن النار التي تعيش في جوف إنسان يؤمن بالأوهام، ويومًا ما تصفعه

شرارات الإدراك، بينما هو هنا ليعثر على سبب منطقيٍّ لاشتعال النار في جسد الرجل المقتول عند شجرة الدردار، هل هذه صدفة؟ أقسَم في نفسه إنها ليست صدفة، البستانيُّ لا يثرثر، بل يُبصِّره بما غاب عنه، هكذا ظن. بادره متسائلًا بفضول، مصغيًا للجواب تمام الإصغاء:

- لماذا تتسبب المعرفة في إشعال النار؟ المعرفة نعمة لا نقمة.

قفزت الصرامة، وترأست مكانًا بارزًا في وجه البستانيِّ الذي قال:

- نعمة على المؤهَّل للتعامل معها.. نقمة على مَن تربَّى دهرًا في أقفاص الجهل. لا يمكنكَ أن تهب المعرفة فجأةً لأناس لم تتعلم كيف تتعامل مع المعارف. لا يمكنكَ أن تدع المعلومات تتدفق إلى عقولهم فجأةً، لأنها غالبًا ما تكون جافة بصورتها الخام: أي دون تفصيل وتوصيف وربط بين الوقائع؛ هذا يتطلب جهدًا بشريًّا، وليس الجميع مؤهلًا له.

أدرك المساعد من كلام الرجل أنه ليس مجرد بستانيٍّ بسيط كما ادعى، لا يمكن لهذه المعاني أن تخرج من فم رجل يتصف بالبساطة، كما تشي بذلك سجايا قسماته وزوايا مسكنه. استرسل المساعد في جذب أطراف الكلام، بينما يأخذ رشفة من فنجانه:

- إذن تقول إن المعرفة المفاجئة هي التي أشعلت النار النائمة في جوف «منعم»؟

اضطرب البستانيُّ، بدا مترددًا في استكمال كلامه، لم يدُم ذلك إلا ثواني، ثم استعاد رباطة جأشه، قائلًا وهو يميل بجسده صوب المساعد:

- نعم يا ولدي.. لقد اشتعل بنيران المعرفة.

ثم أرجع ظهره للوراء، وهو يتجرع الماء، ثم يرمق المساعد قائلًا بخبث:

- طبعًا أنا رجل خرِف لا يعي ما يقول، يعني لو استدعيتني من أجل استجواب جديد لن تخرج مني كلمات منطقية كما ترى!

أومأ المساعد برأسه متفهمًا، في اتفاق مُوقَّع بصريًّا مع البستانيِّ أنه لن يزعجه بالاستدعاءات الرسمية، ما دام لا يمتنع عن الإجابة عن أسئلته كما يفعل الآن. تململ البستانيُّ في موضعه قائلًا:

- أريد أن أنام؛ لدي وردية عمل مسائية.

- أين تعمل الآن؟

- في أي شيء، وكل شيء.

إجابته غامضة كهيئته، وعينه السليمة ملتهبة كجمر مشتعل، لم يرغب المساعد في الإثقال على الرجل كي يدع الباب مواربًا أمام فرصة أخرى للقاء والثرثرة. نهض من فوره ليغادر البيت، أما البستانيُّ الذي وقف كي يودّعه عند الباب شيَّعه بجملة ألقت في نفسه المزيد من الدهشة:

- عضَّة صغيرة قادرة على إطلاق شرارة الإدراك الأولى؛ عضَّة صغيرة قادرة على إشعال النار!

قالها البستانيُّ، وهو يكشف عن ذراعه، فتبدَّى للمساعد أثر أنياب فوق ساعده! ثم أغلق الباب بسرعة، بينما المساعد متسمر في مكانه يتساءل؛ ما علاقة العض بالنار، وبالمعرفة؟ ماذا يقصد هذا الخرِف؟!

***

مصنع الكلمات

«إنني أشعر نحو الكون كله بلا مبالاة غريبة».

سيمون دي بوفوار

أن تكون فأرًا وحيدًا، أن تعيش بلا هدف، في بلدٍ صغيرٍ، يبغض أهله الحيوانات، ويُجرِّمون التلفظ بالكلمة؛ تلك حياة بائسة! وما يزيدها بؤسًا أنني أكره البشر -على الأقل- بقدر كُرههم لبني جنسي؛ أتقزز من روائحهم النافرة، وأشمئز من وجوههم الكالحة، وعواطفهم الخاملة، وعقولهم القاصرة، وحركتم البليدة، وعجزهم عن ارتداء ثوب البطولة في أسطورة الحياة الخالدة.

- ما هذا الشيء المقزز؟!

عاكفٌ على محاولة انتشال قطعة خبز انفلتت من يد صبي، وتمرَّغَت بالتراب، فتركها آنفًا ومضى، أطلقت امرأة فجأةً صيحة طويلة حادة خبتت بانقطاع أنفاسها؛ هرولتُ مسرعًا من شارع لآخر، ومن جدار لآخر تجاه جُحري الصغير السريِّ قبل أن تمتد الأيادي لتقتلعني من أرض الحياة الوعرة كعُشبة سامة أو نبتة مُتلِفة. تلك لم تكن الصيحة الأولى التي تطلقها امرأة بفزع ما إن ترى جسدي الضئيل المترهل الخالي تمامًا من الشعر أو الفرو.

منذ اللحظة الأولى التي تفتَّحت عيناي على هذا البلد البائس، وجدتُني بلا أب، بلا أم، بمعزلٍ عن أي مستعمرات يعيش فيها أمثالي. في البداية لم أدرك هويتي، لم أملك مرآة لأتطلَّع فيها إلى شكلي، لم أفهم إلى أي نوع من المخلوقات أنتمي! أن تتموه كينونتكَ، أن تفقد هويتكَ، ألا تدرك مَن أنتَ، ولماذا قدمتَ إلى الحياة، وماذا تصنع فيها؛ لهو الجحيم ذاته.

في الأيام الأولى ظننتُني بشريًّا، كتلك المخلوقات التي يفيض بها هذا البلد، حاولتُ الوقوف والسير على قوائمي الخلفية، واستخدام قوائمي الأمامية في

الإمساك، والالتقاط، والضرب، والأكل، والتصفيق، لكن مع أول صرخة لطفل رآني أدنو منه بِنيَّة مشاركته اللعب؛ أدركتُ أنني لستُ واحدًا منهم. لون جلدي الباهت، ترهُّله، أذني الكبيرة، لغتي التي لا يفهمها سواي؛ كل تلك العلامات كانت كافية لأدرك أنني مختلف. وأن تكون مختلفًا في بلدٍ يطفح بالأشباه؛ لهو كعيش سمكة في حساء خُضَر!

طوال الوقت أنا مطارَد، لا لأنني كائن مؤذٍ بالفطرة، ولا لأنني أسرق طعامهم، فأنا لا آكل إلا بقاياهم التي يلقون بها في الأزقة الخلفية المُهمَلة، ولا لأنني أُنقِص هواءهم أو أقطف ريحهم، فكلها مخلوقات تسبح في ملكوت الله، ولكن لأنني مختلف، فقط مختلف، ويبدو أن هذا كافٍ لصدر ابن آدم، كي يترَع بالتباغض والأحقاد والقساوة.

وفي ليلة كحلاء خرجتُ فيها لأبحث عما أتزود به من فتات، صك أسماعي صيحة كهلٍ أبصرني أمُر بين قدميه، فحاول بجُل قوته دعسي بخُفِّه القاسي، ثم بقوائم مقعد خشبيٍّ؛ في تلك اللحظة أدركتُ أنني «فأر»، هكذا نطقها وكأنه يبصق، ثم سمعتُ آخر يهتف:

- هذا ليس فأرًا عاديًّا!

لا يكفي أنني لستُ بشريًّا، وأنني أنتمي إلى فصيلة الفئران، إذ اتضح أيضًا أنني لستُ فأرًا عاديًّا، يا لي من تعيس حظٍ لا أمل في أن يفرح! لم أفهم ما المختلف فيَّ عن باقي الفئران، إذ إنني لم أصادف فأرًا هنا، لم أكَد أفرح بعثوري على جنس المخلوقات التي أنتمي إليها، حتى صفعتني حقيقة أنني ما زلتُ مختلفًا.

وفي أحد الأيام الماطرة، بينما كنتُ أبحث كالملهوف عما أسُد به رمقي، اصطدمتُ بمنضدة موضوعة خارج مطعم تنبعث منه روائح ذكية، احتميتُ بها من المطر، أزدرد ريقي، يمزقني الجوع، فإذ بإحدى قوائم المنضدة متكئة على كتاب قديم، كدعامة تمنعها من الاهتزاز، خرجت منه أطراف صفحة ممزقة، لا يزال يُعلِّقها بالكتاب بقايا وفاء، وفي الجزء البادي منها وقعت أنظاري على صورة لمخلوق صغير يشبهني إلا أن جسده مُغطًّى بالفراء، لا أعرف القراءة، لكن لا بد أنه «الفأر» الذي ذكره الرجل الصائح، أدركتُ حينها أنني بالفعل مختلف؛ جسدي الأملس، جلدي المترهل، أنيابي الأمامية البارزة،

عيوني الصغيرة، وأنفي الأفطس، بعكس الفأر الوسيم المطل عليَّ من أطراف الصورة، كنتُ بجواره قبيحًا... قبيحًا جدًا!

أول مرة رأيتُ فيها وجهي صعقني المنظر، عظُمَ قبحي في عيني أضعافًا، كنتُ معتادًا على الوجوه البشرية، لذا بدا وجهي في عيني قبيحًا للغاية؛ قبيحًا إلى الحد الذي يجعلني أشيح به كلما مررتُ ببركة ماء، أو صادفتني في صناديق القمامة كسرات زجاج، أو سطوح لامعة.

لماذا أنا مختلف؟ وكيف أتيتُ إلى هذا البلد الذي لا يوجد فيه أمثالي؟ أين أبي وأمي؟ بالتأكيد لم أحضر إلى هذه الدنيا مزروعًا كالخَس، أو تحملني نسمات الريح كالغبار! لا بد أن ثمة رحمًا ونطفة من مكانٍ ما كانا سببًا في تكويني.

رحتُ أنفض التراب عن قطعة الخبز داخل جحري الصغير، آكلها بنهمٍ شديد بعد جوع استمر يومًا ونصف. لم تكفِ لإشباعي، ما زلتُ بحاجة إلى المزيد، قلبي يدق بعنفٍ داخل محبسه، لو خاطرتُ بالخروج الآن قد ينكشف مكان جحري، أو الأسوأ؛ الإمساك بي من طرف آدميٍّ، هؤلاء القساة الذين لا تأخذهم رحمة بضعيف، سيقتلونني في الحال، مهما أرجُهم وأقدِّم إليهم شُفعاء من مخلوقات الله كالرمال والسماء والشجر، وأُخبرهم أن قبحي ليس لي فيه حيلة، ولا أملك لإخفائه وسيلة، وأنني مخلوق لا خالق؛ لن يستجلب ذلك رحماتهم أبدًا.

ولو بقيتُ في مكاني فسأقضي الأجل جائعًا، خائبًا، وحيدًا، ذليلًا، وتلك ميتة لا ترضاها نفسي؛ انتظرتُ إلى أن حلَّ الليل، وبين عيونه الناعسة رحتُ أتنقل من مكانٍ إلى آخر بخفة وحيطة، أبحث عن أي شيء صالح للمضغ، لا يهم طعمه، ولا رائحته، يكفي أن يمتلئ به بطني الذي يقرصني بشراسة.

وفي تلك اللحظة، حدث ما كنتُ أخشاه كخشية الموت؛ أطبقَت يد بشرية عملاقة على ذيلي الصغير، أصابني الدوار بينما اليد تُديرني في كل اتجاه متفحصة، تلاقت عيناي الصغيرتان بعينين عملاقتين تمتلئان بالبغض، وكأنني قنبلة خلَّفت حربًا، أو سلاحًا أردى العالمين قتيلًا!

لمحتُ اليد العملاقة الأخرى تسحب سكينًا حادة أطرافه، وفي لمعة الجسم المعدنيِّ للسكين رأيتُ انعكاس وجهي القبيح الذي خلقني الله به لحكمة هو وحده يعلمها؛ رأيتُ على وجهي الذعر، والألم، والقهر، والغضب.

الموت قادم لا محالة، لكنني لستُ مستعدًا لملاقاته، لدي حلم لم أبلغه، وهدف لم أحققه، أريد أن أترك في هذه الحياة أثرًا يُدلل على أنني مررتُ منها، لا أريد ترك الدنيا قبل طبع بصمات قوائمي الصغيرة على وجهها، لا أريد أن أموت كمن لم يأتِ إلى هذه الحياة أصلًا، لا أريد أن أموت نكرة. كان هذا آخر ما فكرتُ فيه قبل أن يرتفع السكين إلى بطن السماء البعيدة، ليعود منهالًا بقوة تجاه جسدي!

***

(46)

فيبروميالجيا

صدِّق أو لا تصدِّق، لم أقِف على معلومات كثيرة عن هذا المرض، وكأنه ألم مُستحدَث أصاب الزمن المنهَك أولًا، ثم انتقلَت العدوى إلى الأبدان، كل ما عرفتُه أنه مرض غامض تسلل إلى أجساد البشر في غفلةٍ منهم، اضطراب مزمن يُسبب وهنًا عضليًّا واسع النطاق، يؤثر في معالجات الدماغ والحبل الشوكي، فيُضخِّم الإحساس بالألم.. الكثير من الألم.

أنا شخص أستهزئ بالعالم، وأتقزز من زيفه، أما المرض فإنه السلطان الذي أحني رأسي أمامه في تواضع، الآلة الضخمة دقيقة الصُنع وبديعة الخلق المسماة بالجسد، يستطيع فيروس صغير أو فطر حقير أو بكتيريا هزيلة أو هزة نفسية قاسية أن تقضي عليه، وتوقِف تروسه عن العمل.

كنتُ وما زلتُ أشعر بالإجلال أمام آلام الآخرين، بأنواعها النفسية والعضوية والنفسوعضوية؛ شعرتُ بنغزة في صدري، وضيق في نفسي، كلما تخيلتُ أن المرأة التي أشعر بها قريبة من نفسي كما لم أشعر مع غيرها، مصابة بمرض غامض يلسعها بسياط الألم.

منذ أن عرفتُ بمرضها أشعر أنني المصاب لا هي، حتى إنني صباحًا بينما كنتُ أقف أمام مرآة الحمام أُفرِّش أسناني؛ شعرتُ بغتةً بهجمة ألم، وكأن عظامي تحترق، وعضلاتي تفور، وجلدي تلسعه سياط غير مرئية؛ تُهيِّجه وتُقرِّحه، لم أستطِع الوقوف، خرجتُ مسرعًا لأنهار فوق الفراش غير قادر على الحراك، حركة بسيطة تُسبب لي آلامًا رهيبة، وكأنها سكرات الموت.

- ألن تذهب إلى العمل؟ هل ستتأخر هكذا كل يوم؟ المال الذي يُخصم من راتبك بسبب التأخير، زوجتك أولى به.. هيا انهض من الفراش!

وددتُ لو أصفعها، ثم أسحب ذراعها، وألقي بها خارج الغرفة، وأغلق الباب، العرق يتصبب من جبيني، والتنميل يأكل أطرافي، وبخاصة ذراعي الخيالية، لو كان الشر متأصلًا في نفسي لتخيلتُ الآن ميتة قاسية أو مصيرًا مفجعًا ينتظر زوجتي في نهاية اليوم، ثم أتغيب عن البيت لأيام مؤمِّنًا لنفسي حجة غياب، وعندما أعود سيكون الخيال قد نفّذ مهمته على وجهها الأكمل!

لا أستطيع القتل، وإن كنتُ سأخرج منها مثل الشعر من العجين؛ القتل هو الجريمة الأكثر قبحًا في تاريخ الجرائم الإنسانية، لا أستطيع تخيُّل قاتل لا يزال محتفظًا بإنسانيته، حتمًا يتحول إلى كائن آخر، لا هو بالإنسان ولا بالحيوان، على الصراط بين الجنسين؛ كائن مشوَّه يستحق أن يتجرع من نفس الكأس الخبيثة.

***

- لماذا الفأر؟!

مساءً في المكتبة الليلية، كتبَت لي أنها قرأت أول خمسة فصول من روايتي، ثم سألتني عن سبب اختياري للفأر كبطل لها. تعرَّق كفَّاي حماسةً، ورميتُ ابتسامة بلهاء على وجهي.

- ثمة رابط كبير بين الإنسان والفأر، وإلا أخبريني، لماذا تُستخدم الفئران في المعامل والمختبرات حين يود عالمٌ ما إجراء اختبار لمادة جديدة، أو دواء، أو مستحضر للتجمل؟ جسديًّا هناك آلاف الجينات المشتركة، التي تجعل من الفأر مرشحًا لأن يكون بديلًا مخبريًّا للإنسان، ونموذجًا مثاليًّا لدراسة أمراضه.
- وأنتَ ترى أن ثمة رابطًا نفسيًّا كذلك، أليس كذلك؟
- أو سلوكيًّا.. هناك خمس سمات كبرى تجمع بين الفئران؛ التواصل، الوعي، الضمير، العصبية، والانفتاح. هذه السمات بدرجاتها المختلفة تصنع شخصية فردية مميزة لكل فأر. لسنا وحدنا الذين نملك القدرة على الإحساس باللذة والألم، والخوف والأمن، الحيوانات أيضًا تفعل؛ فئران البراري -مثلًا- تشعر بالمواساة تجاه بعضها بعضًا، تشعر بالتعاطف، حتى إن أدمغتها تفرز هرمون الحب.. تتمتع بصفات فردية، بعضها مطيع ومعتدل المزاج، وبعضها متمرد يصعب السيطرة عليه.

- أنتَ تريد أن تقول إن فهم الحيوانات ودراسة سلوكها وقياس ردود أفعالها هي إحدى الطرق لفهم الطبيعة الإنسانية؟
- نعم، هذا ما أقوله، لذلك كما ترين، في بلدي لم نعد قادرين على فهم أنفسنا. بقتل الحيوانات فقدنا مرآة مهمة تنعكس فيها سلوكياتنا وقدراتنا، وغرائزنا، ونقاط ضعفنا.
- ولهذا السبب اخترتَ بطل روايتك فأرًا؛ حيوانًا لم يعد له وجود في بلدك؟
- للدقة هو الذي اختارني.
- كيف؟!

رحتُ أتذكر الأيام المُرة بينما أُخبرها بكل شيء عن غرفة الخفير، وسجني الذي امتد لثلاثين يومًا، والفأر الذي أطل من فتحة عالية بالجدار، ورافقني في أيام محنتي، ومساعدته لي في قرض الدعامة الخشبية، ثم موته المفاجئ بعد أن أتمَّ مهمته بتيسير أمر هروبي.

- إذن فأرٌ ما أنقذ حياتك، فقررتَ أن تكتب رواية محرمة، بطلها فأر.
- نعم، الفأر بطل روايتي يستطيع أن يفعل كل ما لا أستطيعه، حتى إنه يستطيع أن يفكر ويتمنى ويشتهي كما لم أجسر أنا، هل شعرتِ يومًا أنكِ مقسمة إلى اثنتين؟ شخصية جبانة، هشة، متبلدة، لا مبالية، لا تجسر على مواجهة العالم، وأخرى تتمنى لو تصير بطلة رواية؛ تخوض المعارك، تهزم الأشرار، وتفوز بالحرب والحب؟
- نعم، شعرتُ بذلك.
- أنا «صهيل» المقيد بالقوانين والخوف والجُبن، غير القادر على إحداث تغيير في هذا العالم، والفأر شخصيتي الأخرى التي أتمنى أن أكون.

انتبهتُ إلى أنني أخبرتُها باسمي غير عامدٍ. كتبَت:

- تقصد أن الفأر سيكون قادرًا على إحداث تغيير، كيف ذلك؟

ابتسمتُ، وكتبتُ بشكل غامض ومُحفِّز:

- لتعرفي إجابة ذلك، عليكِ الاستمرار في القراءة.

- أنتَ رجل مملوء بالمجاهيل؛ المجهول يثير الفضول بأكثر مما تفعل المعرفة!

شعرتُ بالإطراء، وبالكثير من الغبطة كوني قادرًا على إثارة فضول امرأة، شعور غريب ساورني بينما أعيد قراءة كلماتها الأخيرة مرات ومرات، رغبة في أن تتجسد أمامي، الكلمات وحدها لم تعد كافية. أتخيل أنني أصحبها معي إلى المكتبة الليلية، يدًا بيد، ننتظر في الزقاق الخلفيِّ التحام العقارب الثلاثة، نتشارك قراءة كل الكلمات الحائية من الكتب التي يأتي بها الحارس من القبو، نستدفئ ببعضنا بعضًا داخل إحدى الغرف المثلثة المنعزلة عن العالم.

وفي البيت أكتب لها روايات عن «الحلول»، و«الحظوظ»، و«التضحية»، و«الحساب»، و«الأحلام»، و«البحور»، و«السحاب»، و«الحمام»، و«الرحيق»، و«الحكمة»، و«الحشمة»، و«الحنان»، و«نياح الحرب»، و«حلم الحرية»، و«حرارة الحب». تكون هي قارئتي الأولى والوحيدة، نعيش حياةً في السر، والسر يعيش فينا، لا توجد حياة حقيقية بلا أسرار، كل ما هو خالٍ من الأسرار باهت، خامل، زائف، لا نفع له ولا قيمة.

***

يبدو أن خيالاتي الشريرة وحدها قابلة للتحقق، وإلا لوجدتُ الفتاة بجواري الآن بلمح البصر، تمامًا كما تخيلتُها.

- هل أخبركَ سرًا؟

تحفَّزت أعصابي، انتظرتُ بشوق بالغ لتبوح لي بما أخفَته عن غيري، وخصَّتني به وحدي:

- أنا أيضًا مقسمة اثنتين؛ واحدة لا تجد لنفسها مكانًا في هذا العالم، وكأنني عند توزيع الأماكن كنتُ غائبة، وعندما أتيتُ متأخرة لم أجد موضعًا يسعني، وأخرى تشعر أنها تمتلك سطوة الحلم، وقدرة الخيال، وعظَمة المعرفة، كأبطال الحكايات، مثل فأركَ الصغير الذي تمنى أن يكون في شجاعة أبو زيد الهلالي، وبصيرة زرقاء اليمامة، وذكاء علاء الدين، وقوة السندباد.

- أتعرفين؟ الحكايات درعنا الواقي من اليأس؛ لولا الحكايات لاختنقت فينا أنفاس الأمل.
- أنا أتعافى بالخيال، وبخاصة حين يشتد الألم. ذات صباح استيقظتُ، وكأنني قضيتُ الليل في معركة؛ ألم مستمر في الظهر، ينتقل من عضلة إلى أخرى؛ قدم.. حجاب حاجز.. كتف.. يد.. ذراع.. حوض.. عُقَل الأصابع.. فك.. رقبة.. ضلوع.. حلق، وكأن الألم في سباق محموم لتحصيل نقاط أكثر؛ لم أتمكن من القراءة، أو الإمساك بالقلم. أغلقتُ عينيَّ، وتخيَّلتُ أنني في حقل لافندر بسماء بنفسجية، وتُربة زرقاء، وشجر أحمر. تخيلتُ قدمي تغوص في الألوان، وفي كل لون تختبئ حكاية. رحتُ أتخيل شخوص قصة أبطالها ألوان؛ من أين تأتي الألوان؟ وكيف تتصارع، وتتمازج وتتنافر وتتماهى، ويُكمل بعضها بعضًا؟ قلتَ لي إنكَ صغير حسبتَ أن الأرقام أوجدها رجل أراد عَد شعيرات لحيته الزرقاء الكثيفة، وأن الأبجدية نشأت من مفاصل يد كاتب أراد أن يكتب لأول مرة. أنا حسبتُ أن الألوان وُلِدت من رحم الألم.
- الألوان مبهجة؛ تبعث على الفرح.. لماذا الألم؟
- الألم بوابة عالمية نعبر منها إلى جوانب أخرى من أنفسنا؛ جوانب بألوان لم نعرفها قط، ألوان كثيرة من القدرة على الاحتمال والصبر والدفع والاستشفاء، لم نحسَب أننا نملكها. عندما يمر إنسان من بوابة الألم لا يعود كما كان قبلها. يقول نيتشه: «ما لا يقتلني يجعلني أقوى». الألم هو المُنبه اليقظ لوجود خلل في الجسم أو النفس؛ الإشارة الحمراء التي تستدعي منا التوقف والفحص. تخيل حياتنا بغير ألم مثل تقاطع بغير إشارة مرور. لولا الألم الأرضي لما اشتهينا لذة الجنان... لما كافأنا الله بإنهاء الألم.

كان لما كتبَته وقْع مؤثر في نفسي، ترسم لي خريطة للألم، ترشدني إلى السهول والجبال والحقول والتلال، كل التضاريس التي لم أعرف أنها تختبئ في جوف الألم.

- هل تتألمين كثيرًا؟

سألتُها بينما شعور مُر يُحاك في صدري، لا أريدها أن تتألم، حتى وإن كان الألم بوابة الجنان.

- لا يؤلمني المرض بقدر ما يؤلمني أنني أعيشه وحدي، لا يفهم الناس كيف أعجز لليالٍ طويلة عن النوم، كيف تصيبني دوخة وعدم اتزان في الصباح.. حساسيتي من الضوء والصوت.. بكاء بلا سبب.. سخونة في أطرافي.. ألم في فكي يُعجزني عن الكلام.. تشوش الرؤية.. جفاف العين.. الإجهاد والإرهاق وانعدام الطاقة.. حالة هلع غير مبررة؛ لا يستطيع الناس أن يفهموا أن لديك ألمًا مستمرًا لا علاج له، يصاحبكَ وتتعايش معه. يحسبونكَ تكذب.. تُهوِّل.. تتدلل.. هذا يؤلم أكثر من المرض.. أن تكون في كل ذلك وحدك!

- لستِ وحدكِ.. أنا موجود.

قلتُها بأقصى درجات الصدق، حتى وإن لم يتحقق وجودي بمعناه الفيزيائي، حتى وإن كنتُ لم أرَها ولن أراها، حتى وإن كان يفصل بيننا حاجز غير قابل للاختراق؛ أنا معها، هكذا أشعر، وجود يخترق كل الحواجز المادية، يفوق ذاك الذي أشعر به مع «رفيق» أو زوجتي.

تحكي، فأقرأ كأنني أغوص معها في عمق ألوان الألم، بدرجاته المحتملة وغير المحتملة، أُلملم من شطآن الحكي أخشابًا متناثرة، أحاول أن أصنع قاربًا قادرًا على الطفو فوق الألوان.

رسمَت وجهًا باسمًا انعكست صورته على وجهي، وكتبَت:

- ☺ أعرف، أنتَ هنا من أجلي.

ألم يخلقنا الله لأجل بعضنا بعضًا، فنكون إما نعمة وإما ابتلاء؟ ألم يخلق الله الأشياء وضدها ليكتمل المعنى من الوجود؟ لماذا لا تكون هذه الفتاة إذن هي الخيال الذي خُلِقَ كي يستكمل واقعي؟ لماذا لا تكون هذه الفتاة هي حوَّائي المفقودة التي لم أعثر عليها طوال أربعين عامًا لا لشيء إلا لأنني كنتُ أبحث عنها في المكان الخطأ؟ لماذا لم يمر بخاطري أن أبحث عنها في كتاب قط؟

مسَّدَت أطراف أناملي أحرف كلماتها والنقاط، وكأنني أمسُّ وجهها بغير حواجز، أو كتفيها، أو كفَّيها، أشد عليهما علَّ الألم يسكن قليلًا، أو يتحول إلى لون قابل للاحتمال.

رسمَت لي بين الأسطر وجهًا آخر باسمًا! هل شعرَت بملمس أناملي على كفَّيها؟ هل استطعتُ أن أخترق الحاجز الذي يفصل بين عالمينا؟ هل عبرَت لمستي أزقة وحارات ومدنًا وبلادًا، بحرًا أو أرضًا أو جوًا، لتصل إليها في عالمها الذي يبعد عن عالمي مسافة قفزة خيال؟

أنا كاتب الظِل المحاط بكل زيف العالم وهشاشته، أشعر لأول مرة أن أناملي قد مسَّت شيئًا حقيقيًّا مُجسَّدًا تمام التجسيد، هل يمكن لمس الأحلام؟ الأفكار؟ الخيال؟ لو سألتني هذا السؤال قبل أن ألتقي بفتاة بين سطور كتاب لأجبتكَ: «حتمًا مستحيل!». الآن أعرف أن لا شيء حقيقيٌّ يسكن بلاد المستحيل؛ بلاد المستحيل خالية جوفاء، يُعمِّرها مخاوف الجبناء.

- كُن دائمًا هنا، لا تختفِ.. لا تنتهِ.. لا تكتب لهذه الرواية تتمة أبدًا.

لا أكتب تتمة؟ وكأنها منحتني مبررًا وجيهًا يتحقق به اختلاف هذه الرواية عما سواها، اختلافها في عدم اكتمالها، تُرى لو كتبتُ الفصل الأخير أينغلق الجسر الذي فُتِح بين السطور ليربط عالمينا؟ تُرى هل سيفسَد السحر؟ لا، لن أخاطر بذلك، لن أكتب لهذه الرواية خاتمة قط، سأتركها غير مكتملة، ففي نُقصانها تمامي.

- لن أختفي.. لن أنتهي.. لن أمسك بالقلم لأخط كلمة أخرى في هذه الرواية أبدًا. وأنتِ.. عِديني أنكِ ستظلين هنا.

- لا يمكنني الاختفاء حتى وإن أردتُ؛ أنا مُكبَّلة بهذا الورق.

ألقَت في نفسي شيئًا من الدهشة، مُكبَّلة بالورق! ماذا تقصد؟ لم أنتظر كثيرًا لأفهم، استطردَت سريعًا:

- هل رأيتَ من قبل مغناطيسًا يجذب حفنة من برادة الحديد؟ كيف يجمعه بعد شتات؟ كيف يوحِّد وجهته؟ كيف يُقرِّب ذرَّاته؟ لا تستطيع برادة الحديد الفكاك وإن أرادت؛ هكذا أشعر كلما تحدثتُ إليكَ عبر هذا

الورق. بين سطوره.. انجذاب لا يمكنني الفكاك منه، أحتاج إلى هدم نظام الكون لأنجح.

رفعتُ يدي اليمنى، وأرحتُها فوق صدري، في موضع المضغة التي لم أشعر بوجودها قبلًا، كانت تدق بقوة، واندفاع، وصخب، لم يزعجني ذلك، أنا الذي أبغض الصخب، تضخ الدماء في عروقي كما لم تفعل يومًا، وكأنها تكتشف طرقًا جديدة للمرور عبر خلايا جسدي. وكأن المرء يعيش ناسيًا قلبه، فلا يتذكره إلا حين يحب...

***

(47)

إغدراسيل Yggdrasill

عرف «مؤيد» من ملازمة «نداء» ساعات العمل في المشغل أنها فتاة كتومة جدًا، بارعة في غزل الصمت، وماهرة في بناء الجُدر بينها وبين الجميع، راقبها بينما تتعامل مع عملائها بودٍ ورفق، وفي الوقت ذاته تضع مسافة غير قابلة للتخطِّي، تمامًا كما تتعامل معه.

هيَّأ له هذا فرصة العمل على استنطاق صمتها، فلا شيء يساعده على فهم الآخرين سوى مراقبتهم في أثناء العمل، كثير من خصال المرء تتبدَّى للعيان أوقات الانشغال بالعمل؛ مثلًا: أدرك أنها تميل إلى النظام، والدقة، وأن مهارتها في الإمساك بالريشة وبعثرة الألوان تشي بثقتها بنفسها، فهم كذلك أن الصمت الذي تعاقره هو طبع متأصل فيها، رغم أنه يستطيع بجلاء تشمم الخوف ينبعث من زوايا هذا الصمت المتين؛ خوف من انزلاق كلمة تكشف المستور. يثق كثيرًا بمهارته البوليسية التي تدفعه الآن للشك في أن الفتاة معجونة بالأسرار من رأسها إلى أخمص قدميها.

***

لم تكن مهمته في المشغل صعبة، فعندما أخبره شيخ المنطقة أن «نداء» تفتش عن نجار يساعدها في صناعة الأطُر أَفتَر ثغره عن ابتسامة ظفر، كان يجيد النجارة منذ الصغر، يستمتع بصناعة مجسمات صغيرة من الخشب؛ بيوت، سيارات، مكاتب، أفراد شرطة ومجرمين، يمضي وقته في خلق صراع عنيف بينهما ينتهي بفوز العدالة، وأيضًا صنع الكثير من الأطُر.

يتذكر أول إطار صنعه، ووضع فيه صورة أمه، ثم قدَّمه لها في عيد مولدها، تذكر ابتسامتها المشعة وذراعيها اللتين تطوقانه بقوة، يخترق

الذكرى الجميلة صوت الأب الناهر لما تفعله الأم، الذي يرى أن العناق دلال زائد يُفسد المرء، ويجعله أكثر هشاشة، ولم يُرِد لابنه أن يكون ضعيفًا مهزوزًا مفعمًا بالمشاعر. شعر بغصة مؤلمة، يطرق الشوق أبواب صدره، ويُذكره بوجه أمه وصوتها وبسمتها وعبيرها، وكلماتها التي كان يختلف مع كثيرٍ منها، رغم ذلك يفتقدها... وبشدة.

- أنتَ ماهر جدًا.

أخرجه صوت «نداء» من شروده، تطلع إلى أمارات الإعجاب على وجهها بانزعاج، لأنها داهمَت جلسته الخاصة التي يستعيد فيها ذكرياته عن أمه، كان في مزاج عكِر، جاهد ليبدو صوته عكس ذلك:

- أعجبتُكِ؟

- بالطبع أعجبتَني، أنتَ ماهر أكثر مما تبدو.

رفع رأسه صوبها متسائلًا، طاف الارتباك فوق وجهها، والتردد، قبل أن تقول:

- لم يبدُ عليكَ أنكَ تفهم كثيرًا في هذه الأمور، ظننتكَ كذبتَ على شيخ المنطقة لتفوز بالعمل... أعترف أنني أخطأتُ في ظني.

- إن كنتِ ظننتِني بلا خبرة، فلماذا قبلتِ أن تُشغِّليني لديكِ إذن؟

- كنتَ تبدو يائسًا!

أربكه ذلك، بالطبع لم يشعر باليأس لأجل العمل عندها، لكن في الوقت الذي كان يقف فيه على عتبة مشغلها كان يشعر باليأس من فك رموز القضية، لذا بدا متعجبًا من استشعارها لهذا اليأس الذي كان يطوف بداخله.

- ألهذا السبب وافقتِ فورًا دون اختباري؟

- نعم، أردتُ أن أعطيكَ فرصة، ولقد كوفِئت الآن على ذلك، فأنتَ أمهر من كل العمال الذين أتوا إلى هذا المشغل.. والأسرع كذلك.

هذا آخر ما تبادلاه من كلمات قبل أن تنغمس في الرسم مرة أخرى، وتوليه كل ما تملكه من لا مبالاة.

***

عرف أن الفتاة لا تتعيَّش من رسم وجوه المجرمين بالرماد فقط، بل تعمل أيضًا في بيع الأعشاب. كان نهارًا صافيًا؛ الشمس تتهادى في كبد السماء، وتُرسل لهما أياديها بالنور والدفء، عندما أخبرَته:

- سأتغيب بضع ساعات لجمع الأعشاب من الغابة.

وقتها عرف أنها تبيع الأعشاب عندما تتباطأ وتيرة العمل، وأنه العمل ذاته الذي كانت تفعله أمها قبل خمس سنوات. وجدها «مؤيد» فرصة مثالية لقضاء وقت أطول مع «نداء»، لا من أجل توطيد العلاقة بينهما فقط، بل لأجل أن يعرف الأماكن التي تتردد عليها عادةً، فعرض مساعدته قائلًا:

- أنا أيضًا انتهيتُ من أغلَب أعمال اليوم، كنتُ أود كثيرًا أن أزور الغابة، لكن لم أجد فرصة مواتية.
- ألم تُخيِّم بها قط؟
- كنتُ منغمسًا في العمل أو التفتيش عن عمل. أسمع أنها مكان مخيف بعض الشيء.

هزَّت كتفيها بلا مبالاة قائلة:

- كلا، ليست مخيفة، الناس تخشى المجهول. ربما لهذا السبب يراها البعض مخيفة، لكن إن دخلتَها مع مرشد جيد يعرف كل شبر فيها، فستمضي وقتًا ماتعًا.
- هل يمكنني مرافقتكِ إذن؟ لا مرشد عليم بالغابة خيرٌ منكِ هنا.

تطلعَت إليه لوهلة دون أن تُبدي ما يجول بخاطرها، فسارع يقول:

- يعني بإمكاني مساعدتكَ، فتنتهين من العمل بسرعة أكبر. ما زال لديكِ هنا الكثير من الأعمال التي يجب تسليمها اليوم.
- كان أخي يساعدني عادةً في جمع الأعشاب من الغابة.
- بالمناسبة كيف هو الآن؟
- أفضل كثيرًا، زرتُه قبل أن آتي إلى المشغل، وسأعاود زيارته في المساء. لا يوافقون على أن تطول الزيارة أكثر من ربع ساعة نهارًا ومساءً، ولا يوافقون على إخراجه. لا أفهم السبب رغم أنه تعافى من الصدمة!

- الأطباء أكثر خبرة بالتأكيد؛ إن رأوا وجوب بقائه في المشفى، فهذا ضروريٌّ إذن.

قالت بأسى ظاهر، وبضيق لم تُخفِه نبراتها:

- هذا يزيد من فاتورة المشفى؛ كل يوم إضافيٌّ يتطلب دفع مال أكثر!

ثم أردفَت بتصميم:

- يجب أن أُسرِّع وتيرة العمل؛ يجب أن أجني مالًا أكثر.

لم يشعر بالسوء كونه يضعها في مأزق؛ يفعل ذلك في سبيل هدف سامٍ، ولن يشعر بالأسف أنه يفعل. انتهز «مؤيد» الفرصة مسارعًا:

- لهذا دعيني أساعدكِ.

بدا أن تفكيرها الذي طال سينتهي برفضها، لكنها قالت أخيرًا بابتسامة رائقة:

- فلننطلق إذن.

***

يعرف كل شبر في الغابة، تقافزت الذكريات أمام عينيه في المواضع التي اعتاد فيها التخييم، بمفرده أو مع أصدقائه، كان من عادة البيت أن يكون مُلغَّمًا بالصراعات بين أبيه وأمه، شجارات لا تنتهي، صراخ وبكاء، والكثير من الألم، ولم يكن «مؤيد» ذا قدرة على تكبُّد الألم؛ كان يهرب، يُفضِّل الهرب على المواجهة، والتغافل على الإدراك، يهرب من الإدراك، لأنه إن أدرك سيكون مُلزَمًا برد فِعل يستلزم التغيير، وما كان بإمكانه أن يغير شيئًا؛ لا قسوة أبيه ولا أوهام أمه، كلاهما يعيش في عالم منفصل عن الآخر، ولا سبيل لتلاقي العالمين.

- من هنا أجمع اللوتس، هل ذقتَ شاي جذور اللوتس من قبل؟

كعادتها في الإغارة على أفكاره وانتشاله منها، أخرجَته من شروده، فأجاب باقتضاب وانزعاج فشل في مداراته هذه المرة:

- كلا.

- رائع، أوصيكَ به.

ظنَّها ستكتفي بذلك كعادتها في الرد عليه في أثناء عملهما بالمشغل، لكنه وجدها تستطرد بينما يتوجهان قرب نبات اللوتس لجمع بعضه:

- يمكنكَ أن تنقع الزهرة نفسها، أو تغلي جذورها في ماء ساخن؛ مفيد للبشرة، ويساعد على إنقاص الوزن. تداوم النساء على شرائه مني، ويُفضِّلنه على منتجات التجميل الاصطناعية.

لم يكن يدخِّر ذرة اهتمام لا للوتس ولا لفوائده، رغم ذلك قال:

- جيد.. تعرفين إذن من أين تُؤكَل الكتف.

اتسعت ابتسامتها، وهي ترمقه قائلة:

- عندما تكون مجبرًا على رعاية طفل صغير، تضطر إلى أن تتقن طرق عديدة لكسب المال.

- كان أبوكِ تاجرًا، أليس كذلك؟

لم يدرك «مؤيد» وقوعه في خطأ كشف معلومة لم تخبره بها إلا عندما توقفت عن جمع زهور اللوتس وقالت:

- لماذا ظننتَ ذلك؟

توقف، استدار إليها، واستدرك خطأه سريعًا:

- لأن عادةً ما يكون ابن التاجر ماهرًا في التجارة نظرًا إلى ملازمته لأبيه، وتشرُّب الخبرة على يديه.

- أصبتَ.

قالتها ولم تزِد، فالتزم الصمت بدوره مخافة الانزلاق في خطأ جديد، راقبها وهي تنتقل من شجرة إلى أخرى، تعرف موضع كل نبتة واسمها، وكأنها هي نفسها جزء من هذه الغابة، وكأنها شجرة أو نبتة بدورها، تمد جذورها في تربتها، وترفع هامتها صوب سمائها، وكان لفستانها الأخضر عظيم الأثر في تأجيج هذا الشعور بداخله.

- تعرفين الغابة جيدًا.

- تربيتُ فيها؛ كنتُ وأمي نتعاون على جمع النباتات من أرجائها. الغابة أجمل ما في هذا البلد.

- ألهذه الدرجة تستمتعين بها؟
- ليس استمتاعًا بغرض قضاء الوقت، بل متعة أخرى مغايرة.
- كيف؟
- في الغابة لا تسمع ضوضاء الناس؛ تخرس كل الأصوات، فلا تسمع إلى أصواتك الداخلية فقط، هل تعرف لماذا يكون الناس أقل تخبطًا وتشوشًا كلما تقدم بهم الزمن؟
- لأنهم ينضجون. الناس في شبابهم فائرون ثائرون، والزمن يطبخهم على نار الصبر، فينضجون.
- الزمن لا يطبخ الناس؛ الزمن يأكلهم بلا هوادة. الذي ينضجهم فعلًا هو التأمل والإصغاء. في الشباب يكون المرء متمردًا، لا على الناس فقط بل على نفسه كذلك، ينجذب إلى الضجيج؛ ضجيج الأصوات والعطور والألوان، فتقل قدرته على سماع أصواته الداخلية، وكلما تقدم به العمر يتعلم كيف يُسكِت الضجيج، أو لعله يخبت من تلقاء نفسه، فيسمع، ويتعلم.. وينضج.

تلا نقاشهما صمت طويل لم يجرؤ أيٌّ منهما على بتره؛ صمت دفع بكليهما صوب دروب التأمل والإصغاء، رغم أن «مؤيد» قد خيَّم في الغابة عشرات المرات، فإنه لم يتوقف لوهلة كي يصغي إلى الأصوات التي تنبعث من داخله، كان يهرب، ليس فقط من بيته وأبويه ومشكلاته، بل من نفسه وتساؤلاته ومخاوفه، من فضوله عن البلد والناس عندما كان ابن الأبجدية الملعون غير ملعون، هل فعلًا كان الوضع بهذا السوء؟ هل كل شيء وقع كان بسبب ابن الأبجدية ذاك؟ ماذا لو وقعت كارثة بسبب رقم أو فاصلة؟ هل نزْعها من كتاب الكون كافٍ لضمان عدم تكرار الكارثة؟ هل تُلام الأرقام، أم الموجِّه لها، أم المستخدِم، والمستفيد؟ لماذا تعاقَب المخلوقات والجمادات والرموز على أخطاء البشر؟

سبَّ الفتاة في سره، ولعن التأمل والإصغاء الذي كاد يدفع به صوب دوامات الشك في القوانين التي يؤمن بها.

***

يسيران بتؤدة تجاه شجرة الدردار التي وقعت عندها جريمة القتل، ينتظر بصبر صياد ماهر وصولهما إليها، كي يثير الكلام عن الواقعة، ويستجلب المعلومات التي تختبئ في جعبتها. قبل الوصول إلى الشجرة المرصودة بوغِتَ بها تسأله:

- هل تعرف الإغدراسيل؟

شعر كمن يجد نفسه داخل اختبار مفاجئ، لم تُذكِّره الكلمة بشيء لوهلة، بدت غريبة على أذنيه، ثم تتابعت المعلومات على عقله بصوت أمه الشغوف بعالم القصص والأساطير، تُمسِّد شعره، وتخبره عن الإغدراسيل وعوالمها التسعة. لا بد أن «نداء» قد وجَّهت هذا السؤال لآخرين غيره، وغالبًا لم يعرف أيٌّ منهم ما تعنيه الإغدراسيل، فهم ذلك إذ رأى الدهشة تتسوَّر عينيها عندما قال في أثناء سيره مسترسلًا بغير اكتراث، وكأنها معلومات عادية يعرفها الجميع:

- الإغدراسيل شجرة رماد شديدة الضخامة من أساطير الفايكنج، تجسد تصورهم عن الكون. تمتد فروعها إلى السماء البعيدة، وتنتشر في جميع أرجاء العالم، بينما جذورها الثلاثة تغوص في الآبار.. هكذا تصوَّروها. يعيش بداخلها مخلوقات كثيرة؛ كائنات طهَّرنا بلدنا منها، كان يأكلها الإنسان أو يركبها أو يستأنس بها، لكن تلك التي تعيش في شجرة الإغدراسيل الأسطورية لم تكن كائنات عادية؛ تتمتع بصفات فوق الطبيعية، ثعابين وتنانين وصقورًا ونسورًا وسناجب، وأظن أيضًا فئرانًا.

بدت متفاجئة بشدة، وسعيدة كذلك، اتسعت ابتسامتها تلقي بسؤال آخر:

- وهل تعرف مصير الشجرة؟
- أن تأكلها النار في نهاية العالم، يُشعلها من يُسمُّونه بـ «إله الشُعلة»، وعندئذٍ سيغرق العالم كله في الماء.

انتظر «مؤيد» أن تخبره بالسبب الذي دعاها للكلام عن شجرة الرماد العملاقة التي ابتدعها خيال الإسكندنافيين، فلما لم تُبيِّن السبب طالبها به. قالت بينما يسيران رويدًا، وكأنهما في نزهة خلوية، يفصلهما عن شجرة الدردار خطوات قليلة:

- يُقال إن الشجرة تقع في منتصف الكون، وإنها مقسمة من الداخل إلى تسعة عوالم مختلفة تعيش فيها مخلوقات متباينة، لذلك تسمى الإغدراسيل بشجرة العالم، ولكي ينجو الكون من صراعاته العنيفة ستأكله ألسنة اللهب، ثم يُعاد خلقه من جديد. النار دائمًا ما كانت تثير فضولي في هذه الأسطورة، وكأنها أداة للموت والبعث في الوقت نفسه.
- أستطيع أن أتفهم ذلك، فالنار عندما قضت على بلدنا القديم بمشكلاته وصراعاته، أنشأنا بلدًا جديدًا أكثر قدرة على الصمود أمام جميع العقبات.
- هل تظن هذا فعلًا يا «عامر»؟

توقفَت تُلقي عليه سؤالها بانزعاج، فتوقف بدوره، والتفتَ صوبها يسألها بدهشة:

- هل ترين شيئًا آخر؟
- أرى أننا أنشأنا فوق الركام بلدًا من ركام، عاصفة صغيرة قادرة على هدمه، وشرارة هزيلة كافية لإشعال النار!

شعر في أعماق نفسه أنه لو كان يواجهها الآن بصفته «مؤيد» لا «عامر»، لساقها فورًا إلى مركز رقابة الأبجدية، ولأخضعها لاستجواب صارم كافٍ لأن ينتزع كل تلك الخزعبلات من رأسها، لن يدعها تفلت بغير عقاب، لكنه لن يخاطر بإفساد كل شيء الآن، ظن أنها تعرف الكثير، وها هو يجد نفسه مصيبًا في ظنونه. داهنها قائلًا:

- قد تكون نظرتكِ صائبة، لكنني لا أجد سببًا كافيًا لإقناعي بأن شيئًا في بلدنا لم يتغير. انظري في الأرجاء.. هل تسمعين صوت طلقات نارية؟ هل تشعرين بالتهديد ما لم ترتكبي جريمة لها علاقة بابن الأبجدية؟ ألا ترين السلام؟ ألا تشعرين بالأمان؟

ارتسم تعبير صارم فوق وجهها، وهي تقول هازئة:

- أي سلام؟ أي أمان؟ هل أُخبركَ ما أرى؟ أنا أرى قنابل موقوتة تنتظر من ينزع فتيلها لتنفجر في وجوهنا جميعًا!

كان الغضب قد بدأ في التسرب عبر مسامه بالفعل؛ غضب لم يستطِع إخفاءه، وهو يسألها باندفاع:

- أي قنابل؟ تعرفين أن مثل هذه الأشياء ممنوعة تمامًا الآن. إن كنتِ تعرفين أن شخصًا ما يملكها عليكِ أن تبلغي شرطة رقابة الأبجدية فورًا، وإلا تعرَّضتِ أنتِ أيضًا للمساءلة القانونية.

أفاقها تعنيفه من الاسترسال في كشف أفكارها، وما يطويه صدرها، فاغتصبت ابتسامة هزيلة فشلت في ترك الأثر المطلوب، وهي تقول:

- لا عليكَ، أنا أهذي عندما أكون متوترة؛ عقلي عند أخي، لا أستطيع التفكير بمنطق الآن، لكنكَ مصيب؛ إذا رأيتُ قنبلة سأبلغ مركز رقابة الأبجدية على الفور.

قالتها وتقدمت خطوات أكثر من شجرة الدردار، ولسببٍ ما رآها تتوقف عندها، تنظر إلى موضعٍ ما عند جذعها الضخم، تتبَّع موضع نظراتها بدقة جنديٍّ ماهر يسعى لإيقاع عدوه في الفخ، وعندما رأى موضع نظراتها هزَّته الدهشة. عند الجزء السفليِّ لجزع شجرة الدردار تخرج القليل من النباتات الخضراء التي تتجمع مُشكِّلةً ابنًا للأبجدية، لكن ليس أي ابن، إنه ابنها الملعون!

تساءل في نفسه عن خيانة الشجرة: «هل حدثت من تلقاء نفسها، أم أن للفتاة يدًا خفية في ذلك؟».

قالت «نداء» بغموض، وهي تنظر في عمق عينيه، قبل أن تدور على أعقابها استعدادًا للرجوع من الطريق التي أتيا منها:

- بالمناسبة، الإغدراسيل في الأسطورة كانت شجرة دردار عملاقة.

نظر بمهابة إلى فروع الشجرة الضاربة إلى السماء متسائلًا: «هل يعيش فيها بعض الكائنات الخارقة القادرة على إشعال النار؟ أيكون فرد من هذه الكائنات هو مشعل النار؟!». تذكَّر بغتةً معلومة أخرى أخبرته بها أمه عن معنى الكلمة: «إغدراسيل تعني «الفرَس المخيف»». انتقلَت ذاكرته إلى اليوم الأخير الذي رأى فيه أمه عندما أمسك بها بالجرم المشهود، يومها قالت شيئًا عن البيادق التي لا تقوى على شيء، والفرَس القادر على صنع التغيير!

لا يعرف ماذا يعني كل ذلك، لكن ما بات واثقًا به أن جواب بعض الأسئلة المستعصية كانت -مع الأسف- في جعبة أمه. أخرج من جيب معطفه زجاجة رمادها، واعتصرها بين قبضته بقوة.

***

(48)
نار لا تشبع

اندفع «مؤيد» صافعًا باب غرفة الاستجواب، ودالفًا إليها بشكل دراماتيكي، تعمَّد أن يثير به الرهبة في نفس الرجل البغيض الجالس على المقعد الثاني أمام الطاولة الخشبية. وكما تصاعد بداخله انزعاج مقيت للشبه الذي تشي به قسمات وجهيهما في لقائهما الأول، وقع الشيء نفسه في لقائهما الثاني.

جذب «مؤيد» المقعد، وجلس فوقه بهدوء يتنافى مع دخوله العاصف إلى الغرفة، راقب يدَي «صهيل» المتعرقتين، وهما تنتقلان من شعره إلى ملابسه؛ يضبط الأول، ويُهندم الثاني سعيًا لإخفاء توتره. بادره «مؤيد» بنبرات جافة:

- كل لقاء بيننا بجريمة مختلفة.. ها! الأولى قطْع في الرقبة بالخنجر، والثانية تقطيع جسد كامل، وتعبئته في علب السردين. عليَّ أن أعترف لكَ أنها طريقة فريدة في القتل لم أصادفها قبلًا، لكن يثير فضولي أن أعرف ماذا فعلتَ بالجمجمة والعظام؟ أظن أنك ستنكر هذه المرة أيضًا أن لكَ علاقة بالواقعة!

نفى «صهيل» بصوت مرتجف تُمزقه اللوعة:

- أنا لم أفعل.. لا الأولى ولا الثانية!

ابتسم «مؤيد» متجاهلًا إنكاره:

- لم يخِب ظني؛ أنتَ أغبى من أن تعترف بسهولة!

ثم أزال البسمة، ومال بجسده فوق الطاولة قائلًا بشراسة:

- لا جريمة كاملة، لكل قاتل مهما يكن ماهرًا ثغرة تقودني إليه، وكلما ازدادت جرائمه كثُر خطؤه، وسهل الإيقاع به.

فكَّر «صهيل» أن السكوت لن يفيده هذه المرة، هذا الشرطي مقتنع تمام الاقتناع أنه القاتل، ومع الوقت يزداد جشعه في إيجاد دليل إدانته، ربما يكون بالفعل هو القاتل، لكن ما من وكيل نيابة بإمكانه توجيه تهمة القتل العمد بالنية، ما من قاضٍ عادل بإمكانه إيقاع عقوبة على مجرم ارتكب جريمته بسيف الخيال.

تردده وشروده واضطراب قسماته دفعوا «مؤيد» للتأكد من أنه متورط في الجريمتين معًا، فقط لا يمكنه تخمين كيف نفّذ كلًا منهما بهذه الطريقة غير القابلة للكشف، كيف خدع الطب الشرعيَّ الذي أثبت في الجريمة الأولى أنها حدثت بيد السيد «ك» نفسه، وأثبت في الثانية أن الأداة المستخدمة في تقطيع العامل لم يُرَ مثل دقَّتها وفاعليتها إلا في الأجهزة الليزرية؟! من غير الممكن أن تكون قد حدثت بطريقة يدوية، ما لم تكن يد هذا الرجل خارقة للطبيعة!

كيف تمكَّن إذن هذا العامل البسيط الجالس أمامه من تنفيذ الجريمتين؟ هذا ما شغل تفكيره، العجز الذي شعر به دفعه في بئر الغضب، أراد أن يُخرِج من جيب معطفه صورة، فجذب جميع ما فيه، ووضعه فوق الطاولة، فرش فوق الطاولة أمام «صهيل» صورة للسيد «ك» في مكان الجريمة، وأخرى لبقايا العامل المقتول، وهتف مُعنِّفًا:

- لا فائدة من الإنكار؛ أنت من فعل هذا بالرجلين، لم يبقَ سوى القليل على إثبات أنكَ القاتل. لو اعترفتَ ستنال عقوبة مخففة، لديكَ زوجة تنتظرك...لا تكن غبيًا!
- لا أفهم.. الجريمة الثانية ليس لها علاقة بمركز رقابة الأبجدية، بل بمركز جرائم القتل، وقد استجوبني الضابط المُكلَّف بالقضية بالفعل، فلماذا تستجوبني أنتَ الآن؟!
- لأنني أثق بأن لكَ علاقة بالجريمتين، أعرف هذا مثل اسمي؛ لا أؤمن بالصدف. وقوع جريمتين عجيبتين في مكانين وزمانين متقاربين، يجمع بينهما عامل مشترك هو أنتَ؛ كافٍ ليدفع بي إلى الاعتقاد أنك القاتل الذي أفتش عنه.

لم يستقر العجز في نفس «مؤيد» فقط، بل نال من «صهيل» كذلك، واعتصره في قبضته، نظرات خاطفة إلى الصورتين أصابته بالغثيان، كادت

دفاعاته تنهار، ويعترف أنه قتلهما بمعاونة مردَة الخيال، لولا أن استرعى انتباهه صورة ثالثة، خرجت من جيب «مؤيد» مع ما خرج منه.

انتبه «مؤيد» إلى نظرات «صهيل» المركزة فوق صورة أمه، أمسك بها، تأملها وكأنه يراها للمرة الأولى، ثم تساءل بقلق:

- لماذا تنظر إليها؟

- من أين تعرفها؟ لماذا صورتها معك؟

أجاب «صهيل» سؤاله بسؤال، فاندفع «مؤيد» يقول:

- أنا من أسألكَ، هل تعرفها؟

- نعم.

قالها «صهيل» بعد ثوانٍ من التردد، كتم «مؤيد» دهشته في نفسه متسائلًا:

- من أين تعرفها؟

- لا أذكر.

أجاب وهرب بعينيه؛ كيف يخبره أن المرأة في الصورة هي نفسها التي التقاها ليلة أن هرب من بيت السيد «ك»، واكتشف باب المكتبة الليلية، هناك في ظلام الزقاق الخلفيِّ وقذارته، سقَته، وأطعمَته، ودثَّرَته من البرد دون أن يعرفها أو تعرفه. كما الروايات؛ أسباب تقود إلى نتائج، ونتائج تتجهَّز لها الأسباب!

أدرك «مؤيد» أنه يكذب، ولا يعرف ما الذي أغضبه أكثر؛ كذب الرجل أم كونه يعرف أمه، كاد يهتف به أنه كاذب أفَّاق، لولا أن قطع مساعده الاستجواب، واندفع صوب الغرفة قائلًا بأنفاس لاهثة:

- سيدي، ثمة جريمة أخرى؟ القائد يطلبكَ في موقعها الآن.

التفتَ إليه «مؤيد» منزعجًا، كان يرغب في أن يضيِّق الخناق على «صهيل» إلى أن يعترف بما يُخفيه، ولا يمكنه استبقاؤه في المركز بلا تهمة موجَّهة، فضلًا عن أن جريمة المصنع -كما قال- لا تخضع لسلطة مركز رقابة الأبجدية. أجاب المساعد بفزعٍ عن سؤال لم يُسأَل:

- اشتعل رجل آخر، من الداخل إلى الخارج، تمامًا كالرجل الذي وجدناه عند شجرة الدردار!

***

مصنع الكلمات

«بعض الكتب يمكن تذوقها، والبعض الآخر يمكن ابتلاعها، والقليل منها تُمضَغ وتُهضَم».

فرانسيس بيكون

أستيقظ كل يومٍ أحمد الله أنني لم أمُت تلك الميتة الذليلة، وأنه منحني أنفاسًا أخرى لأستمر، وألا أموت قبل أن أحقق حلمي، وأترك في هذه الحياة آثار قوائمي الأربعة. الآن بات لدي خطة واضحة؛ سأصيب بني آدم بالمرض! سأُلوِّث دماءهم، وأشعل نيران الألم في أجسادهم، سأصفع ظهورهم بسياط الوهَن، وأتركهم يتلوون صارخين في الطرقات، سأصيبهم بأشرس الأمراض، وأشدها خبثًا واستنزافًا. أنا فأر قبيح لا يحبه أحد، سأتصرف إذن كما تفعل الفئران القبيحة التي لا يحبها أحد!

بالقرب من الجُحر الذي أعيش فيه ثمة مكان يعج بالأنَّاتِ والآهاتِ، يأتيه الناس محمولين على أسِرَّة متحركة، أو متكئين على أذرع أقرانهم وذويهم، يصرخون ويتأوَّهون، ويتقيؤون وينزفون، يحيطهم رجال ونساء بمعاطف بيضاء، وأجهزة تبدو كأدوات تعذيب، يمكثون ساعاتٍ أو أيامًا، ثم يخرجون سائرين على الأقدام، وكأن شيئًا لم يكن، وبعضهم لا يخرج أبدًا، بدلًا منهم تخرج توابيت خشبية، ربما تُخفي بداخلها حُلُمًا مجهضًا، أو بقايا أمنية.

عندما كنتُ جائعًا قبل أيام، لم أجد صندوق قمامة واحدًا بمعزل عن بني آدم؛ يزاحمني أفقرهم على الفضلات العفنة التي يتخلص منها أغناهم، لم أجد بُدًا من أن أدخل هذا المكان الذي يعج بالمعاطف البيضاء، عبر إحدى المواسير التي تربط كل طابق بالذي يليه، ومن فسحة في شباك دورة المياه قفزتُ إلى الداخل، لم أعثر على طعام، ولا فضلاته، فقط دماء وصديد وقيء ووسَخ.

في إحدى الغرف بشعة الرائحة، كان ثمة ورقة ملقاة أرضًا، اختطفتُها، ثم تواريتُ بها سريعًا في جُحري، لم أكن قد أكلتُ الورق قبلًا، إنها المرة الأولى التي أفعل، كنتُ أبحث عن أي شيء قابلٍ للمضغ، وكان الورق هو خياري الوحيد.

بدأتُ في قضم قطعة صغيرة جدًا، مذاقها كالموت، بعد قليلٍ من لوكها بدت عجينية الملمس في فمي، كدتُ أبصقها لولا ربَّة الجوع التي تربَّعت على عرش بطني مُحذِّرةً إياي أن أفعل؛ ابتلعتُها دفعة واحدة. القضمة الثانية لم تختلف عن الأولى، ولا الثالثة، ولا الرابعة، أما الخامسة فكانت عجيبة حقًا! لم تكن تلك القطعة الورقية الصغيرة فارغة كسابقاتها، بل مكتوبًا فوقها كلمة رصاصية بخطٍ رديء متعرج، لم أفهمها عندما نظرتُ إليها قبل وضعها في فمي، فأنا لا أُحسِن القراءة، لم يعلمني أحد، قرضتُها ببطء، فشعرتُ بالكلمة تُفرَز داخل تجويف فمي، وتختلط بعصارته!

«ليس».. تلك كانت الكلمة التي لُكتُ أحرفها، وطحنتُها بأسناني.. «ليس».

توهَّجَت الكلمة داخل فمي، وعندما ابتلعتُها شعرتُ بها تسري في خلايا جسدي كله، لا بطني فحسب! وكانت تلك المرة الأولى التي آكل فيها إحدى الكلمات، تجربة عجيبة لا يمكن وصفها، شعرتُ أن حروف الكلمة: «ليس»، تتردد داخل ذرات تكويني كما الأصداء، وكأنني صرتُ معجونًا بتلك الكلمة التي تُعبِّر عن نفي الحال، والتي يُستثنى بها الأشخاص والأشياء، ومن زوايا عقلي أُضيئَت كل «الليسات» المسموعة والمنطوقة التي صادفتُها يومًا.

تجربة فريدة، لذا لم أتردد في تكرارها، قرضتُ قطعة صغيرة أخرى، وهذه المرة شعرتُ بكلمة «له» تمتزج بلعاب فمي، ينزلق الضمير عبر بلعومي، ويمتزج بكل كياني. الضمير.. الغائب.. الملكية؛ شعرتُ بهذه المعاني تتوهَّج بداخلي، كأنني أكتشف للمرة الأولى معنى الضمير، والغياب، والامتلاك.

وعندما قضمتُ الثالثة، وجدتُني أتذوق كلمة «علاج»، ومنها تصاعدت أبخرة الألم والأمل، كم كان هذا عجيبًا، أن يذوب معنيان متضادان في بحر كلمة واحدة، ما من علاج إلا وله داء يُطبِّبه، لكن بعض الأدواء لم يُخلَق لها علاج، ما علاج القبح مثلًا؟ أيمكن لأيٍّ من أصحاب المعاطف البيضاء إيجاد

دواء أرشفه على جرعة واحدة أو جرعات، ليوم واحد أو سنوات، قادر على شفائي من قُبح المنظر، يمكنني من أن أصير في نظر العالمين لطيفًا جميلًا؟

«ليس له علاج».. هذا ما أكلتُه يومها، ثم توقفتُ مخافة أن تصيبني أكل الكلمات بالتخمة، وفي اليوم التالي سرقتُ قصاصات أخرى من بيت الداء، أكلتُ كلمات جديدة، ومنها فهمتُ أن الناس لا يهابون شيئًا كالمرض؛ إنه الوحش الذي يهربون من ملاقاته أكثر من الموت ذاته، لا قِبل لهم على محاربته، المرض هو الشيء الوحيد القادر على استجلاب احترامهم. لهذا كله قررتُ أن يكون المرض سوط إخضاعهم، هذه هي الطريقة الوحيدة التي أُجبرهم فيها على احترام قبحي، وتمكنني من ترك الأثر كما أحلم وأشتهي.

***

كنتُ جالسًا على مقربة من فتحة الجُحر أستنشق نسمات الفجر المنعشة، عندما تذكرتُ كيف نجوتُ من قبضة اليد العملاقة، بينما السكين يهرول من الأعلى تجاه جسدي كي يشقَّه نصفين، في تلك اللحظة العصيبة، عندما ظننتُ أن الموت يقف أمامي، ويكاد يمسني بأنامله لمسة غير مرغوب فيها، وجدتُ فم المرأة العملاق كنفق ينفتح على مصراعيه، ثم تنطلق منها صرخة كادت تشق أسماعي، وتصيبني بالصمم.

تفلَّت ذيلي من بين أصابعها الفولاذية، وبينما أهرول بحثًا عن طريقٍ للهرب، لمحتُ بطرف عيني ولجزءٍ من الثانية فأرًا آخر يفر هاربًا مندسًا بين زحام الأقدام!

- عضَّني شيءٌ في قدمي.. آه.

هكذا صاحت المرأة، تواريتُ عن المشهد قبل أن أفهم ما حدث، لا أصدق أن ما رأيتُه يومها حقيقيٌّ، لا يوجد على ظهر هذا البلد فأر غيري، أنا متأكد من ذلك، كم قمتُ برحلات شاقة، أجوب فيها مشارق البلد ومغاربها، شمالها وجنوبها، تسلقتُ قمم أشجارها، وهبطتُ إلى أعمق وديانها وأظلَم آبارها، لم أعثر على مخلوق مثلي، بل ولا أي مخلوق ينتمي إلى أي جنس آخر غير بني البشر. لذا أنا واثق بأن ما رأيتُه لم يكن سوى محض وهْم؛ وهْم لذيذ سأمضي المتبقي من عمري مستغرقًا فيه، لكن لا وقت لدي الآن لأفعل، يجب أن أعود

إلى بيت الداء، كي أعثر على طريقة تمكنني من إصابة البشر بمرض «ليس له علاج»، يجب أن أعمل بسرعة وسرية تامة.

قررتُ بدء مهمتي فجرًا، لأنه الوقت الذي تتنفس فيه الطبيعة هواءً نقيًّا خاليًا من أنفاس البشر الخانقة، ومُحررًا من روائحهم الاصطناعية، وبمعزلٍ عن كلماتهم البذيئة التي تتصاعد من أفواههم كالبَخَر. لماذا يسب بنو آدم بعضهم بعضًا حال الخلاف؟ ولماذا لا يتحاورون بشأن الأمور التي تزعجهم قبل أن تتضخم وتصبح كافية لإغضابهم؟ لماذا تعوزهم الكلمات في حين أنهم يملكون كل هذا الكم الضخم من القواميس، التي رأيتُها مغطَّاة بالتراب على رفوف المكتبة الكبيرة المهجورة في الجهة الشرقية من البلد؟ لماذا يتصرفون وكأن أبجدياتهم لا تملك كلمات كافية لإذابة خلاف بين رجُلين، أو على الأقل احترامه؟

وصلتُ إلى بيت الداء، كانت المعاطف البيضاء قليلة في هذا الوقت من النهار، وهذا ما شجعني على التجول داخل المكان بُحرِّية، هادفًا إلى جمع أكبر قدر ممكن من قصاصات الورق، خاصةً تلك التي تتحدث عن أمراض ذات أهمية، الأوراق المهمة يدفنها البشر داخل أوراق من الكرتون أو أغطية بلاستيكية. انتقلتُ من غرفة إلى أخرى بسرعة ومهارة، شاكرًا لون الجدران المشابه للون بشرتي الشاحب، مما سمح لي بالتوقف والتمويه حال سماع أقدام مسرعة في هذا الممر أو ذاك.

انتهيتُ من جمع ما اقتطعتُه بأنيابي من قصاصات، وبينما أنا متوجهٌ صوب النافذة، كي أخرج منها، ثم أتسلق المواسير الخارجية إلى الأسفل كما فعلتُ عند قدومي؛ وقع بغتةً على رأسي شيء ثقيل سبَّب لي دوارًا شديدًا، كدتُ أستسلم للإغماء لولا بقية من الوعي كانت كافية لأدرك الخطر المحدق بي، ثمة شخص في هذه الغرفة، وإن رآني ستكون نهايتي لا محالة.

جررتُ نفسي إلى أسفل الفراش، أحاول استجماع ما تبقى لي من طاقة، أرتب أنفاسي الثائرة، وأضع قائمتي الأمامية مكان قلبي الذي يكاد يقفز مخترقًا جسدي للخارج، مذعورًا، يأكلني القلق، رحتُ أنتظر خلو الغرف من هذا الإنسان، لا أدري كم لبثتُ حتى تأكدتُ أن الغرفة خالية، وبقفزات سريعة غير محسوبة انطلقتُ فورًا صوب النافذة، زلَّة قدم واحدة كانت كافية ليختل

توازني، فأفقد السيطرة على جسدي، وتفشل قوائمي الأربعة في الإمساك بالماسورة.

لحظات وكنتُ أهوي من عَلٍ كأنني قطرة مطر أفلَتتها غيمة عابرة، لكن الأرض لن تفتح ذراعيها مُرحِّبة؛ ستقبض على جسدي طاحِنة، مُفتِّتة. اصطدمتُ بالأرض، فسمعتُ صوت انفجار مكتوم، لا أدري إن كان كسرًا أصاب إحدى قوائمي، أم شرخًا مزَّق أوتاري، أم ضربة فجَّرت أعضائي، كل ما أعرفه أن كل خلية في جسدي كانت تئن كأن السماء سقطت فوقي.

وفي اللحظة التي أوشكتُ فيها على فقدان الوعي رأيتُ الفأر الذي قابلتُه لحظة فراري من قبضة المرأة ذات السكين؛ الفأر الذي عضَّ ساق المرأة، وأنقذ حياتي من الموت، لم أكن واهمًا إذن. كان من بني جنسي؛ بلا شعر، بلا فرو، ذا أنياب أمامية بارزة، أعين صغيرة، وأنف أفطس، غير أنني انتبهتُ قبل أن ينسدل ستار الظلام أمام عينيَّ إلى تفصيلة غاية في الأهمية؛ إنه ليس ذكرًا... بل أنثى!

***

(49)

كلمة السر: رتيبة

أدركتُ أن شعور الغربة لا ينشأ عن الوحدة، بل لأننا لا نجد من يتفهَّم أسباب هذه الوحدة.

كنتُ أجلس في الصباح حول مائدة الفطور، أرقب زوجتي وأتساءل: لماذا أراها دومًا بهذا الزيف؟ لماذا أشعر معها أنني وحيد، غير مرئيٍّ، غير محسوس، ثم أدركتُ شيئًا؛ نحن لا نحتاج إلى من يشاركنا الحياة، بل من يُشاطرنا الصمت، الهذيان، المحظورات، الخيال، وحتى الجنون. عندما لا نجد هذا الشخص نستوحش أنفسنا، والآخرين، والكون، فنشعر أننا قُذِفنا إلى العالم الخطأ.

- لا تنسَ أن...

كانت تسترسل في الحديث، بينما صوتها يتضاءل في أذني، وكأنها هي ذاتها تتحول يومًا بعد يوم إلى شخص غير مرئيٍّ، غير محسوس. عندما مدَّت يدها لتأخذ كسرة خبز شعرتُ بها شفافة قليلًا، استطعتُ أن أرى من خلالها خيال الزهور الصغيرة الزرقاء التي تُزيِّن المفرش البلاستيكيَّ للطاولة! رفعتُ رأسي، وسددتُ نظراتي في وجهها، لأراه هو الآخر يشف جزءًا من خزانة المطبخ الموضوعة خلفها!

المدهش في الأمر أنني لم أشعر بالذعر، رجل آخر كان لينتفض فزعًا، وهو يرى جسد زوجته يشف بشكل طفيف الموجودات من حوله، لكنني كنتُ متصالحًا مع الفكرة؛ متصالحًا إلى حدٍ عجيب!

- لن أنسى.

- هل ستتأخر كعادتكَ؟ هذا البيت كغرف الفندق بالنسبة إليكَ.. أنتَ لا...

تُرى هل استيقظَت بحالة أفضل هذا الصباح؟ أخبرَتني أن العامل النفسيَّ مهم للتخفيف من أعراض مرضها، وأن السعادة مُسكِّن ربَّانيٌّ للألم، هل استيقظَت اليوم بألمٍ أقل؟ هل زرتُها في الحلم؟ هل تتحرق شوقًا مثلي للقائنا في المساء؟ كيف تتجهز للقاءاتنا على طاولة الخيال بين السطور؟ هل تستعد وكأنها تلتقي برجل وجهًا لوجه مثلما أتهيأ أنا بارتداء أفضل ما عندي؟ هل تتكحَّل؟ هل تتعطَّر؟ هل تضع أحمر شفاه؟ هل تنتقي جميل الثياب؟

- وجميع الجيران قالوا إن عليَّ الذهاب، لذلك أنا أريدكَ أن...

هل أقتحم تفكيرها حين لا نكون معًا؟ هل تعيد قراءة أحاديثنا الطويلة؟ إن كانت تفعل، فإنني أغبطها؛ لا يمكنني إخراج نسختي من الرواية خارج المكتبة الليلية كي أفعل، هل تسعَد بصحبتي؟ هل تنتظر لقاءنا بلهفة؟ تحدثَت عن انجذاب المغناطيس وبرادة الحديد، هل شعرَت بهذا مع رجل غيري؟ هل.. هل هي متزوجة؟

شعرتُ بغصة في حلقي، صحيح أننا اتفقنا على عدم التطرق إلى المعلومات الشخصية، لكن كان هذا في البداية، عندما كانت خائفة مني، الآن لا يوجد ما يستدعي الخوف، يجب أن أعرف عنها أكثر، لم يعد هذا الغموض يرضيني.

- هل تسمعني؟
- نعم.. أسمعكِ، موافق على ما قلتِ.
- غريب.. ظننتكَ ستعترض.
- ولماذا أعترض؟ افعلي ما بدا لكِ.

«ودعيني أفعل ما يحلو لي»، لم أنطق بها بالطبع، أسررتُها في نفسي، تتراكم الكلمات التي أُخفيها بداخلي يومًا بعد يوم، حتى تكوَّنت كرة ثلج من المسكوت عنه، كرة كافية لأن تسبب انهيارًا ثلجيًّا، يجعل حياتي والأرض سواء، لكنني لم أبالِ قط.

***

- لا أصدق ما تقول؛ كيف تلتقيان بين السطور؟! هل جُننتَ يا «صهيل»؟ أنتَ تخبرني بقصة رواية جديدة تكتبها، أليس كذلك؟

أحب الجبال، لا مشاهدتها على مبعَدة فحسب، بل والجلوس عند سفحها، ومُشاطرة الشاي والطعام والثمر مع «رفيق»، نتوجه إلى الجبل الوحيد عند أخطر بقعة في بلدنا.. عند خط النار، ثم ننصب خيمة تجاه هبوب الريح كلما ضاقت بنا شوارع البلد، أو كلما أردتُ محادثته في موضوع خطير.

يخشى «رفيق» الجلوس عند خط النار الذي يفصل بين بلدنا ومنطقة القادة التسعة لمجلس البلدية، خلف هذا الخط يُعاقَب مجرمو الأبجدية بالحرق، ولا يعود منهم سوى الرماد، لكنه يضطر إلى المجيء معي عندما أخبره أن «الموضوع خطير»، فيغلبه فضوله.

أخذتُ رشفة شاي من الكوب البلاستيكيِّ، بينما أتأمل الشمس تأفل ببطء مراوغ، وكأنها تكره الرحيل:

- ليست رواية.

انتفض من مكانه حتى أراق بضع قطرات من الشاي فوق ملابسه، من جميل حظه أن ليس لديه زوجه توبِّخه على هذا عند عودته إلى البيت. صاح مهتاجًا:

- هل تكذب عليّ يا «صهيل».. أم تستخف بي؟

- هل كذبتُ عليكَ قبلًا؟

- كلا، لكن ما تقوله غير ممكن!

لم يستطع أن يتفوه بكلمة «مستحيل»، لو كنا نُجري حديثًا بلا محاذير لأخبرَته قناعتي بأن لا شيء يسكن بلاد المستحيل.

- اسمعني يا «رفيق»، أدرك كم هذا صعب التصديق، لكن هذا ما يقع معي. أكتب للفتاة بين سطور نسختي من الرواية، فتقرأ كلماتي في نسختها وتكتب لي. لا أعرف كيف هذا ممكن، ولا يهمني أن أعرف! كل ما يهمني أنها موجودة.. أنها معي.

لماذا أخبرتُه؟ لا أعرف، لم أستطِع كتمان السر في صدري أكثر، مشاعري تتأجج، ومنطقي يتداخل مع عواطفي بشدة، إعصار يضرب قلبي، ويُشتت أفكاري، ما أشعر به حقيقيٌّ جدًا، مثلما الفتاة حقيقية بالنسبة إليَّ، ولم أحتمل كتمان هذه الحقيقة الكبيرة في صدري أكثر، أردتُ مشاطرتها مع صديق.

- إذا كان ما تقول ليس كذبًا...

- ليس كذبًا.

لمعت عيناه هاتفًا:

- إذن فهذه معجزة! هل تعرف كم تساوي هذه الرواية إن عرضتَها في مزاد علنيٍّ؟ «صهيل».. قد تجني من ورائها ثروة.

- أخبرتكَ أن روايتي ليست للبيع!

قلتُها بانزعاج شديد بينما أجز على أسناني، لا أحتمل مجرد التفكير في مقايضتها بالمال، وإن كانت قيمتها تعادل كل كنوز الأرض.

- «صهيل» يا صديقي، فكر مرة أخرى. أقول لك ستصير غنيًا جدًا، لن تعود مضطرًا إلى العمل ككاتب ظِل، ستنشر رواياتك باسمك، ستجني الثناء بنفسك. لن تعود مضطرًا إلى الشعور بمرارة تلقِّي الآخرين للتقدير، والإطراء على عمل من إنجازكَ أنتَ.

بالطبع يجهل «رفيق» أن الرواية التي نتحدث عنها غير قابلة للنشر، لأنها مفخخة بالكلمات المحظورة والمعاني المُستنكَرة، لا يعرف أنني لو أخرجتُ الرواية للنور سأقع في قبضة شرطة رقابة الأبجدية، وسيكون مصيري أن أتحول إلى حفنة رماد تُرسَل إلى عنوان بيتي، وتتسلمها زوجتي غير آسفة، ومن الأفضل له أن يظل جاهلًا؛ بعض الحقائق ثقيلة، لا تتحمَّلها نفوس الجميع.

- هل يمكنني رؤية الكتاب؟ أرجوك يا «صهيل»، أريد أن أراه.

- ليس معي الآن، أُبقيه في مكان سريٍّ، تعلم قيمته بالنسبة إليَّ، لذا لا يمكنني أن أسير به في الشارع هكذا.

- بماذا يُشعركَ امتلاك كتاب فريد مثل هذا؟

غاصت عيناي في بحر الرمال الصفراء، أجبتُه باسمًا:

- بأنني مميز.. مختلف. لا تُقدَّم الهدايا الاستثنائية إلا لأشخاص استثنائيين.

ربَّت كتفي قائلًا بمحبة خالصة، وود كبير:

- أنتَ كذلك يا «صهيل»؛ مميز، ومختلف، واستثنائيٌّ.

ثم قال بقلقٍ كبير:

- لكن الناس لا تستسيغ المختلفين، يبغضونهم يا صديقي. إياكَ أن تُبدي اختلافك بشكل فج يثير ريبتهم؛ تظاهر أنك مثلهم.

كان محقًّا، يُساورني القلق ذاته، كي أعيش آمنًا بين الناس عليَّ أن أثبت طوال الوقت أنني أشبههم؛ أفكر فيما يفكرون، أبغض ما يبغضون، وأؤمن بما يؤمنون؛ هذا العالم يحب القوالب الجاهزة، ويكره الشذوذ عن القاعدة.

- بعد سجني في بيت السيد «ك»، قلتَ لي إنكَ تجدني مملوءًا.. أتعرف يا «رفيق»؟ هذا ما أشعر به عندما أكون معها، وكأن قلبي وعقلي يُصقلان بالكلمات التي نتبادلها سرًا بمعزل عن العالم.. أتعرف؟ عندما أكون في البيت، في الشارع، في المصنع أشعر أنني بخفة ريشة، كما لو أنني سأطير، وأختفي ذات يوم دون أن يُثقلني شيء، دون أن يفتقدني مخلوق. أما معها، فأنا أشعر أن وزني يزداد، وأن إمكانية طيراني واختفائي لم تعد ممكنة.

- وزوجتك؟

- أشعر معها بالخواء.

- لماذا تُبقيها معكَ إذن؟

- أنا لا أبقيها، ولا أبعدها، إن شاءَت بقيَت، وإن أرادت ذهبَت.

- ألم تفكر فيما ستفعله عندما تنتهي الفراغات بين سطور الكتاب؟

رمقتُه بنظرات الدهشة، سألتُه حائرًا:

- ماذا تقصد؟

يبدو أن غياب هذه الفكرة عن عقلي ومراودتها لعقله أشعره بالتفوق؛ أجابني بحماس كاد يُريق قطرات أخرى من الشاي فوق ملابسه:

- أخبرتني أنكَ جرَّبتَ الكتابة في الهامش وفي الأطراف، لكنها لم تصل إليها، وكذلك جرَّبَت هي؛ إذن أنتما لا تستطيعان التواصل إلا بين سطور الرواية المكتوبة سلفًا، وهذا يعني أنه عند نفاد المسافات الفاصلة بين

السطور: أي عند انتهاء الفصول المكتوبة من الرواية لن تكونا قادرَين على الاستمرار في التواصل مرة أخرى!

أفزعتني الفكرة كما لم يفزعني شيءٌ من قبل؛ فزعًا أكبر من الذي يساورني عندما يأتي ذِكر شرطة رقابة البلدية، وتنكيل مجلس البلدية بالعناصر الشاذة الذين يقترفون الجرائم الحائية، فزعًا كفزع نشوب الحرب. أن أكون غير قادر على التواصل معها، أن تنقطع سُبل التلاقي بيننا، أن أعود خفيفًا خاويًا، أن يعود كل شيء هشًا زائفًا؛ هذا هو الجحيم ذاته.

قبضتُ على حفنة رمال، عصرتُها بين أصابعي بشدة آملًا ألا تهرب، رغم ذلك انزلقَت من فراغات أصابعي مفارقة، مثلما أشعر بانزلاق الفتاة من حياتي الآن.

***

تتباطأ الساعات حين نريد لها أن تتقافز مسرعة، مرَّ الوقت ببطء يحرق الأعصاب، أو لعل الزمن من هذه التهمة براء، أنا المُتلهِّف لأن تلتحم عقارب الساعة عند الثانية عشرة صباحًا. الهواء بارد في الزقاق الخلفيِّ، لم تُزعجني لسعة سياطه؛ ثمة سياط أشد ألمًا تلسع قلبي في هذه اللحظة؛ الخوف من الفراق.

عندما فقدتُ أمي في الحرب تعلمتُ بأصعب الطرق ماذا يعني الفراق، ورغم ذراعيها الضامرتين اللتين لم تُشعراني بعناق كامل قط، فإنني اشتقتُ عناقها بشدة؛ رائحتها، أنفاسها، صوتها، تهويدتها حين أعجز عن النوم.

الفراق كالموت؛ كلاهما انتزاع الروح من الجسد، كنتُ حريصًا ألا أتآلف، ألا أعتاد، ألا أطمئن إلى حد السكون، ألا تراودني أضغاث اشتياق، لكن الفتاة أتتني من مأمن، حين لم أحسَب أبدًا أنني قادر على ممارسة الحياة.

***

- لا أريد لهذا أن ينتهي.. يمكنني إطالة الرواية لتستمر إلى الأبد.
- لكل رواية نهاية، أنتَ تعرف هذا جيدًا.
- لكنكِ طالبتِني ألا تنتهي لقاءاتنا.
- كنتُ في سكرة عاطفية.

- وإن رفض الكاتب أن يخُط بقلمه خاتمة؟

- يضعها القارئ إذن.

- لن تكون نهاية أصيلة، ستظل مقحمة ومجحِفة!

لم أشأ التحدث بشؤم، لكن تقاسُم تعاستي معها يُشعرني أننا حقيقيان للغاية.

- يمكنني الاستمرار في كتابة هذه الرواية إلى الأبد.. أستطيع أن أفعل.

- أثق بقدرتكَ على أن تفعل، لكن لماذا تغتم بذلك الآن؟ ما زالت أمامنا صفحات كثيرة قبل أن نصل إلى نهاية الرواية.

استمراري في الكتابة أصبح شرطًا لاستمراري معها، وكأنها نبع للكتابة لا ينضب، وكأن لقاءنا كان مُقدَّرًا كي لا أترك القلم.

كتبتُ مُلطِّفًا:

- صحيح، لا داعي لاستباق الحزن إذن.

- بالمناسبة، قرأتُ ثلاثة فصول جديدة من روايتك. الصداع يلازمني هذه الأيام، لذلك أتقدم ببطء.

كنتُ لأنتفض حماسةً لسؤالها عن رأيها فيما قرأَت، لولا الألم الذي استشعرتُ، وكأنه يحاصر رأسي أنا، يتخلل خلاياه، ويسحق عظامه.

- ألا يصف لكِ الطبيب مُسكِّنًا للألم؟

- لا يُجدي أحيانًا.

اغتممتُ فاستشعرَت ذلك على الفور:

- لا تبتئس.. أكون في حالة أفضل عندما أكتب لكَ، وتكتب لي. أنتَ كاتب، تعرف جيدًا كيف أنكَ حين تكتب تتسرب تعاستك وهمومك ومخاوفك من أناملكَ إلى لوحة مفاتيح، أو حفنة من الورقة. «الكتابة استشفاء»، يقولون ذلك... لكن أتعرف؟ إنها ليست ذلك تمامًا بل خليطًا من الداء والدواء. الشيء الذي يؤلمكَ هو وحده القادر على شفائك، لذلك يُشبِّهها البعض بعملية ولادة شاقة، يعاني فيها الكاتب كي يُخرِج الكلمة من رحم القلم.

- تؤمن زوجتي أن الكتابة اختراع شخص تعيس أراد أن يبعثر تعاسته على العالم.

تعمَّدتُ ذِكر زوجتي؛ علها تخبرني عن نفسها، لكنها بدلًا من ذلك استرسلَت في الحديث، وكأن كلمة «زوجتي» لا تضيف لها أي معنى جديد:

- قد تكون وجهة نظر وجيهة. أحيانًا نكون أطفالًا لئيمين، نود لو يشاركنا العالم كله الحزن أو الفرح المدفون في صدورنا.
- أنا لا أكتب كي أشارك نفسي مع أحد، بل أكتب لأجد نفسي. البعض يكتب أو يقرأ ليهرب إلى ساحات الخيال، أما أنا فأبحث عن الواقع في الكتب. عالم الروايات هيكل واقعيٌّ مصغر، يعتني بالتفاصيل، ويتخذ زاوية محددة. بعكس الواقع الذي تتشتت فيه الزوايا، وتبهت التفاصيل. أحيانًا لا نستطيع أن نفهم حياتنا إلا إذا قرأنا عن حيوات الآخرين، تجاربهم، أخطائهم، سِيَرهم، الأسباب التي دفعتهم لأن يكونوا كما هم عليه. في البدء كانت الكلمة، ثم تشكَّلت منها الحياة. الكلمات هي ميراثنا الإنسانيُّ. نحن نفنى وتبقى الكتب.
- هل تعرف أن ثمة خرافة مرعبة تدور حول الكلمة؟ الرجل الذي كان يعرف اسم عدوه كان بإمكانه أن يتسلط على حياته، ويمارس عليه قدراته السحرية.
- أنا لا أخشى ذكر اسمي. أخبرتكِ أنني «صهيل»، لكنكِ على ما يبدو تؤمنين كثيرًا بهذه الخرافة!

حاولتُ استفزازها لتمنحني طرف خيط، معلومة صغيرة، أي شيء عنها ولو اسمها، لكنها تابعَت بإصرار متغاضيةً عن محاولاتي اليائسة:

- كتب أحدهم مرة أن الشيء الماديَّ ما هو إلا قدْر من الحبر: أي أن الأشياء تظل في عالم ما بين الماديِّ والخياليِّ حتى تتحقق على الورق. إنها فكرة رومانسية، أليس كذلك؟
- ثمة شاعر كتب مرة أنه يخاف أن تهجره حروفه. الآن فهمتُ ماذا قصد؛ كان يخشى أن تفقد الأشياء من حوله ماديتها.. ألوانها، وتصير شفافة.. مثل زوجتي.

كررتُها ثانيةً، آملًا في أن تولي اهتمامًا هذه المرة، لكنها لم تفعل، تغاضت عن ذِكر زوجتي بعنادٍ لتكتب:

- ما لون الكتابة؟

أدهشني سؤالها، لم أفكر من قبل أن للكتابة لونًا، كما أخبرتني هي عن الألم.

- بيضاء ربما؛ لا تحمل صبغة محددة، تحتضن مختلف الأطياف داخلها، هكذا بإمكانها أن تسع الجميع.

- أحسنتَ.

اتسعت ابتسامتي، وكأنني تلقيتُ جائزة استثنائية. استطردَت تكتب:

- نحن نفقد شعورنا بحقيقة الأشياء عندما نعجز عن التواصل معها. العقل يعتبِر كل ما لا يفهمه غير موجود، مثلما ينكر البعض وجود الإله فقط، لأنهم يعجزون عن فهم طريقته في سريان الكون. أنتَ توقفتَ عن أن ترى «رتيبة» بشكل ماديٍّ ملموس، لأن كليكما توقف عن فهم الآخر. ثِق بأنها هي أيضًا تراك الآن شفافًا بلا لون، وهذا يزعجها بالقدر نفسه الذي يزعجكَ.

كلام جميل، كلام معقول؛ يدخل الأذن، ويطوف بالعقل، ويستقر في الإدراك. لولا تفصيلة واحدة، صغيرة، هامشية، لكنها تُفسد الحبكة، وتفتح بها ثغرة لعينة؛ أنا لم أخبرها قط أن اسم زوجتي «رتيبة»!

***

(50)
لم تكُن الأولى

لم تكن الجريمة الثانية مختلفة عن الأولى باستثناء موقعها؛ الجثة التي أكلتها النار من الداخل إلى الخارج، سلامة الأغراض القريبة من الجثة، وكأن النار تتخير ما تشتهي أكله، وتدع ما لا تشتهيه.

دخل «مؤيد» غرفة نوم القتيل الثاني، كانت بسيطة وأنيقة بلا بهرجة زائدة، لا يفسد أناقتها سوى الجثة فقط، بل وابن الأبجدي الملعون المرسوم فوق الأرض بشكل متعرج عشوائيٍّ عن طريق سائل لزج، دنا منه مؤيد، فأدرك أنها دماء، لم يكتفِ القاتل بإشعال النار في الرجل، بل ثقب جسده قبلها، واستخرج قطرات من دمائه كافية لرسم ابن الأبجدية الصغير فوق الأرض!

وقف مساعده بجواره يُسمِعه ما جمعه من معلومات:

- القتيل متزوج ولديه ابنة تعيش هنا، الأم من عثرت على الجثة، أيقظَت صرخاتها ابنتها التي تنام في الغرفة المجاورة. تقول ابنته إنه نام متأخرًا، ذهبت أمها لإعداد الفطور، وعندما توجهَت إلى غرفتهما رأته في هذا الوضع.
- هل كان في مزاجه المعتاد؟
- تقول ابنته إنه عاد من عمله طبيعيًّا، أغلق غرفة نومه ليبدل ملابسه، لكنه لم يخرج منها، وعندما دخلت عليه وجدته يبكي، يضرب رأسه بالجدار، ويسدد لكمات مؤلمة إلى جسده، يمد يديه ويصرخ: «يداي مملوءتان بالدماء!».
- وهل كان ثمة دماء على يديه؟
- تقول ابنته إن يديه كانتا نظيفتين تمامًا.. انهار الرجل فجأةً بلا سبب.

- ألم يأتِهم زائرٌ ما؟ ألم يذهب الأب إلى مكان مختلف عما اعتاده؟

- كلا، لم يقع بالأمس شيء مغاير لما تجري عليه أيامهم ولياليهم عادةً؛ كل شيء طبيعيٌّ للغاية.

- لا شيء طبيعيٌّ هنا!

صرخ «مؤيد» بانفعال كبير، انتهى للتو من الكلام مع قائده الذي طالبه بالتوجه إلى مكتبه في نهاية اليوم لعرض ما توصل إليه بشأن قضايا الاشتعال الغامضة، لكنه لا يملك أي معلومة تستأهل وضعها أمام القائد، لم يصل بعد إلى شيء ذي قيمة، ألهب ذلك أعصابه بشدة، فطفق يصرخ في الجميع ليؤدوا عملهم على أكمل وجه رغم أنه يدرك أنهم يفعلون.

اقترب من الزوجة التي كانت ثابتة في كلامها، عنيفة في ردود أفعالها، وهي تقول:

- لم يؤذِ زوجي مخلوقًا طوال عمره؛ قابل خالقه بيدين نظيفتين.

سألها «مؤيد»:

- لماذا إذن صرخ بالأمس أن يديه مملوءتان بالدماء؟

- أفقدته سكرة الموت صوابه؛ كان يشعر باقتراب أجَله. نعم.. بالتأكيد هذا ما وقع.

لم يقتنع «مؤيد»، رغم ذلك لا يملك تفسيرًا منطقيًّا، وهذا ليس جديدًا؛ قضايا الاشتعال خالية تمامًا من المنطق. قبل أن يخرج من البيت رأى الابنة منزوية في الزاوية، في منتصف الثلاثينيات، تقرض أظافرها، خائفة، متوترة، دنا منها فانتفضت، سألها إن كانت تعرف أكثر مما تقول فامتنعت، أغلظ عليها، فتشنجت باكية:

- قلتُ كل ما رأيته؛ كانت يداه نظيفتين من الدماء، لكنه أصر أنهما مملوءتان به.

- لماذا في رأيك؟

عندئذٍ اضطربَت، قضمَت أظافرها، ارتعبَت، نظرَت إلى الأطراف تتأكد من غياب الآذان عن رصد كلامها، ثم مالت صوبه تقول بأعين غشيها الذهول:

- زمانًا.. قبل ثلاثين عامًا، في ليلة بائسة امتلأت الشوارع فيها بالقتلى، وانفجرت ينابيع الدماء، عاد أبي إلى البيت، يداه ملطختان به. يومها شعرتُ من برودة نظراته.. من بلادة قسماته؛ أنه.. أنه تورَّط في القتل.

ثم أضافت بنظرات ذاهلة كصوتها:

- بالأمس، شعرتُ وكأن الزمن لم يمر قط، وكأننا في الليلة نفسها، لكن هذه المرة بلا برودة، بلا بلادة، وكأنه شعر بالأمس بما كان ينبغي أن يشعر به قبل ثلاثين عامًا!

ضاق ذرعًا لكل شيء، ألن يخرج له من ظهر هذا البلد شخص يخاطبه بكلام العقلاء، لماذا على الجميع أن يكونوا أوغادًا ومعاتيه؟ اقترب مساعده هامسًا في أذنه:

- أريد أن أتكلم معك بالخارج يا فندم.

رمق مساعده بنظرة انزعاج، ثم توجه إلى خارج بيت القتيل دون كلمة، تلفَّت المساعد يمنة ويسرة ليتأكد من أنهما بمعزل عن الآذان المتلصصة، ثم قال:

- لدي ما أُخبركَ به يا سيدي؛ هو شيء عصيٌّ على التصديق بعض الشيء، لكن...

- بلا مقدمات.. قُل ما عندك.

يعرف من ملازمته لـ«مؤيد» أنه في أقصى درجات الانزعاج ونفاد الصبر، لذا عجَّل بما يريد كشفه قائلًا:

- هل تذكر البستانيَّ الذي كان شاهدًا في واقعة مقتل السيد «ك»؟ فوجِئتُ أنه من سكان هذه المنطقة التي وقعت فيها الجريمة الأولى.

قاطعه «مؤيد» متبرمًا:

- وما المفاجئ في ذلك؟ استجوبنا الرجل، ونعرف عنوانه جيدًا.. ألا تقرأ تقارير الاستجواب في القضايا التي تعمل عليها يا جناب الشرطي؟!

ابتلع المساعد الإهانة قائلًا بضيقٍ:

- نسيتُ هذه المعلومة، يعني أنني لم أنتبه إليها في أثناء الاستجواب.

- ثم عرفتَ أن الرجل يعيش هنا. هل أخرجتني من موقع الجريمة لتبهرني باكتشافك المتأخر؟

- كلا يا سيدي، أريد أن أخبرك بشيء آخر؛ لقد تكلمتُ مع هذا الرجل.. يقول كلامًا عجيبًا، لكنه في الوقت ذاته أشعرني أنه يعرف شيئًا.

انفرجت أسارير المساعد ما إن رأى الاهتمام يتصدَّر قسمات «مؤيد» الذي سأله:

- ماذا قال بالضبط؟

- أخبرني أن النار عندما تشبع، فإنها تنام في جوف البشر، وأشياء أخرى لها علاقة بالمعرفة.

- ماذا تقول؟

- أعني أنه يظن أن المعرفة التي تُفاجئ الجاهل، وتزيل عنه أستار الوهم كافية لإشعال النار بداخله إذا لم يعرف كيف يتصرف مع هذه المعارف. كنتُ أخبرتُ سيادتكَ عن نظرية الاشتعال الذاتيِّ البشريِّ، وأنه يستلزم شرارة صغيرة.. الشرارة التي نفتش عنها شيء معنويٌّ لا ماديٌّ.

ضرب «مؤيد» كفًا بكفٍ هادرًا:

- لقد فقدتَ عقلكَ تمامًا؛ لم تعد شرطيًّا بل عرَّافًا أو مُهرجًا!

أوقفه استهزاء «مؤيد» عن الاسترسال، قطع عليه الطريق أمام إخباره بشأن ما قاله البستانيُّ عن عضَّة ما، التي لها القدرة على إشعال النار، ابتلع الإهانة، وأقسم إنه لن يشارك هذا المتعجرف شيئًا بعد الآن، وأنه سيسير في هذه الطريق بمفرده.

***

ولأن أجمل الغِلال تلك التي تنمو في أرض الآخرْين؛ عدَّ «مؤيد» الصمت الذي يُغلِّف مشغل «نداء» باعثًا على صفاء التفكير، بأكثر مما يشعر داخل مكتبه في مركز رقابة الأبجدية، أو في بيته المُشبع بالسكون. لذا وجد قدميه تقودانه ليلًا صوب المشغل في غير ساعات العمل، يعرف أنها ستمضي الليلة

في إنهاء الرسم المطلوب منها، بعدما اضطرت إلى قبول عددٍ من الطلبيات يفوق طاقاتها، فقط من أجل المال اللازم لتسديد مصروفات المشفى.

طرق الباب الخشبيَّ مرتين، ثم تقدم داخل المشغل خافت الإضاءة، الساكن ككوكب مهجور، لا يُزيِّن سماءه إلا نجمة مستغرقة في العمل أمام رسمتها، لم تسمع الطرقات، ولم تره يقترب، تضع سمّاعات الرأس، وتنصت إلى ما بدا له أنه أصوات الطبيعة، إن كان للطبيعة صوت، أشبه بما اعتادت أمه سماعه، وهي ترقب الأفق في ساعات النهار الأولى.

ولسببٍ ما ليس له أي علاقة بالتشابه الجينيِّ، رأى فيها نسخة مصغرة من أمه؛ بجلستها المسترخية الواثقة، ونظراتها التي تسافر عبر المكان، فتتنزه بين الأكوان، ثم تعود إلى الأرض معبَّأة بما لا عين رأت، ولا أذن سمعَت، ولا خطر على قلب بشريٍّ، استغراقها في الرسم ونسيان ما سواه، طريقتها في الإمساك بالفرشاة، ولصقها للرماد بنعومة ودقة؛ تُذكِّره بطريقة أمه في الإمساك بالقلم، وهي تخط فوق أوراقها خواطرها ودقائق نفسها.

عبير زهرة ينبعث من ركنٍ ما، لا، بل مجموعة من الأزهار الناعمة تتغزل بالهواء، فيقتنص عبقها. تأملها بروية، ربما للمرة الأولى منذ أن التقاها في هذا المشغل، قسماتها قوية، جبينها عريض، طويلة وخمرية، تتوهج وجنتاها وأنفها وكأنهما مصدر إضاءة لوجهها، إلا أن لون شعرها الباهت بدا دخيلًا عليها. الأجواء اللطيفة في المشغل على خلاف الصقيع بالخارج أشعرته أن الفتاة مصدر دفء متفرد، وكأن من قلبها تنبعث طاقة كافية لاستجلاب الربيع في منتصف أمشير.

- «عامر»! لم أنتبه لقدومكَ.

نطقَت كلماتها بالدهشة، ووشَّت بالقلق الذي انتقل إلى أطرافها، فأبصر اهتزاز الفرشاة بين أناملها.

- لماذا لم تصدِر صوتًا؟

- أعتذر لم أود إخافتكِ، طرقتُ الباب فلم تسمعي.

- فعلًا؟ معذرةً، عندما أعمل أنفصل تمامًا عن الواقع.

- أدركتُ ذلك.. تشبهين في ذلك شخصًا أعرفه.

- قريب منكَ؟

- أكثر من قريب... أمي.

قالها باقتضاب، ثم ندم على تسرُّعه، ما شأنها بأمه؟ لماذا يخبرها بذلك؟

لم تكتفِ «نداء» بالجواب، تمادت في السؤال:

- لماذا تتكلم عنها بصيغة الماضي؟ هل...

لم تنطق بالكلمة، أومأ برأسه منزعجًا من النقطة التي وصلا إليها، ثم قال مدمرًا جسرًا انتهى بينهما قبل أن يبدأ:

- ماتت.

بادرته بأسى:

- أعتذر أن ذكرتُكَ بخسارتها.

ثم طافت عيناها بعيدًا عن الرسمة، وعن المشغل، وعن العالم كله، هكذا شعر، بدا له أنها تتذكر أمها بدورها، رأى أنه من غير الأخلاقي أن يستخدم ألم شخص للوصول إلى أدق أسراره التي يُخبئها عن الجميع، لكنه ذكَّر نفسه بأنه شرطيٌّ، ووجوده هنا لأجل مهمة نبيلة:

- لا بد أنكِ تفتقدين أبويكِ، لكن في الوقت ذاته تلومينهما على تركك وأخيكِ بلا أهل وعائلة، أليس كذلك؟

لما طال صمتها وبلغه اضطرابها، فهم أنها لا تود التطرق إلى أبويها، فاستطرد يقول:

- أنا أيضًا أفتقد أمي، وفي الوقت ذاته ناقم عليها لتخليها عني.

- متى فقدتَها؟

- منذ وقت قريب.

- كيف ماتت؟

- ارتكبت الخطيئة الأكبر.

- أتقصد أنها ارتكبت جريمة الأبجدية؟

- كانت تُبقي على كتابات ممنوعة في قبو البيت، ثم تفوَّهَت بكلماتٍ لا ينبغي أن تنطق بها.

- فهمتُ.

مس بأنامله طوق رقبته، كتم غضبه، ووارى ألمه، على الأقل هذا ما قصده، وإن لم يبلغ كثيرًا غايته. أدركَت «نداء» أن وجعه ما زال رطبًا، بلون أسود، مثل دم متجلط فوق شق بموضع ظاهر من الجسد. تعرف جيدًا هذا الوجع، تراه في أعين عملائها، وتشمُّه في كلماتهم، وتسمع آهاته المدسوسة سرًا بين أضلعهم، لا تملك وصفة مثالية لتخفيف الوجع، لكنها وقفت واقتربت قليلًا، ثم قالت:

- بالتأكيد كانت تملك سببًا قويًّا لتفعل ذلك.

لم تدرك أنها سَكبت بنزينًا على نار متقدة إلا عندما ضم قبضتيه بقوة، وكأنه على وشك تسديد لكمة، انتفض قائلًا:

- أي سببٍ هذا الذي يبرر الخرق السافر للقوانين؟ أي سبب هذا الذي يبرر أن تلقي أُم بنفسها إلى التهلكة بسبب بضع كلمات لا وزن لها ولا قيمة؟!

تخيَّرت أكثر نبراتها هدوءًا ولطفًا ثم قالت:

- القيمة ليست في الكلمات نفسها، بل بما تمثله بالنسبة إلينا!

هتف بعنفٍ كاشفًا ما يعتمل بصدره متناسيًا مهمته:

- ما الذي تُمثله كلمات شُطِبَت من القواميس؟ إنها ليست أكثر من كلمات لعينة لم يأتِ من ورائها إلا الخراب!

شبَّكت ذراعيها تقول بعد تردد لم يدُم:

- هل تؤمن فعلًا بذلك يا «عامر»؛ أن الخطأ في الكلمات؟

- ليس مهمًا ما أؤمن به أو لا أؤمن.. ما يهمني هو القوانين؛ النظام، العدالة. ألم يضع الناس هذه القوانين منذ البداية؟ ألم يرتضوها لأنفسهم؟ لماذا يخالفها البعض الآن؟ لماذا يفضل أبواكِ الموت على البقاء؟ لماذا يتركانكِ وأخاك بمفردكما في هذا العالم؟ لماذا كان يخزن هذه الكتب اللعينة؟

- لم يكن يخزنها، بل يكتبها!

- ما المُغري في تأليف الكتب المثيرة للجدل؛ الكتب التي تُسبِّب البلاء لكاتبها وقارئها؟
- لأن الممنوع يتغير، بعد أعوامٍ من الآن قد تتبدل قوانين البلد، فلا يعود ابن الأبجدية المغضوب عليه ملعونًا، وبدلًا منه يقرر الناس منع السين أو الضاد أو الكاف. تخيَّل مع كل تغيير في القوانين يُنتزَع ابن للأبجدية من العقول والدفاتر والكتب، تختفي كلماته إلى الأبد. هل تتخيل ما سيكون عليه الواقع بعد عشرات أو مئات السنين؟ لن يبقى للإنسانية كتاب قابل للمطالعة، لن تبقى كلمة قابلة للتلفظ، لن يبقى شعور قابل للمعايشة، ستنقرض الأبجدية، لأن ما من ابن لها إلا وله كارهوه الذين يرغبون في اختفاء كلماته من العالم!

أدركَت «نداء» أن النقاش معه بينما هو بهذا الاندفاع والغضب لن يُثمر عن خير أبدًا؛ بادرته وهي تتوجه إلى طاولة صغيرة في ركن المشغل:

- سأصنع لكَ شاي جذور اللوتس.. سيهدئكَ قليلًا.

ذِكرها للهدوء لفت انتباهه إلى خروجه عن طور مهمته، فتوجه إلى الطاولة، وسارع يقول:

- أعتذر.. لم أقصد إزعاجكِ.

ابتسمتْ بودٍ تزيل عنه الشعور بالضيق:

- لم تزعجني.. لم أقطع الكلام، لأنني انزعجتُ، بل لأنني رأيتُ أنه لن يُفضي بنا إلى شيء.. على الأقل الآن.

فلما قابل كلماتها بالصمت، قالت تُلطِّف الأجواء، وبشعور صافٍ:

- في المرة القادمة أعطِني صورة لأمك، وزجاجة رمادها؛ سأرسمها وأجعلك تصنع لها إطارًا جميلًا تُعلقه في مكان بارز ببيتكَ، هكذا ستُشعركَ ببعض الونَس.

شعر بامتنان كبير، دفعه لأن يبتسم لها شاكرًا، ورغم أنه بالفعل يملك صورة لأمه في جيبه، فإنه لم يجد من الصائب هدم الجدار الفاصل بين امتنانه ومهمته.

كانت تلك آخر كلمات تبادلتها معه؛ أعدَّت الشاي، وقدَّمت له فنجانه، ثم توجهَت إلى فرشاتها وألوانها تستكمل رسوماتها بشكل متواصل لا يقطعه سوى نهوضها كل فترة كي تعد شايًا عشبيًّا ساخنًا، أو لتمشي في أرجاء المشغل، وتُدلِّك رقبتها عندما تتيبَّس عضلاتها من طول الجلوس.

***

لم يغادر المشغل، رغم إنجازه لعمل اليوم، إذ يستغرق في صناعة الأطُر وقتًا أقل مما تستغرقه هي في الانتهاء من الرسم المطلوب، أخذ يعد المزيد من الأطُر، من جهة شغله ذلك عن التفكير فيما يزعجه، ومن جهة أخرى وهبه الفرصة الكافية لصب تركيزه على القضية الغامضة التي يعمل عليها، جريمة ثانية وفي وقت قليل؛ جريمة غير منطقية على الإطلاق، لا يوجد سبب علميٌّ يدفع إنسانًا بالغًا إلى أن يشتعل من الداخل، وكل ما يسمعه من مساعده السمج سخافات غير قابلة للتصديق.

- هل سمعتِ بجريمة الاشتعال الثانية؟
- كلا، لم أسمع.

كانت قد توقفت عن الرسم بدورها، دارت في المشغل قليلًا كي تلين عضلاتها، استطرد:

- رجل أكلته النار داخل غرفة نومه.
- مثل واقعة شجرة الدردار؟
- نعم، مثلها تمامًا.
- يبدو أن الأمر لن يتوقف عند هذا القدر.
- وهل هذا ممكن أصلًا؟ إنها طريقة عجيبة في القتل.
- من أتى على ذِكر القتل؟

رمقها بدهشة غير زائفة وهو يقول:

- وماذا يكون سوى القتل؟ لا يمكن للنار أن تشتعل دون فاعل!
- ربما كان المقتول هو نفسه الفاعل.. سواء بقصد أو بغير قصد.
- هل يدع إنسان طبيعيٌّ النار تأكله دون أن يسعى لإطفائها؟!

- ومن قال إنه لم يسعَ لذلك؟ لكنه لم يعثر على ما يطفئها به ليس أكثر!

وقف قبالتها يسألها، لا لاستدراجها هذه المرة، لا للفوز بمعلومة كي يغلق بها ملف القضية، بل ليفهم، هذه المرة سأل من أجله:

- لماذا الآن؟ لماذا تزداد جرائم ابن الأبجدية الملعون؟ لماذا بدأ هذا الاشتعال الغريب الذي تتجبَّر فيه النار على أجساد الناس؟ لماذا الآن؟!
- ومن قال إن وقائع الاشتعال بدأت الآن؟ تلك لم تكن الأولى.. هذا يقع منذ زمن.

أرجع رأسه قليلًا إلى الخلف ينظر إليها بدهشة بالغة، لوهلة لم يجد الكلمات المناسبة، وعندما وجدها قال مؤكدًا بثقة:

- ماذا تقولين؟ ما معنى «لم تكن الأولى»؟ لم يسبق هاتين الجريمتين أي جرائم اشتعال مشابهة.
- بل سبقهما الكثير.

ودَّ عند هذه النقطة بالذات أن يُخرج هويته من جيبه، ويدسها أمام عينيها، كي تعرف أن معلومة كهذه ما كانت لتخفى على ضابط في شرطة رقابة الأبجدية، وطالما لا وجود لهذه المعلومة عنده إذن فهي إشاعات مغرضة، ودَّ لو يقول كل ذلك، لكنه لم يفعل، بل ازداد دهشة على دهشة عندما قالت «نداء» بصوت هامس يشي بخطورة ما تخبره به:

- أعرف رجلًا طيبًا يرعاني وأخي، كان لنا بمنزلة بديلٍ لأبي، يعمل من وقتٍ لآخر في مدافن البلد. أعرف جيدًا ما أقول يا «عامر»؛ هذه ليست الواقعة الأولى.. ولا الثانية؛ اشتعل الكثير من الناس.. الكثير يا «عامر»!

***

مصنع الكلمات

«الفرق بيني وبين الآخرين: لقد متُّ مراتٍ لا حصر لها، أما هم فلم يموتوا قط».

سيوران

أفقتُ من حلمٍ طويل راودني في أثناء فقدان الوعي، الصداع يمزق رأسي، والألم ينهش جسدي، يكاد يتسرب إلى أحشائي، لم أكن فوق الأرض، ولا في بيت الداء، ولا داخل جُحري؛ كنتُ في مكان لم يصافح عيني يومًا، أنا العارف بكل شبر في أرض هذا البلد! هل صحيح أنني رأيتُ أنثى فأر من بني جنسي قبل أن أفقد الوعي، أم أنها شطحات خيال، وظلال وهْمٍ تصيب من يسقطون من عَلٍ؟ لا أعرف، لم يسبق لي أن فقدتُ الوعي من قبل.

الجو خانق وكأنني في مستودع مهجور؛ الرائحة عطنة، الإضاءة خافتة، وفي بعض الأركان منعدمة، ثمة الكثير من الأغراض المكدَّسة، والأوراق المتناثرة، وعلب كرتون كبيرة مغلقة، و.. كمية هائلة من الكتب!

لم يسبق لي أن رأيتُ هذا الكم الضخم من الكتب محمولًا فوق أرفف مهجورة مُغبَّرة لم يمسها إنسيٌّ منذ وقت بعيد جدًا؛ أعوام ربما. انتفضتُ أجول في المكان بعينين متسعتين تستوعبان الضوء الشحيح، والمجلدات الغزيرة، والجدران العالية ذات الطلاء المتآكل، قفزتُ فوق رفٍ ومنه إلى آخر، وجدتُ آثار قوائمي الأربعة تُطبَع فوق طبقات التراب الكثيفة، لكن مهلًا.. ما هذا؟

ثمة كتاب كبير منبعج موضوع فوق أحد الأرفف متوسطة الارتفاع، يخترق ورقاته وغلافه السميك طرف رصاصة! انطلقت الرصاصة من سلاحٍ ما في وقت ما، فوقف أمامها الكتاب ببسالة الشجعان حائلًا بينها وبين الهدف.

- ألف سبب يُشعِل حربًا، كلهم أبناء شرعيون للجهل والغضب. وسبب واحد يوقِفها... عقلٌ واعٍ في موضع قرار.

احتجتُ بضع ثوانٍ كي أحدد مصدر المُتكلِّم ومكانه ونوعه، وبضع ثوانٍ أخرى لأدرك أن الكلمات منطوقة بلغة فئرانية صريرية لا بشرية! لم أكن واهمًا إذن، تطالعني بنظرات نهمة وفضولية فأرة تطابقني شكلًا، تصغرني حجمًا، وتخالفني رشاقة؛ أنثى من بني جلدتي، لا أصدق ذلك! هذا أروع من أروع أحلامي!

انطلقت الفأرة في قفزات رشيقة فوق الأرفف حتى بلغت الرف الذي أقف عليه أرقبها في ذهول، أنيابها العلوية والسفلية تبرز خارج فمها، تعاني من تشوه في مخارج بعض الحروف، عيناها تشتعلان دهاءً، وجهها مُشرَّب بالانفعال، بعكس وجهي الذي بدا كالجدار في سكونه وسقوط طلائه.

- لقد استعدتَ وعيكَ.. ظننتُكَ لن تستيقظ أبدًا.

لم أرَ نفسي بينما أتكلم، الآن أشعر وكأنني أقف أمام مرآة قادرة على رصد أدق سكناتي، كنتُ مدهوشًا من طريقة حديثها وتعبيرات وجهها في أثناء الحديث، تبدو لمَّاحة، سريعة الحركة، ودودة، هذا مؤكد.

قلتُ بلهفة:

- أنتِ التي أنقذتِني من المرأة ذات السكين، أليس كذلك؟

- بلى، إنها أنا، حاولتُ العثور عليكَ بعدها، لكنني لم أتمكن من إيجاد جُحرك، ثم عندما كنتُ أمُر صدفة وجدتُكَ تسقط من النافذة، فأحضرتكَ إلى هنا لأداويكَ، لم يكن هذا سهلًا؛ أنت كبير وثقيل!

- من أين أتيتِ؟

لا أعرف إن بدا لها سؤالي غبيًّا، لكنه علامة الاستفهام الأكبر التي تحاصرني الآن، أتلهف لأعرف كل شيءٍ عنها، شعرتُ بحماسة رهيبة تجتاح كياني، مطَّت قائمتيها الخلفيتين قائلة ببساطة:

- مثلما جئتَ أنتَ.

- أنا لا أعرف من أين جئتُ.

- ولا أنا.. لا أذكر كيف أتيتُ إلى هذا العالم، فقط أعرف أنني فتحتُ عينيَّ هنا، في هذا البلد الحزين.

لم أجد مخارج حروفها المشوَّهة قبيحة جدًا، كما كنتُ أشعر في نفسي حينما أتكلم، سألتها:

- تقولين حزينًا؟ لماذا هو حزين؟

- لأنه لا يحب نفسه!

لم أفهم كيف لا يحب بلدٌ نفسه، تطوَّعَت هي بالتوضيح:

- لا وجود للحب في بلدٍ أعمى؛ الحب مشروط بسلامة النظر. هذا البلد لا يرى، لذا هو لا يحب، وهذا يجعله بلدًا حزينًا.

عندما أوشكتُ على سؤالها عن سبب فقدان البلد لحاسة النظر، وكيف من الأساس يفقد الجماد حاسة مخلوقة حصرًا للكائنات الحية؛ كانت قد أمطرتني بالأسئلة بأحرفٍ تتقافز فضولًا ومرحًا:

- ما اسمك؟ أين تعيش؟ هل لكَ جُحر كبير مثلي؟ أنا لم أحفر هذا الجُحر؛ وجدتُه صدفةً، ثم قررتُ العيش فيه. كنتُ أعيش قبله في مغارة صغيرة أسفل شجرة، وأنتَ هل تملك الكثير من الكتب مثلي؟ كم كتابًا أكلتَ؟ أي الكلمات تفضل؟ هل كلمات الرثاء تُبكيكَ في أثناء أكلها: أي تتساقط دموعك على وجهك؟ أنا لا أحب كلمات السباب، والكلمات الوقحة، لا آكلها أبدًا، إنها تزعجني هنا وهنا!

ثم أشارت إلى معدتها ورأسها. احترتُ بأي أسئلتها أبدأ، لم يعلق برأسي سوى سؤالها الأول، لذا كان أول ما أجبتُه:

- لا اسم لي.

فتحَت فمها دهشة، وشهقَت بقوة، وهي تقول باستهجانٍ:

- لماذا لا تملك اسمًا؟

- لأن لا أحد يناديني؛ منذ ولدتُ أعيش وحدي، كما أنني لستُ بشريًّا. الإنسان وحده يحتاج إلى اسم، بل في الواقع يحتاج إلى الكثير من الأسماء والأرقام، كي يعرف نفسه ويعرفه غيره. نحن الحيوانات تكفينا الرائحة؛ يمكنني أن أعرفكِ برائحتكِ، وتعرفينني برائحتي.

- الرائحة لا تكفي إن كنتَ آكلًا للكلمات؛ عندما تأكل المزيد من الكلمات ستفهم أن الاسم هو عتبة الهوية، دون اسمٍ أنتَ أقل من الشجر والحجر، لأن حتى الشجر والحجر لهما أسماء، دون اسم أنتَ لا شيء. أنا أيضًا منذ وِلدتُ أعيش وحدي، لكن لي اسمًا.

قالتها بفخر، ثم أضافت، وهي تشير إلى صدرها دون أن تنتظر سؤالي:

- اسمي «ري».

بدا لي اسمًا سخيفًا للغاية، لكنني بالطبع لم أخبرها بذلك:

- ولماذا «ري»؟ لماذا ليس «سي»، أو «شي»؟

فكرَت بجدية بالغة، ثم قالت:

- أشعر أن الـ «سي» عجوز فقدَ أسنانه، والـ «شي» فيه الكثير من الشر.

ثم تساءلَت بالجدية ذاتها:

- هل تراني شريرة؟

قرَّبَت وجهها من وجهي، تفتش فيه عن آثار كذب. قلتُ:

- لا، لستِ شريرة، أنتِ لطيفة للغاية، رائحتك تخبرني أنكِ فأرة ذكية كذلك، أو لعلها تخبرني أنكِ نشيطة، لستُ متأكدًا، اعذريني.. لم أشم رائحة فأرة من قبل، لكن في الواقع «ري» يليق بكِ.

كنتُ مرتبكًا، لم أكن في حضرة أنثى فأر من قبل، بشَّ وجهها، وانطلقَت تقول بمرح بينما تستغرق عيناها في تأملي:

- فلنضع لكَ اسمًا إذن. لا تبدو طويلًا كفاية كي يُناسبكَ الـ «إي»، كما أنك لا تبدو فظًا كفاية ليناسبك الـ «ضي»، ولا الـ «ظي»، وتبدو جادًا على الـ «هي»، إذن فهو الـ «كي»... اسمكَ «كي».

رحتُ أتلفظ الاسم متذوِّقًا وقْعه على سمعي، يبدو مناسبًا جدًا، قلتُ ببهجة:

- لا أعرف كيف أشكركِ، يبدو أنه خُلِق لأجلي.

- تشرفتُ بمعرفتكَ يا «كي».

- وأنا أيضًا يا «ري».

انطلقَت قافزة بسرعة هنا وهناك، تتنقل بخفة ورشاقة، ثم تعود بقصاصة ورق، قدَّمتها لي كمن يُكرم ضيفه بأجود زاده قائلة ببشاشة:

- كُلْ هذا.. سيعجبكَ كثيرًا؛ إنه من أروع الكتب هنا، كلماته لذيذة ساحرة.

ازدردَت ريقها كمن يقف في حضرة مائدة عامرة بالملذات، لم أكن في مزاج رائق لأكْل الورق، خاصةً وأن به كلمات بخط غريب، ولونًا عجيبًا؛ ليست كالكلمات الرصاصية التي كانت مكتوبة فوق القصاصات التي سرقتُها من بيت الداء.

قالت موضِّحة بحماس يتقافز في عينيها مثل طفل مشاغب:

- هذا حبر طباعة، مختلف عن أقلام الرصاص التي يكتب بها الناس هنا؛ ستجد أن طعمها ألذ كثيرًا، لا شيء يعادل الحبر في رائحته وطعامته. كُلْ .. جرِّب.. لا تخف.

لم تكن الفأرة من أهل التهويل، بالفعل كان مذاق الحبر مختلفًا، وإفرازات الكلمات آسِرة، وكأن الحروف نُسِجت من السحر، ولا تغزل إلا سحرًا، لم تكن جامدة كتلك الكلمات التي أكلتُها في قصاصات بيت الداء، بل كانت مفعمة بالروح، متخمة بالمشاعر، تفيض رقة وبشاشة، تنساب عصارتها داخل فمي برشاقة، دار رأسي كما فعل عندما تجرعتُ بقايا خمر من زجاجة ألقاها أحدهم على قارعة طريق، هل يمكن للكلمات أن تكون مُسكِرة؟

- ما رأيكَ؟

كانت تقف على قائمتيها الخلفيتين، تضم قائمتيها الأماميتين معًا في لهفة لمعرفة رأيي، وكأنها طبَّاخة ماهرة تنتظر ثناء أول متذوِّق لطعام تفننَت في إعداده.

- هذا شيء لا أجد أبجدية كافية لوصفه؛ هذه أروع كلمات أكلتُها في حياتي. ما هذا الكتاب؟

- كتاب شعر.

قالتها ببهجة كبيرة، ثم أضافت بخفوت كمن يبوح بسرٍ، وعيني لا تفارق أنيابها العلوية في أثناء حديثها:

- إنها كلماتي المفضلة.. لا يقول الشعر إلا ساحر، ولا يكتبه إلا دجَّال كلمات. كلمات الشعر معجونة بتراب مسحور يجلبه الشعراء خصيصًا من بطن شجر الأساطير، لذلك تستطيع أن تتذوقها دون أن تتمكن من تقليدها.

لم أصدق حرفًا مما تقول، رغم ذلك حديثها دافئ، ودود، أنساني برد الشتاء العنيف، انطلقَت «ري» تتقافز برشاقة من رفٍ لآخر، تشير صوب الكتب، تهتف بجزلٍ، وهي تحرك قائمتيها الأماميتين في الهواء:

- يوجد هنا الكثير منها، ما يكفي لإشباع مستعمرة كاملة من فئران الخُلد العارية إلى الأبد.
- فئران الخُلد العارية؟!

سألتها بذهول، فانطلقَت صوب أحد الأرفف تبحث فيها برويَّة، ثم تزيح كتابًا من موضعه حتى وقع أرضًا مُصدِرًا صوت فرقعة كالتي أصدرها جسدي عندما ارتطمتُ بالأرض، عكفَت على لحس قائمتها الأمامية، وتقليب الصفحات حتى وصلت إلى بُغيتها، دعتني لأجاورها فوق صفحات الكتاب، وقفتُ بجوارها أتأمل صور مخلوق يشبهني تمامًا، وكأنني أنظر إلى نفسي في مرآة، أشارت لي صوب الكلمات المطبوعة أسفل الصورة، فقلتُ لها في حرج كبير:

- إحم.. أنا لا أعرف القراءة.

انتزعَت الورقة ببساطة، مزقَتها إلى كلمات صغيرة، منحتني بعضها، وقالت وهي تُخرِج لسانها الورديَّ الصغير:

- فئران الخُلد العارية لا تقرأ بعيونها مثل البشر.. بل بألسنتها.

ثم أردفَت مشجِعة، وهي تشير برأسها صوب القصاصات:

- كُلْ.

تذوقتُها برهبة، خائفًا مما سيستقر في نفسي من معنى، ثم تتابعت الكلمات ومعها المعلومات الغزيرة عني وعنها؛ يوجد جنسنا عادةً في مستعمرات كبيرة، لنا رئة صغيرة تتكيف مع الجو الخانق للجحور الصغيرة، شعورنا بالألم أقل من سائر الحيوانات، لذا احتمالنا للألم كبير للغاية، نشرب

ماءً أقل، ولا تحتاج أجسادنا إلى فراء، والأهم أن أجسادنا لا تُصاب بالسرطان؛ ذلك المرض الذي أكلتُ عنه الكثير من الكلمات في بيت الداء، إنها مزايا عديدة، لكن في مقابلها عيب ليس له علاج؛ إننا المخلوقان الأبشع في العالم!

- نحن مميزان!

قالتها بعينين برَّاقتين، ما أراه أنا اختلافًا منفِّرًا، تراه «ري» من زاويتها تميُّزًا وتفرُّدًا. شعرتُ بالنقمة؛ «نحن قبيحان.. قبيحان جدًا!»، وددتُ لو أقول لها هذا، لكنني أخفيتُ عنها ما يُحاك في صدري. نثرتُ نظراتي في أرجاء المكان، إنها الجنة كما يليق بها أن تكون؛ جُحر كبير مملوء بطعام وفير لا ينفد، وأنثى من بني جنسي شغوفة، مرحة، عطوفة، وذكية، تمطرني بالثرثرة، ولا تتوقف عن إلقاء الأسئلة.

ولأن جنان الأرض لا تدوم؛ فجأةً سمعنا وقْع أقدام تقترب من مغارة الكتب، جذبتني «ري» من كتفي، وقالت بفزع كبير واضطراب يتسلق نبراتها:

- إنه حارس الكلمات.. يجب أن نهرب فورًا.. الآن يا «كي»!

***

(51)
فراشة سامة

سأجن، والله سأجن، كيف عرفَت اسمها؟ أنتَ نفسكَ لا تعرف أن اسم زوجتي «رتيبة»! ظلَّ هذا اللغز ينهشني حتى كاد يُفنيني، لماذا لم أسألها مباشرةً؟ هذا ما فعلتُه، أتعرف ماذا كان جوابها؟

- باغتتني هجمة ألم جديدة، مضطرة إلى التوقف عن الكتابة الآن.

كما ترى، إنها تهرب بوضوح، بريبة تثير في نفسي عواصف الشبهات، لا يمكنها أن تعرف اسم زوجتي إلا في حالة واحدة؛ هي تعرفني تمام المعرفة. التقَتني أو حدَّثها أحدهم عني، المهم أنها تحيط علمًا بأدق تفاصيل حياتي إلى درجة معرفة اسم زوجتي.

حديثها عن أنها قارئتي الأولى، ودهشتها من طريقة لقائنا العجيبة، وخوفها من أن أكون جنيًّا أو شبحًا أو عفريتًا؛ كلها ادعاءات زائفة، هذه الخيانة انغرسَت في قلبي مثل خنجر مسموم، أشد حدة من الخنجر الذي قطع عنق السيد «ك».

- لا تنصرفي الآن.. يجب أن نتحدث. أسألكِ للمرة الأخيرة، كيف عرفتِ اسم زوجتي؟ من أنتِ؟ ماذا يحدث هنا؟!

- ليس لدي جواب.

- هكذا إذن! أنا هنا على وشك الجنون، وأنتِ تخبريننني بكل صفاقة أنكِ لا تملكين الجواب! لماذا تخدعينني؟ ما غرضكِ مني؟

- لا تفعل هذا بي.. أنا لا أخدعك.

كتبتُ بانفعال وأنا أضغط بقوتي سِن القلم، كي تخمش الصفحة مثلما تدمي كلماتها صدري:

- أنتِ كاذبة.

أغلقتُ الكتاب بحدة، دسسته في مخبئه، ثم فارقتُ الغرفة المثلثة مغاضبًا، إلا أنني لم أغادر المكتبة؛ طفقتُ أهدر الوقت مجيئًا وذهابًا في الممرات الضيقة التي تصل الغرف المثلثة ببعضها بعضًا، أعصر ذهني بغية الوصول إلى أجوبة تشفي غليل أسئلة تتزايد في رأسي كخلايا سرطانية، بلا جدوى، لا يوجد سبب منطقيٌّ واحد يجعل الفتاة تعرفني، وفي الوقت نفسه تملك قدرة سحرية لفتح بوابة بين عالمينا، بين سطور رواية.

هل أكون واهمًا كما يدَّعي «رفيق»؟ هل أنا وحدي من يرى كتاباتها بين السطور؟ هل أعاني من نوع غريب من الهلوسة؟ لا أستبعد ذلك؛ ألم أخرج من محبسي، وقد فقدتُ قدرتي على شم روائح العالم؟ ألم أخرج بذراع دخيلة على جسدي؟ لماذا إذن لا أصدق أنني أصبتُ بعطب في عيني، أو تفكيري دفعني لتوهُّم ملاقاة فتاة بهذه الطريقة العجيبة؟

آلمني هذا التفكير، أن تكون الفتاة مجرد وهْم ابتدعه خيال كاتب ظِل بائس يشعر أنه مقذوف في العالم الخطأ، رغم الألم لم يسَعني غض الطرف عن هذا الاحتمال؛ أخرجتُ الرواية من مخبئها، ودسستُها خلف معطفي، ثم غادرتُ المكتبة بخطى حثيثة لا تلوي على شيء. يجب أن يرى الحوار بيننا شخص غيري، يجب أن أتأكد إن كنتُ ما زلتُ أتمتع بصحتي العقلية، أم أن مَسًّا من الجنون قد أصابني. انطلقتُ متوجهًا إلى «رفيق»، حيث مكان عمله الإضافي.

***

بنفحةٍ من الرتابة يُنشَّأ الإنسان، ينجذب إلى كل ما هو تقليدي؛ البيروقراطية تُشعِره بالأمان، حتى وإن كانت تشوه فطرته في أن يتمايز. لذا هنا في قسم «الرقابة على الكتب» كان جميع الموظفين يرتدون الزيَّ الرماديَّ ذاته، بنطالًا وقميصًا من نفس اللون والقماش، يُضاف إليهما معطف في الشتاء. كنا في منتصف موسم ماطر عاصف، لذا تدثَّر الجميع بمعاطفهم الرمادية السميكة، كلٌ يجلس أمام مكتبه الصغير داخل مكعب خشبيٍّ مفتوح السقف، لا يفسح له مجالًا لرؤية ما حوله، مانحًا لكل موظف الكثير من العزلة، لكن ليس الخصوصية؛ كاميرات المراقبة مثبتة في زوايا القاعة الفسيحة.

ثمة عامل يطوف بزيه الرماديِّ حاملًا أكوابًا تحتضن مشروبًا دافئًا تفوح منه رائحة مزعجة -كنتُ أشتمُّها قبل الحادث اللعين- عندما سألتُ «رفيق» عنه ذات مرة، أخبرني أن أعشاب «المورينجا» مشروب رسميٌّ في هذا القسم. ينتابني في هذا المكان الشعور ذاته الذي أحس به داخل مصنع السردين، وكأننا سردين بشريٌّ نُعبَّأ داخل علبة أسمنتية، هنا شعرتُ بالأمر ذاته، مع فارق التباعد النسبيِّ بين العاملين، وبالتأكيد عدم تشابه روائحهم مع روائح السردين، وإن كانت «المورينجا» في نظري أضل وأسوأ سبيلًا.

صحيح أنني نادرًا ما أزور «رفيق» في مقر عمله الإضافيِّ كرقيب على الكتب، إلا أنني أحفظ مكان المكعب الخشبيِّ الذي يعمل فيه، فتوجهتُ صوبه مباشرةً، متخذًا الكثير من الحيطة والحذر كيلا أُصدِر صوتًا يستجلب انتباه فرد الأمن الذي انخرط في عمل مجهول داخل أحد المكعبات، ولأن الضجيج ممنوع حاولتُ ضبط نبراتي لتكون في حدها الأدنى، وأنا أشير إلى «رفيق» قائلًا:

- أريدك في أمرٍ مهم.. متى ستنتهي؟

تفاجأ برؤيتي، ولم يُخفِ دهشته، قال هامسًا:

- ساعة أظن.. تعالَ انتظِرني هنا.

مكَّنتني نحافة جسدي من أن أندس معه داخل المكعب الخشبيِّ، الذي يسمى مجازًا بالمكتب، لم يكن بإمكاني الجلوس، إذ كان ثمة مقعد واحد، ولا مساحة تكفي لوضع آخر. قرفصتُ أرضًا، راقبتُه بينما يعمل، يطوف بعينيه فوق الأسطر بشكل دقيق لا يملكه عادةً في حياته التي تتسم بالعشوائية، باحثًا عن حرف أدين بجُرم هو منه براء.

- كتاب جديد؟

- رواية.. لم تنزل الأسواق بعد، أتأكد من خلوها من المخالفات.

- من الكاتب؟

أُغلق الكتاب لأرى الاسم بوضوح، أعرف هذا الكاتب جيدًا، كان منافسًا شرسًا للسيد «ك»، أو بمعنى أدق كان منافسًا لي بما أن رواياتي التي كتبتُها للسيد «ك» هي ما كانت تثير حفيظته، طافت بسمة ساخرة من عينيَّ إلى

شفتيَّ، فما كان يراه هذا الرجل منافسة كنتُ أعده محض هراء، كان ينازعني على أعمال أراها كالمخدر يسري في خلايا العقل، فتوقِفه عن التفكير النقديِّ والتأمليِّ، ما يكتبه هذا الرجل هراء بالقدر ذاته الذي تمثله كل الروايات التي بعتُها للسيد «ك».

البعض يسيء اختيار ساحات المعركة، ربما ليشعر في نفسه القوة، والجسارة على خوض غمار المنافسة، بينما مادة المنافسة في الأساس لا تسمن ولا تغني من جوع، أو مثلما كان يردد اللسان الشعبيُّ: «الجنازة حارة والميت كلب»!

- انتهيتُ، لدي وقت مستقطع نصف ساعة.. هيا بنا، فلنشرب كوبين من المرمية الساخنة في مقهى القسم، لقد انتفخت معدتي من هذه «المورينجا» اللعينة.

- لماذا تشربها إذن؟

- لا أجد سواها.

عندما تتقلص الاحتمالات؛ يسعى الناس للمفاضلة بينها، ويقفون على أكثرها احتمالًا، لكن عندما تختفي كل الخيارات، ولا يُتاح إلا واحد؛ يُجبَر الناس على اختياره، لو كنتُ «صهيل» السابق لفعلتُ مثلهم، لكنني الآن أفهم أن الاختيار الواحد يفتح الباب على احتمالات أخرى لا نهائية، كالامتناع، كالتمرد، كمخالفة التيار السائد. لو كنتُ جالسًا في هذا المكعب الخشبيِّ مكان «رفيق» لامتنعتُ عن شرب «المورينجا»، لن أقبل بشيء أكرهه لمجرد أنني لا أملك خيارًا غيره.

***

- لا أصدق ما تقول.. هل تسخر مني يا «صهيل»؟

كنتُ أعرف أن ردة فعله ستكون عنيفة، لذا رجَّحتُ أن نتوجه إلى سطح المبنى بعيدًا عن العيون والأسماع وكاميرات المراقبة.

- لا أسخر، ولا أكذب! أقول لكَ الفتاة تعرفني جيدًا.. تُراقبني، أو لعلها تُكلِّف شخصًا بمراقبتي، وجلب المعلومات إليها. هل هذا الشخص هو أنتَ يا «رفيق»؟ قُل الصدق.

- هل تشك بي يا «صهيل»؟ أنا لا أعرف أي شيء عما تتكلم عنه، ودعني أقول لكَ أنا ما زلتُ لا أصدق فكرة التقائك بفتاة مجهولة تراسلها بين سطور روايتك!

- «رفيق».. أنتَ تعرف جيدًا أنني لا أذكر أبدًا اسم زوجتي أمام مخلوق، تعرف أنني لا أتكلم عنها أبدًا.. تعرف أنني في الأساس لا أملك صديقًا غيركَ، ولا يمكن لغيركَ أن يعرف اسمها، فإن لم تكن أنت الواشي الذي أخبر الفتاة باسم زوجتي، فمن يكون إذن؟

- أقول لكَ لا أعرف شيئًا عما تقول! «صهيل»، أنتَ صديقي، ويجب أن أخبركَ أنني بالفعل بدأتُ في الشعور بالقلق عليكَ؛ لا تبدو لي طبيعيًّا على الإطلاق، منذ واقعة الخطف لم تعد «صهيل» الذي أعرفه، زوجتكَ تهاتفني لتسأل عنكَ باستمرار؛ المرأة تشعر أنكَ لم تعد زوجها الذي تعرفه.. ماذا تفعل بنفسك يا صديقي؟!

لم أجِبهُ، أخرجتُ نسختي من الرواية، التي دسستُها تحت معطفي، أعلم كم هي مغامرة خطيرة أن آتي إلى مبنى رقابة الكتب حاملًا رواية تحوي كل محظورات البلد، لكنني لم أستطِع الانتظار حتى يُنهي «رفيق» ورديته المسائية، كنتُ على حافة الإصابة بالجنون.

- قُل لي ماذا ترى بين السطور يا «رفيق»؟

أمسكَ «رفيق» الرواية بتردد، وما إن وقعت عيناه على أول كلمة حائية في السطر الأول حتى انتفض ملقيًا الكتاب أرضًا.

- هل جُننتَ يا «صهيل»؟ كيف تكتب هذا الكلام الـ... الـ..

يبدو أنه لم يعثر على كلمة مناسبة، لم أكن في حالة تسمح بتقديم مبررات، ولا طاقة تكفي لتهدئته؛ التقطتُ الكتاب من الأرض، وفتحتُ صفحاته أمام عينيه سائلًا بعنف:

- أخبِرني ماذا ترى بين السطور؟ «رفيق»، أجبني.. أرجوك.

رفض مس الكتاب، وكأنه ملوَّث بفيروس جلديٍّ قابل للانتشار والعدوى، قرَّب عينيه، ودقق النظر، ثم هتف بحدة، وهو يرجع إلى الوراء تجاد باب السطح:

- لا أرى شيئًا، لا توجد كلمة مكتوبة بين السطور؛ أنتَ جُننتَ.. جُننتَ تمامًا!

- انظر جيدًا.

- نظرتُ.. أقول لكَ لا وجود للكلمات التي تزعم أنها مكتوبة بين السطور! الفتاة وهْم اختلقه عقلكَ المريض، يجب أن تخضع للعلاج يا «صهيل»، يجب أن تمتنع عن كتابة هذه الكلمات الممنوعة. لا أصدق أنكَ تستخدم في روايتك ابن الأبجدية الملعون! يجب أن أغادر.. ابتعد عني يا «صهيل».. ابتعد عني.

غادر من فوره تاركًا الحيرة تنهش أطرافي، تسري في أوردتي مجرى الدم مثل عدوى غير قابلة للشفاء، أتطلع إلى الكلمات التي تبادلتُها مع الفتاة منذ أن التقيتُ بها أول مرة داخل صفحات الرواية. لماذا أرى ما لا يراه أحد؟ لماذا أفكر فيما لا يفكر فيه أحد؟ لماذا أصابتني لعنة الاختلاف؟ ما الذي غيَّرني في غرفة الخفير؟ لماذا لم أخرج منها كما دخلتُها؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟!

توقفتُ بغتةً، وقد لاح لي طرف خيط إن تتبعتُه قد أتمكن من العثور على الأجوبة الهاربة من أسئلتها، صحيح أنني كتبتُ نسختَي الرواية بخط يدي، لكن شخص ما ساعدني في جمعهما في كتاب؛ منحني الورق المائل للصُفرة، والغلاف الجلديَّ الأسود، والخيط الثخين الأبيض، وإبرة كبيرة الحجم لخياطة الأوراق والغلاف معًا؛ هذا الشخص هو الوحيد القادر على حل هذا اللغز، هكذا أشعر.

رغم خوفي من أن حقيقة واحدة يمكنها أن تُبدد السحر، فإنني توجهتُ إلى المكتبة الليلية، حيث حارسها الذي ساعدني قبل أشهر على جمْع روايتي بين دفَّتَي كتاب!

***

(52)

عودة الغائب وغياب العائد

- أمي!

شلَّته الصدمة، أخرَسته، أوقفَت عمل عقله، لوهلة، خُيِّل إليه أنه يرى أضغاث خيال، أو واقعًا مبهمًا مجتزأً من سياقه، رجَّته المفاجأة، زلزلته، فتمخض عنها انفعالات عاطفية مختلطة؛ سعادة، دهشة، غضب، شوق، فزع، أمل، امتنان، وسخط... الكثير من السخط!

***

قبل 24 ساعة...

عندما استعرض «مؤيد» أمام قائده المعلومات التي جمعها، ومن بينها ما سمعه من «نداء» عن اشتعال الناس منذ زمن، وأن تلك الجرائم التي تقع الآن ليست بجديدة العهد؛ لم يخبره عن مصدر تلك المعلومة بالذات، وضعها أمامه بإيهام أنها بلغَت أسماعه من رجل من أهل المنطقة، عندئذٍ أدرك أنه ما فعل ذلك إلا ليُبعد اسمها عن القضية، لسببٍ ربما لا يزال يجهله الآن، لكن إدراكه له بات قريبًا جدًا.

لم تمر ساعات إلا ودخل مكتبه رجل يرتدي بذلة أنيقة أكثر مما ينبغي، تفيد قسماته بتعبيرات غامضة أكثر مما ينبغي، ويتكلم معه بشكل رسميٍّ يشي بالخطورة أكثر مما ينبغي.

- لديكَ استدعاء خاص إلى منطقة النار.

لم يعرف «مؤيد» طوال عمره شخصًا استُدعِيَ إلى منطقة النار باستثناء قائده المباشر، والده نفسه لم يسبق له أن عبر الجدار الفاصل بين منطقة النار وسائر البلد.

سلَّمه الرجل الغامض أكثر مما ينبغي ورقة رسمية مُذيَّلة بتوقيع مجلس إدارة البلدية بأعضائه التسع، أمسك الورقة بين يديه وكأنها مخطوطة مقدسة، هكذا شعر وعيناه تنتقلان عبر الأسطر قليلة العدد مكثفة المعنى، استدعاء باسمه إلى منطقة النار، مُعيَّن بتاريخ دخول وخروج لا يجوز مخالفته، سيمضي فيها ثلاثين ساعة لا أكثر، ثم تنتهي تأشيرة عبوره.

- سأكون هناك في الوقت المطلوب، سيارتي جاهزة و...

نهض الرجل مقاطعًا إياه، ومُنهيًا لقاءهما القصير في الوقت ذاته:

- ستأتيك سيارتنا خلال ساعة.. تجهَّز لذلك.

وقبل أن يدور على عقبيه مغادرًا أضاف بلهجة هي أقرب للوعيد منها للتنبيه، رافعًا سبابته أمام وجهه:

- هذه الاستدعاءات سرية للغاية.. تعرف ذلك؟

- بالتأكيد.

تمتم «مؤيد» باقتضاب، طاف بذاكرته يوم استدعاء قائده إلى منطقة النار، كان الرجل فاقدًا لأعصابه إلى درجة دفعته لأن يخبر «مؤيد» بشيء من التهور عن هذا الاستدعاء، ويوصيه بابنتيه وزوجته إن لم تُكتَب له العودة.

هذا النوع من الاستدعاءات يبقى طي الكتمان إلى درجة تثير الريبة، عندما عاد قائده من زيارة قصيرة بعُمر ساعات لم يبدُ أن شيئًا كبيرًا قد تغير؛ كان سليمًا في تمام عافيته، ربما بقيت نظراته مشتتة لأيام، تركيزه منعدم لأسابيع، وقلَّ كلامه عن السابق، لكن كل هذه أمور لا تثير الريبة، ولا تُشعِره أن القائد قد زاده شيء أو نقص بعد زيارته لمنطقة النار، ومن جهته لم يتكلم معه في هذا الأمر قط؛ يدرك جيدًا أن قائده عضَّ أنامل الندم بسبب تهوره بإخباره، ولم يُرِد أن يُفاقِم شعوره بالسوء، فتظاهر القائد أنه لم يقُل، وتظاهر «مؤيد» أنه لم يسمع.

لكن بعد سنوات ها هو قد أتاه استدعاء مماثل، ظل عقله يطوف بين كل الأسباب الممكنة التي تدفع بمجلس البلدية إلى استدعائه، فكر في كل الأسباب الممكنة لذلك؛ لم يصل إلى السبب الفعليِّ الذي كان فوق مستوى الممكنات!

***

ركب السيارة السوداء الكبيرة التي توقفت أمام مركز رقابة الأبجدية، والتي كانت مُطعَّمة بملصقات تشي بتبعيتها لمنطقة النار، وشعار مجلس إدارة البلدية، الذي كان عبارة عن تسع أيادٍ مجتمعة في قبضة، يُؤطِّرها دائرة مؤلَّفة من كل أبناء الأبجدية، ما عدا ذاك الملعون. باستثناء الرجل الغامض أكثر مما ينبغي الذي جلس مواجهًا له، لم يكن ثمة ما يدل على أنهما متوجِّهان إلى منطقة النار، أدرك أنه أقدم على خطأ كبير عندما وثق بكلام الرجل منذ الوهلة الأولى، بادره:

- لم أرَ هويتكَ.

مرَّت ثوانٍ، ظن «مؤيد» خلالها أن الرجل لن يستجيب، إلى أن رآه يُخرِج من جيبه بطاقة رمادية أنيقة لها إطار معدنيٌّ فضي اللون، لم تُفِد «مؤيد» كثيرًا، إذ إنه لم يعثر فيها إلا على اسم الرجل وشعار مجلس البلدية، لا شيء يُبيِّن وظيفة الرجل أو موضعه من إدارة المجلس؛ ردَّها إليه خائبًا، ثم أنفق الوقت في تأمُّل الطريق الطويلة، ملتزمًا الصمت ذاته الذي عمَّ على الرجل والسائق.

ساعة وكسرها، وكانت السيارة قد توجَّهت صوب المنفَذ الرئيسيِّ لمنطقة النار؛ ارتبك، إذ إنه لم يكن يملك سوى هويته، وورقة الاستدعاء التي أبقاها في جيبه، هل يكفي ذلك لعبوره؟ لم يجد الوقت الكافي للتفكر في الجواب، أخرج الرجل هويته، مرَّرها ضابط المنفَذ على جهاز المعاينة، فأصدر صوتًا، تتابعت البيانات على شاشة الجهاز، بينما الضابط منغمس في القراءة والتدقيق، وما إن انتهى أشار إلى زملائه، كي يدعوا السيارة تمر، لكن ليس قبل نزول «مؤيد» من السيارة وتفتيشه ذاتيًّا.

عبرت السيارة أخيرًا الجدار الذي كان يراه في أثناء نومه في صغره، يخوض مغامرات عديدة يتخيلها تدور من خلفه؛ الجدار الذي كانت أمه تقول له عنه كلما سألها:

- ما الذي يخبئه الجدار يا أمي؟

- الجدار لا يخبئ شيئًا، لا نريده أن يختفي يا بني، لأنه جماد لا يفكر؛ ما نرغب في اختفائه نرميه وراء الجُدر.

تتابعت المشاهد أمام عينيه على جانبي الطريق، لون أصفر زاهٍ بالرمال، وجبال صغيرة تمسك بيدَي بعضها بعضًا، وكأنها خرجَت للعب، وما إن انتهَت سلسلة الجبال تبدَّى اللون الأخضر للزرع والشجر، يتضافر أوله مع الأصفر الذي يسبقه، ويتضافر آخره مع الأزرق الذي يتبعه، ماء يكسو الأرض على مسافة كبيرة؛ ماء يأكل اليابسة، أو يابسة تشرب الماء، أمواج عالية لم ترها من قبل رؤى العين؛ هذا الماء.. هذا الموج.. وقع في نفسه أنه يعرف اسم هذا الشيء الخلاب، إلا أنه لا يستطيع نطق الكلمة، لا يستطيع تخيُّلها، نفَّضها عن ذهنه، وكأنه على وشك اقتراف جريمة لا تُغتفَر. لم يصدق أنه بالفعل داخل منطقة النار؛ المنطقة التي يستقر في نفوس أهل البلد عنها أنها قطعة من جهنم!

***

كان المبنى الرئيسيُّ مهيبًا من الخارج، بعظمة ديكوراته وتقسيماته الداخلية، في الطابق السابع توقف المصعد، سيق «مؤيد» صوب قاعة شاسعة، مجهَّزة بأناقة ومخصصة للاجتماعات، على طول الطاولة الأبنوسية الممتدة، كانت جميع المقاعد شاغرة، إلا مقعدًا في الصدارة يشغله رجل مهيب الهيئة، عظيم الشأن، تلمع نظراته بذكاء متقد، وتشع ابتسامته بودٍ لا يخلو من الصرامة، أشار لـ«مؤيد» بالجلوس على المقعد المجاور له، ثم أومأ برأسه صوب الرجل الغامض أكثر مما ينبغي لينصرف.

خلَت القاعة العظيمة إلا منهما، جالت نظرات «مؤيد» تُقلِّب الزوايا والأغراض؛ شعار كبير لمجلس البلدية يتصدر الجدار الأماميَّ، إطار أنيق يزين جدارًا آخر به صورة قديمة لتسعة رجال، لم يفكر كثيرًا ليدرك أنهم قادة مجلس البلدية، فوق المكتب يستقر اسم الرجل المهيب الذي يجلس بجواره، داخل إطار مذهَّب وبخط أنيق.

بالتدقيق في الوجوه التسعة، ثم الطواف فوق قسمات الرجل بدقة، مراعيًا بصمات الزمن التي يتركها فوق كل أرض يطؤها؛ قدَّر «مؤيد» أن الرجل الجالس بجواره الآن هو ذات الثالث الذي يقف إلى يمين الصورة. أكسبَه ذلك المزيد من التوجس والرهبة، أي خطأ ارتكبه جلب به إلى هذا المكان؟!

طُرِق الباب فانتفض بخفةٍ، استخفَّ بردة فعله اللا إرادية، فتصنَّع الاعتدال في مقعده واضعًا ساقًا فوق أخرى، دخل الساعي يضع أمامهما مشروبًا دافئًا يتصاعد منه عبيرٌ ذكيٌّ، دفع بعضلاته المتشنِّجة إلى الاسترخاء شيئًا فشيئًا، ثم وضع الساعي بجوار فنجانه طبقًا من المأكولات المقطعة بشكل دقيق، مبهجة الألوان، لا يعرف لها اسمًا. أشار إليه الرجل المهيب كي يتذوقها، ففعل بغير رغبة، إلا أن طعمها المسكَّر في فمه جمَّده في مكانه، وأفرز هرمون الفزع عبر عروقه، فتزلزل قلبه، رمق «مؤيد» الرجل المهيب متوجسًا، فقال الرجل دافعًا خلايا جسده لإفراز المزيد من الهرمونات الفائرة:

- إنها «الحلوى».. لذيذة، أليس كذلك؟ «أحرص» على تقديمها لمن يتخطون «حاجز» منطقة النار لأول مرة.

طرقَت أسماعه ثلاث كلمات لابن الأبجدية الملعون، بل وأكل بعضها أيضًا! يا لها من خيانة للقانون الذي عاش عمره يصونه، لزملائه، لقائده، للناس، ولنفسه!

لم تهتز شعرة في رأس الرجل المهيب، وهو يطالع أمارات متناقضة فوق وجه «مؤيد»، مراقبًا صراعًا نشب في عينيه، وامتد إلى نخاع عظمه، تشنجت عضلات رقبته، وضم قبضتيه بقوة. كان الرجل معتادًا على ردَّات أفعال أسوأ من أي زائر يلتقي لأول مرة مع الممنوعات التي آمن طوال عمره أنها تمثل تهديدًا مخيفًا، وتُخلِّف آثارًا مفزعة، لذا قال بهدوءٍ بينما يُشبك أصابع كفَّيه فوق الطاولة الأبنوسية:

- للعقل قسم غير قابل للتمدد، وهو العقل الغريزيُّ الذي نشترك فيه «نحن» البشر، وقسم يتمدد بالتجارب و«الأحداث»، وهو العقل التجريبيُّ، وفيه نختلف عن بعضنا بعضًا كثيرًا، لذا أنا مدرك للتخبط الذي تشعر به الآن.

تتابعت الكلمات الممنوعة من فم الرجل لتصب في أذنيه نارًا ملتهبة، شعر بالدم يصعد إلى رأسه، يُطوِّقه بقوة لا تتزعزع، كل كلمة ممنوعة يسمعها تشكل ما يشبه كيسًا دهنيًّا مزعجًا لا سبيل للتخلص منه إلا بفقئه، ودَّ لو يملك آلة مدببة قادرة على اختراق كل الكلمات الممنوعة، فتموت على لسان الرجل قبل أن ينطق بها.

أخيرًا عثر على صوته الضائع، فنطق للمرة الأولى منذ أن دخل القاعة:

- سيدي، أنتَ تعرف جيدًا أن مثل هذه الكلمات ملعونة في منطقتنا؛ لا يمكن قراءتها أو كتابتها أو سماعها أو النطق بها، لذا اعذرني إن كنتُ أشعر بالانزعاج عند سماعها، بل ولربما بأكثر من الانزعاج، شعوري أقرب إلى الاشمئزاز والغضب!

استرعاه شيءٌ من الندم، فالرجل في النهاية قائد في مجلس البلدية، وإغضابه ليس صائبًا أبدًا، لكن وعكس المتوقع أبدى الرجل تفهمًا عن طريق إيماءة صغيرة برأسه، واستطرد بهدوء ورزانة:

- كنتُ لأسألكَ إن كنت تعرف «مسرحية» نهر الجنون لتوفيق «الحكيم»، لولا أنني أعلم جيدًا أن كل ما يخص «المسرح» ممنوع في منطقتكم، لذلك دعني أخبرك عنها مباشرةً.

أسند ظهره إلى الوراء، وكأن كلماته القادمة ستستغرق وقتًا أطول مما يُخال لـ «مؤيد»:

- باختصار، تحكي المسرحية عن ملك رأى في منامه أفاعي سوداء تهبط من السماء، وتسقط في النهر لتسكب في مائه سُمّها، فيُحال الماء إلى لون الليل، ثم سمع مناديًا يقول: «حذار أن تشرب بعد الآن من نهر الجنون»!

«مؤيد» الذي تربَّت ذائقته على قصص وأساطير أمه، شغفته كلمات القائد المهيب، فصبَّ عليها كل تركيزه. استطرد القائد:

- ورغم أن الملك بعد استيقاظه من النوم قد حذَّر الملكة من الشرب من ماء النهر، فإن الوزير أتاه، وأخبره أن الملكة قد شربت منه، ففقدت عقلها؛ طالب الوزير بإحضار كبير الأطباء لإنقاذ الملكة من الجنون، لكن الوزير فاجأه بأن كبير الأطباء فقد عقله بعد أن شرب بدوره من ماء النهر، فرأى الملك أن إنقاذ كل هؤلاء قد يكون على يد كبير الكُهَّان، فطالب الوزير بإحضاره، لكن الوزير فاجأه بأن كبير الكُهَّان كذلك من الشاربين، وأنه لم يبقَ على ظهر المملكة أحد لم يشرب من نهر الجنون سوى اثنين فحسب؛ هو والملك. وفي الوقت الذي قررا فيه أن يذهبا إلى معبد القصر من أجل الدعاء بالشفاء لجميع من في المملكة،

كانت الملكة وكبير الأطباء وكبير الكهنة يتباحثون في أمر الجنون الذي أصاب الملك والوزير!

صمت القائد قليلًا موفرًا الفرصة لـ «مؤيد»، كي يستوعب ما قاله، من أجل إدراك ما سيقول، ثم استطرد:

- كما ترى.. كلا الفريقين يرى أن الآخر قد أُصيب بالجنون؛ الملك والوزير يؤمنان أن جميع من شرب من ماء النهر مجنون، ومن شربوا من النهر يدَّعون أن الملك والوزير فقدا عقليهما، لأنهما لم يشربا من ماء النهر.. أيذكرك هذا بشيء؟

لم يكن «مؤيد» غبيًا ليعجز عن إدراك مقصد القائد، إلا أنه عصف وزمجر:

- هذه نقرة، وتلك نقرة أخرى! لم يطلب الناس منع ابن الأبجدية الملعون من تلقاء أنفسهم؛ وصلوا إلى هذا القرار بعد صراع طويل، ودمار مريع، ودماء تغسل الشوارع والميادين كأنها ماء المطر، والدليل: انظر إلينا الآن؛ لم نعِش صراعًا قط منذ أن عمَّرنا البلد الجديد بالقانون الجديد، فكيف تقارن سيادتك ذلك بنهر الجنون؟!

- صحيح، لم تعيشوا صراعًا جديدًا بعد القانون الجديد، هذا لأنكم لم تعودوا تعيشون على الإطلاق؛ فقدتم أهم مقومات الحياة، بل جرَّمتم الحياة ولفظتها!

العناد الذي أبداه «مؤيد» تجاه كل ما يسمعه، والنفور الذي لم يُخفِه عند سماع كل كلمة ملعونة يتلفظ بها الرجل دفعاه لأن يقول:

- هل جئتم بي إلى هنا من أجل إقناعي أننا مجانين، وبضرورة تخلينا عن كل ما نؤمن به لنكُن من العقلاء.. مثلكم؟

- كلا، بل ليستمر هذا الجنون.

تشوَّش «مؤيد»، وتاهت أفكاره مفتِّشة عن مقصده ونيته، قال القائد دون أن يترك له فرصة التأويل:

- جنونكم يحمينا ويحميكم، لا أحد ينكر ذلك. وكل ما سعينا إليه، وما زلنا نسعى له أن يستمر الحال على ما هو عليه، لكن يبدو أن هذا يزعج

البعض، يبدو أن هناك من يسعى لشفائكم من الجنون... وهذا ما لا نرغب به أبدًا.

قالها بصرامة كبيرة، ورغم اعتراض «مؤيد» على لفظة «الجنون» المهينة، فإنه والرجل يتفقان في أمر أكثر أهمية، ألا وهو إبقاء الأمر على ما هو عليه.

- الجميع اختار مساره قبل ثلاثين عامًا، وعلى كل من اختار أن يسير إلى نهاية طريقه مهما يُكلَّف الأمر، أظنكَ تتفق معي في ذلك يا جناب الشرطي؟

- بالطبع أتفق.

ثم أردف «مؤيد» بجدية:

- ما زلتُ لا فهم سبب استدعائي إلى هنا!

- حوادث الاحتراق.

الآن بات «مؤيد» قادرًا على ربط الوقائع، هذا الاستدعاء بسبب القضية الغامضة إذن، استطرد الرجل بجدية مماثلة:

- حوادث الاحتراق هذه لم تحدث على يد قاتل عشوائيٍّ، أو حتى قاتل متسلسل؛ نظن أنها عملية ممنهجة.. محاولة للاستشفاء.

- ماذا تقصد سيادتك؟ ثم إنهما واقعتان فقط.. لماذا كل هذه الضجة على وقائع فردية؟!

ما زال يتذكر ما أخبرته به «نداء»، لذا أراد أن يستجلب المزيد من المعلومات من فم الرجل الذي قال ببساطة:

- ليست أول مرة؛ هذه الحوادث تقع منذ فترة، كنا نبقيها تحت السيطرة، لكن مؤخرًا ازدادت وتيرة هذه الحوادث، وأُقحِمت شرطة رقابة الأبجدية في الأمر، لذلك انتشر خبرها سريعًا بين الناس.. مع الأسف.

- ماذا تقصد بأنها كانت تقع منذ فترة؟ لم نسمع عن شيء كهذا قط.

- لم تسمع، لأننا لم نرغب في أن تسمع، كنا ننظف خلف هذه الجرائم بدقة وسرية تامة عن طريق فرقة خاصة من مركز جرائم القتل، يخفي آثار الجرائم، ويتولى أمر دفن الجثث سرًا، مدعيًا أنهم مجرمون مدانون بجرائم ضد الأبجدية، وأُقْتِيدوا إلى خط النار لنيل عقابهم، فتنغلق

الملفات سريعًا؛ هكذا أبقينا الأمر تحت السيطرة طوال هذا الوقت، لكن في آخر حادثتين رأيتَ بنفسك أن الحرف الذي تلعنونه كان ظاهرًا بوضوح في مسرح الجريمة؛ تعمَّد الفاعل هذا كي يشرككم في الأمر، كي تخرج الأمور عن السيطرة. وأنتَ هنا كي نتعاون لكيلا يحدث ذلك.

أدرك «مؤيد» خطورة الوضع، لكن بقي شيء واحد غاب عن إدراكه. تساءل:

- ماذا تريدون مني بالضبط؟ ليس لدي أي معلومات أكثر مما يملك الجميع، لم أتوصل إلى شيء عن الفاعل، ولا أدق معلومة بإمكانها أن تكشف لنا عن هويته.
- أعرف ذلك، لكن هناك من يملك هذه المعلومة، وهذا الشخص رفض التحدث مع الجميع.. وطلبكَ بالاسم.

سأل «مؤيد» باستغراب شديد تملَّكه:

- من يكون هذا الشخص؟

***

- أمي!

أخرسَته الصدمة، جمَّدته في موضعه، انغلق الباب من خلفه، فخلت الغرفة إلا منهما؛ وجهها الذي يُبقيه في أعمق نقطة من قلبه، عيناها اللتان افتقد بريقهما طوال أيام وأسابيع، صوتها، عبيرها، لهفتها، عناقها.

اندفعَت صوبه تعانقه بقوة آسِرة، وكأنها تخشى أن تتباعد بينهما المسافات من جديد، تُغرق كتفه بماء عينيها، وتعانق اسمه شوقًا ولهفة، بادلها شوقًا بشوق، ولهفةً بلهفة، انسكبَت عبراته فوق كتفها، وقد شعر أخيرًا أن بعضه المبتور قد عاد إلى جسده.

***

مصنع الكلمات

«العلاج الأكيد للمرض الذكوريِّ بشأن ازدراء الذات،
هو أن تحبك امرأة ذكية».

نيتشه

تتنفس الأسماك، لكنها لا تغرق، لأن خياشيمها تلتقط الأكسجين الموجود في الماء، لا المُكوِّن للهواء.

يسير السلطعون بشكل مائل، كي لا تتشابك سيقانه الثمانية.

أشواك الصبار تُبعد عنها الحيوانات الجائعة، وتُمكِّنها من التقاط قطرات الندى.

يتحول لون السماء إلى برتقاليٍّ عند المغيب، لأن الهواء المُغبَّر يمتص أشعة الشمس، ويُمرِّر فقط الأشعة البرتقالية والحمراء لأطوالها الموجية الطويلة.

لو لم تكن أجنحة الفراشات ملونة وجميلة لما تعرَّفت إلى بعضها بعضًا، ولما وجدَت لنفسها رِفقة.

أكلتُ الكلمات حتى أصبتُ بالتُّخمة، اقتطعتها «ري» من موسوعة معلوماتية ضخمة تقع في الرف الأخير القريب من السقف، كانت ثقيلة جدًا لم تستطع إيقاعها أرضًا ولا بمساعدتي، لذا اقتطعَت لي منها كلمات غنية بإفرازاتٍ شهية، علمتني الكثير، لكنها تظل كلمات جامدة، ليست بروعة الشعر الذي أطعمتني إياه في لقائنا الأول.

أنا وقعتُ في حب «ري»، أحبها كما لم أحب فأرة من قبل، صحيح أنني لم أرَ فأرة من قبل فضلًا عن أن أحبها، لكنني أشعر أنني لو كنتُ وسط مستعمرة كاملة من فئران الخلد العارية، لما أحببتُ فأرة غير «ري».

لم أخبرها بذلك، في الواقع لم أخبرها بأي شيء، إذ إنها لا تتوقف عن الكلام أبدًا، تُمطرني بالمعلومات الوفيرة عن مغارة الكتب، وعن البلد وأهلها، لم أمل الاستماع لها، انجذبتُ لحماستها، بشاشتها، رشاقتها، ضحكتها البهيجة، وأفكارها الجنونية.

- «كي»، انظر ماذا وجدتُ.. كتابًا عن البحر. هل تصدق أن أهل هذا البلد الحزين يخافون البحر؟ يحيطونه بسور عظيم، كي لا يُكشِّر عن أنيابه ليلًا، ويخرج عليهم ليأكلهم، مثل: النداهة التي كانت تخرج على الناس ليلًا في مزارع القرى. هل تصدق أن البحر يأكل البشر؟ لم آكل هذه الكلمات في أي كتاب من قبل، هل أكلتَها أنتَ؟
- ربما لا يخافونه هو، بل ما يتقيأه من بطنه.
- لا أعرف يا «كي»، البشر يخافون كل شيء إلا الشيء الوحيد الذي يجب عليهم أن يخشوه.
- وما هو؟
- أنفسهم.. في رأيي لا شيء يجب أن يخيف الإنسان أكثر من نفسه.
- في رأيي يجب أن ينزع كل مخلوق الخوف من قلبه.
- من لا يخاف لا يبالي، ومن لا يبالي لا يحب.

كل المشاعر عند «ري» تتجمع في عقدة واحدة ألا وهي الحب؛ هو مبتدأ الحياة ومنتهاها، مَنبت الأفكار وثمرتها، قلتُ وأنا أحك رأسي:

- بصراحة معهم حق في الخوف منه؛ ذات مرة تسلَّقتُ السور الذي يحبس البحر، سرتُ مسافة طويلة حتى وصلتُ إليه، وهناك شعرتُ بالفزع. البحر شره يا «ري».. يبتلع البشر والحجر!
- الإنسان أكثر شراهة يا «كي»، يبتلع الأمل والحلم والخير في بطنه، ثم يتظاهر بالبحث عنهم.
- في البحر أسماك مفترسة يا «ري».
- لكنه جميل.

قالتها بهيام، عنيدة هي، راقبتُها بينما تُقلِّب صفحات الكتاب مستغرقة في تأمل صور البحر، تأكل قضمة منه، وتتخيل نفسها تلوك الماء المخلوط باليود. قلتُ:

- الناس هنا بنوا لأنفسهم بلدًا مثاليًّا بلا بحر... بلا حيوانات تقاسمهم الماء والزاد. لو كنتُ بشريًّا لشعرتُ بالامتنان لهذا الحال.

- مثاليًّا!

صاحت «ري» باستهجان كبير، اعتدلَت في جلستها، واتخذت وضعية متحفزة، وهي تقول:

- لا يوجد فكرة أحمق من محاولة إنشاء المجتمعات المثالية. إنه حلم قديم قِدم الزمن. دولة لا بؤس فيها ولا فقر ولا جوع، ولا ظلم ولا جشع، ولا ألم ولا مرض، ولا خطر ولا صراع، ولا خلاف ولا حرب.. هذا لا يكون بلدًا بل مقبرة!

- كيف هذا؟

- لأن الوصول إلى حالة الكمال يستلزم الثبات والسكون: أي أن لا شيء يتجدد.. لا شيء يتغير.. لا الأحلام ولا الآمال ولا الرغبات، ولا الآراء ولا الأفكار، لكي تصل ببلدٍ إلى حالة كمال، يجب أن تُلزِم أهلها بطبيعة ثابتة راسخة لا تُفرق بين صغير وكبير، قوي وضعيف، عجول وبطئ، محتاج ومكتفٍ، نافر ومشتهٍ؛ على الجميع أن يحلموا الحلم نفسه، ويشتهوا الشيء نفسه، ويمروا من الطريق نفسها، يُقلِّبون الزمن، ولا يُقلِّبهم. بربكَ يا «كي».. ألا يُخرجهم هذا الثبات من إنسانيتهم؟ ألا يعد هذا الركود موتًا؟

- أيعني هذا أن الناس لن يكونوا سعداء أبدًا؟

- بإمكانهم أن يكونوا سعداء، لكن ليسوا مثاليين. أتعرف يا «كي»؟ ذات مساء، أكلتُ في كتاب مجموعة كلمات تحكي عن زمن قديم كان فيه رجل يُدعى «أفلاطون»، يتخيل أن الناس في العصور القديمة كانوا يعيشون سعداء طوال الوقت، ولكن في هيئات كروية، وذات يوم انقسمت كل كُرة إلى قسمين، ومنذ ذلك الحين يحاول كل نصف أن

يعثر على نصفه الضائع، كي تكتمل سعادته، ويعود إلى حالة التكوُّر والاكتمال.

وددتُ لو أقول لها هيا بنا نصير كُرة واحدة من جديد، فأنتِ نصفي الضائع الذي أبحث عنه منذ الأزل، لكنني لستُ جيدًا في استمالة إناث فئران الخُلد العارية، خبرتي في هذا المجال صفر، وكلمات الغزل التي أكلتُها في كتاب الشعر لا تليق بفأرة ذكية مثل «ري».

بغتةً، سمعنا أقدامًا تقترب، إنه حارس الكلمات من جديد، لم أنتظر تحذيرًا هذه المرة، بنظرة واحدة تبادلناها قفزنا من فورنا، واختبأنا داخل علبة كرتونية كبيرة في إحدى الزوايا البعيدة، تتخذ منها «ري» مخبأً في حالة نزول حارس الكلمات إلى مغارة الكتب.

تقول «ري» إن حارس الكلمات هو أهم رجل على ظهر الكوكب، طبعًا لم تخرج «ري» خارج هذا البلد الصغير، فضلًا عن التجول في أرجاء الكوكب، كي تقارن بين رجاله وتنتقي أفضلهم، لكنني أصدقها، ومن يكون أكثر أهمية من حارس الكلمات؟

تقول «ري» إن مهمة حارس الكلمات هي الحفاظ على الكتب هنا في المغارة، يفعل ذلك منذ عشرات السنين، لولاه لكان مصير كل هذه الكلمات التي تحيط بنا أن تُلقَى عبثًا في بطن النار، وتخرج من أمعائها رمادًا بلون العدم.

لا أتخيل حال الكون لو اختفت منه كل الكلمات، كيف سيتمكن البشر من مواصلة العيش؟ إنهم أسراب تمشي إلى نهاية الطريق منذ اللحظة الأولى التي نشأ فيها هذا الكون، يمدون أياديهم عبر المكان والزمان متشبثين ببعضهم بعضًا، الرابط الوحيد الذي يُلصقهم بأسلافهم وأخلافهم هو الكلمات، لولاها لتفكك البشر.. لصاروا نجمات تائهة تسبح منفردة في مدارات الفضاء.

- أتعرف يا «كي»؟ ما يأكله الإنسان، وما يشربه، وما يلبسه، والأماكن التي يتردد عليها، وهواياته التي يمارسها، وشغفه الذي يسوقه، والتقاليد التي يتبعها، والأشخاص الذين يختار أن يصافحهم؛ كل ذلك يرسم ما يجب أن يناضل هذا الإنسان لأجله، وما يجب أن يخاف منه.

لم أفهم ما ترمي إليه، لكنني لم أشأ أن أبدو أمامها جاهلًا، هززتُ رأسي في وقار قائلًا:

- صحيح يا «ري»، فأكل البطاطس مختلف كثيرًا عن أكل الباذنجان، مثلًا: أنا عندما آكل الباذنجان أصاب بانتفاخات عجيبة، وعندئذٍ لا أخاف شيئًا كالمرض.

تأملتني ثانيتين، ثم انفجرَت ضاحكة، شعرتُ بالحرج.. الكثير من الحرج، ثم دون أن أدري شاركتُها الضحك، المرة الأولى التي ينتابني فيها الضحك، ربما منذ.. منذ أن ولدتُ.

تركَت كتاب البحر، واقتربَت مني، رمقتني في ابتهاج قائلة:

- «كي»، أنتَ مُسلٍ جدًا.

- «ري»، أنا أحبكِ جدًا.

ما إن أُفلِتَت هذه الكلمات من فمي حتى شعرتُ بها هزيلة ومبتذلة، ككل اعترافات الحب التي أكلتُها في الكتب، كلمات ردَّدتها ملايين الأفواه على مسامع الزمن، ولاكتها ملايين القلوب حتى أصبحَت مموَّهة المعنى، اخترعها أول قلب رقَّ واسترق، ثم لم تعرف قلوب من جاؤوا بعده كيف يخترعون كلمات مماثلة، فاتخذوه عرَّابًا، ومن كلماته مَعلمًا وكتابًا.

هل تبدو «ري» مدهوشة؟ هل قسماتها سعيدة؟ هل تضحك عيناها؟ هل ترتجف قائمتاها؟ هل يتقافز قلبها بين ضلعيها، أم أنها أوهام تُخيَّل إليَّ؟ لماذا ستشعر «ري» أن «أنا أحبكِ جدًا» مختلفة عن كل المرات التي ترددَت فيها على أسماع الكون منذ خلق الله الحب على ظهر أرضه، خاصةً وأنها آكلة للكتب نهمة جدًا؟ لا بد وأنها أكلَت كلمات مجنون لبنى، ومجنون ليلى، وهضمَت قصة كثير وعزة، وجميل وبثينة، ومرَّرَت لسانها فوق كلام الناس المحبوس في بطون الكتب عن أبي نوَّاس وجنان، وأبي العتاهية وعتبة، وابن رهيمة وزينب، وابن زيدون وولادة بنت المستكفي، وتوبة والأخيلية، وشاه جهان وممتاز محل الذي بنى لحبيبته أحد عجائب الدنيا «تاج محل»، فماذا بإمكاني أن أبني لـ «ري»؟

كان عليَّ أن أفكر في عبارة أكثر تميُّزًا، وأقل استهلاكًا؛ كأن أقول لها -مثلًا- إن الكلمات تفقد مذاقها عندما آكلها وحدي، أو إن ضحكتي الأولى وُلدَت بين عينيها، أو إنني كنتُ أعيش شفَّافًا حتى لوَّنتني هي، أو إن مغارة الكتب تبدو باردة للغاية عندما تُفارقها، أو إن نصفي التائه يشتهي الوصل كي يتكوَّر وتكتمل سعادته، أو...

- لا يُجمِّل قُبحي إلا قُبحكِ.

قلتُ ذلك شاعرًا أنها عبارة مميزة لم ينطقها غيري، مميزة وحقيقية للغاية، لكن مهلًا، لماذا فرَّت الدهشة، وحلَّ مكانها الصدمة؟ لماذا تجعَّدَت قسماتها، وتهدَّل كتفاها، وانطفأَت الضحكة في عينيها؟

- أنا قبيحة؟!

خرجَت كلماتها مرتجفة، متألمة، الحزن يُخيِّم عليها.

- «ري»، أنا...

- هل أنا قبيحة؟

فكرتُ أن أكذب، ثم تذكرتُ الكلمات التي أكلتُها عن الصدق المُنجِّي. قلتُ بأشد نبراتي الفئرانية حلمًا وإشفاقًا:

- «ري»، تعرفين أننا قبيحان جدًا. لقد أكلتِ مثلي الكلمات التي يكتبها البشر عنا. نحن أقبح مخلوقين في العالم.. لستِ وحدكِ قبيحة؛ جنسنا كله قبيح للغاية. انظري إلى نفسكِ في بركة ماء؛ جسد بلا فرو.. جلد مترهل.. أنياب بارزة.. عيون صغيرة.. أنف أفطس!

ثم أضفتُ بسرعة:

- رغم قبحكِ، فأنا أحبكِ.

رحل الحزن، وحلَّ محله الغضب؛ قفزَت بعصبية منتقلةً بين الأرفف بسرعة جنونية، تجذب كتابًا صغيرًا، تجره بأنيابها، تلقي به أمامي، ثم تدفع بي صوب مخرج مغارة الكتب، وتقول:

- خذ هذا الطعام، سيكفيكَ لفترة.. ولا تعد إلى هنا مرة أخرى.

ثم أضافت بصرامة بينما عبرة مالحة تلمع في إحدى عينيها:

- أبدًا.

ثم قفزَت مسرعة، وتوارَت خلف أحد المجلدات الكبير، لم أرَها، إلا أنني على ثقة بأنها تبكي، طعن الألم قلبي، أمسكتُ بالكتاب، لا رغبة في جمع الطعام قبل الرحيل، بل لأنه هدية من «ري». أمسكتُه بأنيابي النافرة، ثم غادرتُ مغارة الكتب حزينًا أجر أذيال الألم والخيبة.

لقد اشتقتُها من الآن...

***

(53)
الأفعوانية

البشر المصنوعون من أحرف أبجدية كاملة هم الأجدر على التلاعب بالكلمات، ينخلون الأحرف الصغيرة، ويفصلون المنقوطة عن غيرها، ثم يطبخونها على نار محايدة، لا هي بالحارة ولا هي بالباردة، وعندما تغلي الأحرف وتتمازج أطرافها تُصَب في قوالب جاهزة، الكلمات التي تسقط من القالب، وتتمرغ في التراب؛ وحدها تكون مبتكَرة وناضجة.

ولأنني مصنوع من أحرف أبجدية كاملة، وأتلذذ بطبخ الكلمات فوق نار محبَّة خالصة؛ شرعتُ في الكتابة فور أن دخلتُ المكتبة الليلية، تخيَّرتُ إحدى غرفها المثلثة القريبة من النافذة الوهمية، طقسٌ مقدسٌ حرمتني منه الأحداث الدسمة التي جرَت في أعقاب الأيام الماضية.

شعرتُ نفسي أهدأ، وروحي أهنأ، فغادرتُ الغرفة المثلثة متوجهًا إلى حارس المكتبة عند مكتبه الدائريِّ في المنتصف، لم يبدُ له طرف، فرجعتُ خائبًا إلى مقعدي، أستمر في الكتابة إلى أن ظهر الحارس على عتبَتي، بهدوئه المعتاد، ورصانته ودِقة حركته، استوقفتُه قائلًا:

- هلَّا تكلمنا قليلًا.

فلما بدا لي منه شيء من التردد أضفتُ:

- من فضلكَ.

أومأ برأسه، جلس فوق مقعد صغير في مواجهتي كنتُ أحسبه لصغر حجمه وخفة شكله أنه موضوع للزينة، لا أدري كيف تمكن هذا المقعد الصغير من حمل هذا الرجل البالغ، بلا أنين، بلا زمجرة، بلا حراك، وكأن الرجل في خفة ريشة!

- هل تذكر روايتي التي ساعدتني في جمعها داخل كتاب؟ جلبتَ لي الورق والغلاف الجلديَّ الأسود، صنعتُ منها نسختين.. هل تذكر؟

يعرف الحارس أنني كتبتُ رواية ممنوعة، فلا يوجد في قوانين المكتبة الليلية ما يمنع الكتابات المحظورة، فقط ممنوع الاحتفاظ بها فوق رفوف المكتبة، لذا كنتُ أحمل ما أكتبه من روايتي معي، وأخبئه خارجها، فكل الكتب من حولنا أليفة مُصرَّح بقراءتها وتداولها، ربما لأنه في قرارة نفسه يخشى أن ينكشف أمر ممارساته الإجرامية يومًا، لذا لا أحد يعرف موضع الباب المؤدي إلى القبو سواه.

أومأ برأسه إيجابًا باخلًا بصوته، فاستطردتُ بشغفٍ ولهفة:

- هل ثمة شيء غير عاديٍّ متعلق بالورق أو الجلد أو الخيط؟ أعرف أن سؤالي لكَ يبدو غريبًا، لكن هناك شيء عجيب يدور ليس بإمكاني فهمه أو تفسيره. قلتُ لنفسي.. يعني افترضتُ أنكَ ربما تعرف.

- أعرف ماذا؟

عجزتُ عن الإجابة عن سؤاله الواضح بوضوح مماثل، لو عرف أنني أُبقي إحدى النسختين هنا خلف نافذة الممر، وأنني أدخل وأخرج بها إلى مكتبته، لألقى بي إلى الخارج في الحال، ولمنع عودتي إلى هنا مرة أخرى، وهذا ما لا يمكنني المخاطرة به أبدًا. قلتُ:

- هل سمعتَ من قبل عن رجل التقى بامرأة بين سطور رواية؟ هل رأيتَ من قبل كتابًا قادرًا على أن يكون جسرًا بين عالمين؛ كلٌّ منهما يدور في مكان مختلف؟ هل ثمة وسيلة يلتقي بها إنسان بآخر في المسافات الفاصلة بين الكلمات وبعضها؟ هل هذا ممكن؟ وإن كان هذا ممكنًا، هل ثمة وسيلة غرائبية أخرى تُمكنهما من عبور الجسر كي يلتقيا في الواقع؟

لو صاح بي الحارس الآن قائلًا: «مجنون!»، ثم ألقى بي خارج مكتبته لما اندهشتُ، إن لم يكن ما أقوله هو الجنون، فماذا يكون إذن؟! بدا الحارس أكثر تهذيبًا من أن يصيح بي: «مجنون!»، وأكثر كرمًا من أن يطردني خارج مكتبته صافعًا بابها، إذ قال بهدوء:

- لا أعرف إن كان ما تقوله قابلًا للتجسد في الواقع، لكن ما أعرفه جيدًا أن الواقع كثيرًا ما يكون أغرب من الخيال.

كان مصيبًا في حديثه، إلا أنني لم أصل بعد إلى شيء متعلق بهذا اللغز اللعين، الذي كاد رأسي ينفجر من كثرة التفكير في حله. نهض الحارس عازمًا على الانصراف والعودة إلى عمله، لم أجد داعيًا لاستبقائه أكثر. ما إن دار على عقبيه حتى التفتَ صوبي يقول كمن تذكّر شيئًا بغتةً:

- لا أعرف إن كان هذا يمثل أهمية لكَ يا سيدي، أو إن كان سيساعدكَ على بلوغ الجواب الذي تفتش عنه، لكن...

التفتُّ صوبه بكامل جسدي وانتباهي، أترقب الكلمات التي سينطق بها بلهفة شديدة، فاستطرد:

- الورق الذي أعطيتُه لكَ يعود إلى فروع شجرة قديمة تقع في آخر الغابة.

- أي نوع من الأشجار؟

- شجرة دردار عظيمة.

ضاقت عيناي للحظات، أفكر فيما قال، معلوماتي عن الأشجار والنباتات ضحلة كثيرًا، لذا سارعتُ أطلب منه بحماس:

- هلَّا ساعدتني؟ أريد كل الكتب التي تملكها في قبو المكتبة، والتي تخص هذه الشجرة.

- عندئذٍ لن تبقى أكثر من ساعة. تعرف يا سيدي، لا يجوز البقاء مع هذه الكتب الممنوعة لأكثر من ساعة في الليلة.

- نعم، أعرف.

انحنى انحناءة صغيرة، ثم خرج ليُحضِر طلبي، شجرة دردار، تُرى هل ستقودني تلك المعلومة البسيطة إلى شيء عظيم؟

***

متى تقوم قيامة الكاتب؟

عندما يفشل في إيجاد مادة لاصقة يسد بها ثغرة صغيرة في حبكته، عندئذٍ تتفتح الثقوب في رأسه، وتتسرب منها الكلمات تجر في أعقابها أفكارًا وأحداثًا كانت قادرة على أن تُنشئ حبكة متوازنة، ثم يجد الكاتب رأسه المجوَّف، وقد أضحى أصيص زرعٍ أو مزهرية في ركنٍ قصيٍّ من حبكة متينة لم يكتبها بنفسه.

هذا تمامًا ما كنتُ أشعر به الآن، إن لم أسد هذه الثغرة التي انفتحت بفعل فاعل في حبكة حياتي، سأصير ديكورًا في حبكة غيري، إن لم أكن كاتبًا سأصير بمنتهى البساطة مكتوبًا؛ تكتبني الحياة ولا أكتبها!

لذا شرعتُ في التهام الأسطر والكلمات بنهم شديد طوال الساعة؛ مراجع في علم النبات، كتب عن فنون الزراعة، وكيف تصير مهندسًا زراعيًّا في خمس خطوات. باستثناء معلومات ضئيلة تخص نوع التربة التي ينمو فيها شجر الدردار، وشكل أوراقها، والأمراض التي تصيب لحاءها، وطريقة تغذيتها التي لا تختلف فيها عن أخواتها من أشجار الغابة، لم أتوصل إلى شيء أستدل به على أنها تتمتع بصفات خارقة للطبيعة قادرة على أن تُشكِّل جسرًا بين عالمين. إنها مجرد شجرة نادرة ومهددة بالانقراض و...

لحظة، ألم يقل مساعد الضابط المتعالي شيئًا ما عن هذه الشجرة، ماذا كان؟ اعتصر ذهني قليلًا، آه تذكرتُ: «اشتعل رجل آخر، من الداخل إلى الخارج، تمامًا كالرجل الذي وجدناه عند شجرة الدردار!»، هكذا قال.

حتمًا هذه إشارة مهمة لا ينبغي تجاهلها، بل يلزم السير وراءها وتتبُّعها.

***

بي رغبة لأن أناجي الليل عند مطلع النهار، وأغازل النهار في أعقاب الليل، أن أسعى وراء حلم أعلم أنني لن أناله، أو أركض خلف شعور أدرك أنني سأخسره ما إن تقبض عليه الأنامل. بي رغبة لأن أشِع، مثل وجه القمر الضاحك، ثم أنطفئ، مثل وجهه الذي يطل على سراديب الغياب، كيف لإنسان أن يرغب في العيش مضيئًا فقط، أو منطفئًا فحسب، إلى الأبد، دون أن يتقلَّب على الوجهين؟! تعيش الحياة متخفية عند الحد الفاصل بين النور والعتمة، لا يلمسها إلا عابر شعور ذهابًا وإيابًا.

الديمومة موت، والجمود انتحار، لذا أكثر الناس هنا لا يدركون معنى الحياة.

بينما أعبر الغابة، أتخطى الأشجار، وأتنقَّل بين حشائشها ونباتاتها على ضوء القمر المتبسِّم؛ راحت أفكاري تتسابق في ماراثون محموم، أفكر في كل شيء وأي شيء، وكأنني ابتليتُ بالامتلاء. ملأني شعور عظيم بالسخط، على نفسي، على الفتاة، على الحياة، ثم زارني شعور طفيف بالبهجة، من نفسي، من الفتاة، من الحياة.

كنتُ أسير تجاه الشجرة التي دلَّني عليها عابر ليل، لاقيتُه منذ قليل سائلًا إياه عن مكانها، بينما أمارس عبادة التفكر بتذكر كل الأشجار التي قرأتُ عنها قبلًا. لم تفارق الشجرة القصص والأديان والأساطير والفولكور والمعبودات في ثقافات عديدة، فلا يكاد يخلو مجال إنسانيٌّ من اتصاله بالشجرة أو بأجزائها، في قصة الخلق الأولى كانت الشجرة حاضرة، كطعام مباح تارة، وطعام محرم تارة أخرى.

بينما أسير تحت عيون القمر متعمقًا في أحشاء الغابة، ساقني التفكر إلى شجرة ليس كمثلها شيء؛ «سدرة المنتهى» بالغة الروعة، التي تقع في السماء السابعة، حيث جنة المأوى، يخرج من تحتها أربعة أنهار؛ اثنان باطنان في الجنة، واثنان ظاهران في الأرض، وهما النيل والفرات، أوراقها كآذان الفيلة، وثمارها بحجم جرّة.

ثم توافدت الأشجار على عقلي تباعًا؛ شجرة الزيتون المباركة التي ضرب الله بها المثل في صفاء زيتها، وشجرة طوبى في الجنة، التي يسير الراكب في ظلها مئة عام، وشجرة طور سيناء، وشجرة اليقطين التي أنبتها الله لنبيه يونس ليتطيَّب بها، وشجرة بيعة الرضوان، والشجرة التي بكت على ما تسمعه من الذِكر، وشجرة الزقوم الملعونة، طعام أهل النار.

وفي الأساطير السلافية والألمانية واليونانية، كانت شجرة الزيزفون مقدسة، وتقديس شجرة الليمون كان بارزًا في الأساطير البلطيقية، هناك الشجر آكل البشر، وشجرة الدراق الصينية التي تثمر مرة كل ثلاثة آلاف سنة، وشجرة البتولا رمز الخصوبة والأنوثة عند الشعوب الجرمانية، وشجرة العالم في أساطير الفرس، التي تحمل جميع أنواع البذور.

هذا الوجود الدسم للشجرة يثير انبهاري بها، وتوجسي منها في آنٍ، مخلوق له مثل هذا الحضور الطاغي لهو جدير بالتأمل والفحص والدراسة، فضلًا عن أن الشجر منبَت الورق، والورق محضَن الكلمات، والكلمات لَبنات الكتب. هذا ما فكرتُ فيه في اللحظة التي وصلتُ فيها إلى الشجرة المرصودة؛ شجرة الدردار الكبيرة في نهاية الغابة، لا تسألني لمَ أردتُ رؤيتها، فقط شعرتُ أن مرآها سيضيف لي شيئًا لا تستطيع كلمات الكتب وحدها أن تُشعرني به.

وقفتُ أمامها أميل برأسي مستطلعًا رأسها، كانت عالية، عالية جدًا، أكبر من أي شجرة رأيتها، ساقها ثخينة ومتينة، وفروعها عظيمة ومحملة بأوراق خضراء زاهية، لم يفلح ظلام الليل في إطفاء بريقها. لامستُها، بأنامل يمناي أولًا، ثم باليسرى الفاجرة، أغمضتُ عيني خاشعًا كأنني في صلاة، مصغيًا كأنني في حضرة نبي، ألمس الشجرة، أتشمم جذعها، أسمع هسيس أوراقها، توحَّدتُ معها كأنني هي، أضرب بجذوري في التربة من تحتها، أشعر بقطرات الماء تصعد عبر لحائي إلى الغصون والأوراق فأرتوي.

طاقات نور تتفتح أمامي، طبقات من عوالم لم أسمع بوجودها، شيءٌ ما يسحبني من يدي، ويتنقل بي من عالمٍ لآخر، أطوف في أولها، ولا أكاد أرى من قوة الدوران، أدور وأدور، كأنني في لعبة الأفعوانية بالملاهي، الدم يضرب رأسي، ثم يعود ليستقر في أسفل قدمي.

تحركتُ، وسافرتُ، وتجولتُ، وركضتُ، ولعبتُ، وبكيتُ، وصارعتُ، وعشقتُ، وحاربتُ، كل هذا بينما لا أزال في مكاني! فتحتُ عيني لاهثًا، شعور لذيذ بالدوار أسقطني أرضًا، رمقتُ شجرة الدردار ذاهلًا، ومبهوتًا، ومنتشيًا.

***

(54)
الركض في الزمكان

التعاسة التي أكلَت وشربَت وكبرَت بداخلها إلى أن امتلأَت بها، انكمشَت في ثانية تاركةً فراغًا يسَع شوقها ولهفتها، ضمَّت ابنها كأنه عناقهما الأول، كأنه انتقل من بطنها إلى كفيها للتو.

كانت الغرفة أنيقة بعطر طيب، لكن عبير أمه كان الأطيب، جلسا بأذرع متلاصقة فوق أريكة وثيرة، اتسعت كفاية لتضم جسديهما ومشاعرهما الجارفة، تبادلا كلمات تشي بسعادة اللقاء، وتصف آلام الغياب، ثم بادرته أمه وأناملها تتخلل شعره كما كانت تفعل من قبل:

- هل أنتَ بخير؟ تبدو مرهقًا يا بني.. ألا تأكل جيدًا؟ ألا تنام كفاية؟ لماذا يبدو وجهك متعبًا؟ هل أنتَ مريض؟ هل تتألم؟

استجمع «مؤيد» شتات نفسه مطمئِنًا لها، يُقبِّل كفها، ويسجنها بين كفيه مخافة أن يفلتها مرة أخرى:

- أنا بخير، لا تشغلي بالكِ بي.

ثم أضاف بذهن عاوده التشتت والضياع:

- لكن أنا لا أفهم، ما الذي يدور هنا يا أمي؟ كيف تكونين على قيد العيش، وقد سلَّموني رمادكِ؟ كيف لم يعاقبوكِ يا أمي؟ لماذا نجوتِ أنتِ؟

قدَّرت أمه الصدمة التي تلفُّه، فتخيَّرت أكثر نبراتها سكينة ولطفًا لتقص عليه ما جرى معها:

- هذا ما ظننتُه أيضًا عندما أخذتني شرطة رقابة الأبجدية؛ ظننتُ أنني ملاقية الموت لا «محالة».

أبدى انزعاجه من استخدامها لكلمة بها ابن الأبجدية الملعون، وفي الوقت ذاته اندهش لسهولة استخدامها وكأنها تجري على لسانها عادةً، وهنا انتبه لأول مرة منذ أن دخل الغرفة إلى أن عنقها خالٍ من الأطواق، لم تعد مُكبَّلة مثله!

استطردَت تستعيد الذكرى القريبة:

- بقيتُ يومًا كاملًا في المركز، وأنتَ تعرف كيف يُعامَل مقترفو جريمة «الحاء» في بلدنا؛ كان يومًا عصيبًا، لم أعِش مثله، ضاعَف أبوك من مشقته رغبةً في إذلالي، بعدها أتى وفد من منطقة النار لأخذي. لم أرَ شيئًا طوال الطريق. كنتُ أفكر في الموت، وفيما بعده؛ أتخيل كيف يكون الموت بالنار. أي ميتة أبشع من أن «يُحرَق» الإنسان «حيًّا»؟ عقاب رهيب عن جريمة لا توجِب العقوبة. كنتُ أفكر في الظلم الذي أتعرض له بينما السيارة تعبر بي خط النار، وعندما وصلتُ إلى هنا تبدَّل كل شيء.

قالتها بابتسامة رائقة افتقدها كثيرًا، ودَّ لو قطفها وخبأها في قلبه، استطردَت:

- تغيَّرت المعاملة بالكامل. لم يتفوه أحد بكلمة تهينني، أو يأتي بفعل يحتقرني؛ خصصوا لي غرفة، وطلبوا مني الاسترخاء حتى ألتقي بأحد القادة التسعة. لا بد أنكَ التقيتَ به، وعندئذٍ «شرح» لي كل شيء.

- ماذا قال؟

سألها «مؤيد» بلهفة، فأشبعَت فضوله على الفور، تقول مبتهجة:

- في الحقيقة، كل هؤلاء الذين ارتكبوا جريمة الحاء لم يعاقبوا قط. إنهم هنا يعيشون في هناء.. مثلي.

- لا أفهم يا أمي.. لماذا لم يُعاقَبوا؟!

- لأنهم لم يفعلوا ما يوجِب العقاب. عندما وقعت الحرب، واشترط الناس فرض قانون نزع الحاء من الأبجدية لم يستطِع مجلس البلدية مخالفتهم، وإلا كانت ستحدث حرب جديدة ستقضي على سائر البلد هذه المرة. تعامَل مجلس البلدية مع الناس كمرضى بحاجة إلى

الاستشفاء، أو للدقة بحاجة إلى العزل، وكأنهم مصابون بوباء قاتل قابل للتفشي، ميؤوس من علاجه، لكن كانوا دومًا يؤمنون أن من بين ظهر المريض سيخرج شخص سليم معافى؛ سيضع العقل بجوار المنطق، ويتمرَّد على هذا الجنون. كانوا يأخذون هؤلاء الأصحاء على مدار سنوات، وكأنهم سيعاقبونهم في الظاهر، بينما هم هنا يعيشون حياة كريمة.

ثم أضافت بحماسٍ:

- أعطوني بيتًا صغيرًا، وافتتحوا لي متجرًا أمارس فيه «الحياكة». تعرف كم كنتُ أحبها قبل الحرب، وكيف مِنعتُ منها مع كل ما مُنعنا منه! الآن أنا أمارس هوايتي المفضلة، وأتكسَّب منها. أنا بخير.. بخير جدًا.. لا ينقصني سواكَ.

شدَّ «مؤيد» على يدها بينما إعصار يعصف بكيانه كله؛ ما سمعه الآن لم يخطر له، ولا في أسوأ كوابيسه، ماذا يعني أن مجرمًا لم يُعاقَب؟ القانون الذي عاش عمره يصونه ويُطبِّقه على نفسه قبل غيره، تأتي أمه بجرّة كلمة لتخبره أنه هراء!

طوال تلك السنوات، هل كان الجميع يعيش في.. وهْم؟! تبدو له تلك الصورة قاسية جدًا، وكأنهم مجموعة من البلهاء والمغفلين، استاء كثيرًا، ظهر هذا على وجهه، فشدَّت أمه على يده قائلة:

- أعرف كم هذا صعب عليكَ أنتَ بالذات! لكن هذه هي الحقيقة يا «مؤيد»؛ الحقيقة التي حاولتُ أن أقنعكَ بها قبلًا. يا بني، كيف نلوم حرفًا في الأبجدية؟! كيف نلوم الكلمة؟! كيف نحتقر الحوار؟! كيف نذم تبادل الأفكار؟! كيف نبغض الاختلاف؟! الاختلاف سُنة كونية. الصراعات جزء من تكويننا البشريِّ. لا يمكنكَ القضاء على الفساد والشر والعنف والبغض في مكانٍ ما، أو في زمانٍ ما، وإن حذفتَ كل حروف الأبجدية، وإن أخرستَ كلَ الألسنة، وإن حرَّمتَ وجرَّمتَ كل إحساس وكل ردَّة فعل؛ لا يمكن للأرض أن تتطهر من الأخطاء، لأننا بشر، نخطئ ونصيب، وسنظل نخطئ ونصيب حتى قيام الساعة. وليس المطلوب ألا نخطئ، بل أن نواجه أخطاءنا.. نفحصها.. ندققها.. نحللها، ومن ثم

نعالجها. نحن لم نعالج أخطاءنا. نحن ردمنا فوقها ألف حجة وألف مبرر. علَّقنا الأسباب والنتائج على ألف إسقاط. تركنا الجرح يمتلئ قيحًا ودمًا فاسدًا، ولم نجرؤ على فتحه وتنظيفه، لذلك بقي الجرح بشع المنظر عفن الرائحة، يبث السم في الجسد دون شفاء.

كلماتها مطارق فوق رأسه؛ تزلزل أفكاره، وتعبث بما يؤمن به، تعصف بالبناء الذي هندسَه وكبَّره لبنة لبنة، البناء الذي امتزج بتكوينه النفسيِّ والعقليِّ، الآن تخبره بهذه البساطة أن كل ما آمن به هراء، هذا وكأنها تقول له: «أنتَ مؤلَّف من ذرات عبثية، تُشكل جسدًا من الوهم!»، وكأنها تقول له: «أنتَ زائف يا «مؤيد»!».

سقطت نظراته على يده، فخيَّل إليه أنه يرى ما خلفها، وكأنها بغتةً صارت شفَّافة بلا لون! أرسى ذلك قواعد الفزع في قلبه، دفعه لأن يترك يدها، ثم يقف ذارعًا الغرفة ذهابًا وإيابًا، كما كان يفعل في قبو البيت مغالبًا ألم فقدانها، الآن عثر عليها، أمه على قيد العيش، لكنها تخبره أنه ميت، أنه لم يعرف للعيش طعمًا.

***

- ماذا تريدين مني الآن يا أمي؟ ماذا يريد قادة مجلس البلدية؟ ماذا يريد الجميع؟
- كلٌّ منا يريد شيئًا مختلفًا يا «مؤيد». جميع من هنا في منطقة النار يريدون استمرار الحياة كما هي. كلٌ يستمر في الطريق التي اختارها لنفسه من البداية، يعيش الحياة التي رسمها وآمن بها. يريد منكَ قادة المجلس أن تساعدهم على أن تظل عقول الناس ميتة.. أن يستمر الوهم دون أن يدركوا ذلك!
- وكيف أفعل ذلك؟ قيل لي إن ثمة شيئًا يغير الجميع.. يشعل النار في نفوس البعض، ويدفع الآخرين إلى اقتراف جريمة ابن الأبجدية.

ما زال غير قادر على النطق بكلمة ممنوعة حتى وإن كان طوقه معطَّلًا داخل منطقة النار، القناعات التي فُطِر عليها، وفُطِم بها لا تزال راسخة بداخله، تتزعزع نعم، لكن ليس إلى درجة هدمها رأسًا على عقب. قالت أمه:

- نعم.. شيءٌ ما يحدث؛ منذ شهور تتزايد جرائم الأبجدية. أنتَ بنفسكَ لاحظتَ ذلك. هذا الشيء المجهول الذي يحدث لهم يدفعهم للتجرد.. للتفكير.. يغيرهم من الداخل.. يحررهم من الوهم.. يُبصرهم.. يرشدهم.. يُنقّيهم من الحمية والطيش. شيءٌ ما يدفعهم لأن يحاسبوا أنفسهم، ربما لأول مرة منذ اندلاع الحرب. لا يحتمل البعض هذه المواجهة مع الذات، فتقع حوادث الاحتراق الذاتيِّ؛ هذا الجندي المجهول الذي أرسله الله لنا كهدية يراه قادة المجلس شرًا مستطيرًا، وخللًا سيهدم كل شيء من حولهم. يخافون من فوران الغضب في نفوس الناس.. يخافون من حرب جديدة ربما تنتهي بفنائنا جميعًا هذه المرة.
- كيف أساعدهم على التصدي لشيء لا أعرف كُنهه.. لا أعرف شكله.. لا أعرف ماذا أو من يكون؟! قالوا لي إن لديكِ معلومة ستساعدني، لهذا السبب أنا هنا، لهذا السبب جمعوا بيننا، وخاطروا بانكشاف السر.
- ما لدي ليس معلومًا كما تظن يا بني.. بل رؤية.
- رؤية؟!
- نعم، حُلمٌ يتكرر على فترات متفاوتة.

سأل مستنكرًا:

- هل يستعين قادة المجلس برؤى امرأة؟
- لا يملكون غيرها. جربوا كل شيء؛ أخضعونا لدراسات وفحوصات كثيرة.. دون جدوى. يجهلون السبب الذي دفع بكل هؤلاء الناس فجأةً إلى عصيان قانون الحاء بشكل مكثف ومتلاحق. يقولون إننا لا نشبه كل الذين خالفوا القانون على مر السنين. يقولون إننا مختلفون. يقولون إننا.. مثلهم.
- كيف ذلك؟
- أكثر مرونة.. أكثر وعيًا.. التكيف مع العيش هنا بسهولة لم يكن يملكها مَن سبقونا.
- منذ متى بدأ هذا التغيير؟
- أقل من عام.

لا يذكر أي شيء غريب وقع قبل أشهر؛ لا واقعة طعام مسموم، أو ماء شرب ملوَّث بمواد كيميائية قادرة على أن تغير من وعي وإدراك إنسان.

- القادة يخشون التغيير.

- وأنتِ، ألا تخافينه؟

- من قال إن من يختار طريقًا خاطئة عليه أن يستمر في السير فيها حتى النهاية؟ لماذا نُلزِم من اختار ألا يعاود الاختيار؟ لماذا لا ندع هذا الجندي المجهول يُبصرهم ويُخيِّرهم، فلربما يخرج منهم من هو أفضل وأعلم وأمهر منا؟ لماذا نخسرهم؟ يظن القادة أننا هناك نعيش في سلام.. أي سلام هذا وداخلنا خراب؟!

- إذن أنتِ ترغبين في انتصار هذا الجندي المجهول، والقادة يرغبون في تدميره.

- وعليكَ أنتَ أن تختار.

وضعته أمه في مفترق طرق؛ إما أن يتقدم تجاه ما يؤمن به القادة، وإما ما تؤمن به هي، وإما أن يعود إلى الخلف؛ إلى الأفكار التي ينتمي إليها، لم تقدم له رؤية أمه إضافة كبيرة تسهم في فض التشتت الذي طوَّقه، بل زادته تشتتًا:

- الرؤية تخص حصانًا جامحًا، يمسك لجامه بنفسه، وفي الوقت ذاته يمسك بفمه لجام العالم. لم يكن الحصان مركوبًا بل راكبًا، يمتطي العالم بين قوائمه الأربعة، ويذهب به إلى حيث شاء؛ لا يفرق بين زمان ومكان، بإمكانه الركض في أي زمكان. هذا الحصان لديه اللغز وحله، بل هو صانع اللغز وحله.

- تعرفين أن مثل هذا المخلوق لم يعد له وجود في البلد.

- حصان على سبيل المجاز يا بني. هل تعرف الحصان الأسود؟ وصف يطلق على الشخص الذي يأتي من آخر الصف ليفوز بالمركز الأول؛ الشخص الذي لم تتوفر له الأدوات الملائمة والإمكانات العظيمة، ومع ذلك يتغلب على الجميع بمهارته وجهده وحنكته. الحصان الأسود الذي

أراه في حلمي شخص متواضع، مُهمَّش، يبدو بلا قدرات، بلا أثر، وكأنه شخصية ثانوية في رواية، لكنه يمسك في يده لجام العالم.

- ومن يكون؟ هل تعرفينه؟ هل رأيتِه من قبل؟
- نعم يا بني، قابلتُه مرة في زقاق، ثم رأيتُه في رؤياي عدة مرات.
- من يكون يا أمي؟
- اسمه من جنس الأصوات؛ أصوات الخيول.. اسمه «صهيل»!

***

سار في شوارع منطقة النار ينفق ساعته الأخيرة قبل موعد المغادرة، ودَّ لو قضاها مع أمه، إلا أنها قالت له: «أنتَ بحاجة إلى ذلك»، رغم أنه هو نفسه لا يرى ذلك.

شوارع كشوارع البلد؛ لا تختلف كثيرًا عن غيرها، لا هي قطعة من النار، ولا هي طرف من الجنة، البيوت متشابهة، في بنيانها وألوانها، في قدمها، التصاقها، علوها. العربات تسير في وجهتها بسرعة دون أن تعبأ بعابر طريق، أو بإشارة توجِب التوقف، رجل يلقي من نافذته زجاجة فارغة ليلتقطها عامل نظافة تقوَّس ظهره. سرعة زائدة، أخلاق بائدة.. الأخطاء ذاتها، المخالفات نفسها!

تعجَّب في نفسه، وبلغ منه الاستنكار مبلغه؛ إنها كبلده.. ما المختلف إذن؟! تناهى إلى أسماعه صراخ أتبعه ضجيج، جعله يلتفت صوب المقهى الواقع على الناصية، هذا اختلاف لم يفطن له، المقاهي، النوادي، المجالس، الندوات، أماكن يتبادل فيها الناس الرؤى والأفكار، وطبعًا الضرب والسباب!

لا يملك مهارة كافية لفض النزاع، هذا لأن في بلدته لا يقع نزاع؛ في بلدته الناس تصمت، تبتلع غضبها، وغيظها، وسخطها، وآراءها، واختياراتها، وقراراتها، ورؤيتها، وأفكارها، لذا لا يتشاجرون، لا يلتفتون، لا يرون بعضهم بعضًا، وكأنهم كائنات شفافة تعيش منعزلة، كلٌ في مجرة كبيرة واسعة.

يد عاصرة أمسكت قلبه، ففاض بدماء ملتهبة تشعل جسده، فكَّر: تُرى أهكذا يشعر أولئك الذين يشتعلون ذاتيًّا من الداخل؟ نار تنبعث من قلوبهم، مذاق معدنيٌّ في جوفهم بنكهة الدماء، وخلايا ملتهبة تصرخ، يسمع صراخها

من داخله، آهاتٍ تقتات على قلبه، وتنخر فيه الأضلع، وتسير عبر الوتين إلى سائر جسده، تسقط كنبضات مؤلمة في رأسه؟

النار بداخله تستجديه ليُطفئها، فتَّش عن مصدر للماء، لم يجد أمامه سوى الماء العظيم الذي يأكل اليابسة، أو لعلها هي التي تشربه، اقترب منه.. جرَّد قدميه من الخُف، شمَّر بنطاله، مسَّ الماء البارد بأنامله، استجدته خلاياه الملتهبة طلبًا للمزيد. تعمَّق أكثر في الماء الأزرق، يشق لنفسه مكانًا بين ثناياه، لا يعرف العوم، لم يمارسه قبلًا، لم يهتم، تعمق أكثر وأكثر فأكثر، إلى أن وصل الماء إلى خصره، ثم صدره، ثم عنقه، كتم أنفاسه، وغطَّس رأسه، لم يجد ما يتمسك به، ابتلع الماء.. الكثير من الماء، وكاد يغرق.

تذكَّر كلامًا كتبته أمه ذات مساء في دفترها، أخذها ومزَّقها سرًا، لكنه قرأها قبل أن يفعل: «عليكَ أن تصل إلى حافة الموت، كي تدرك معنى الحياة». شعر أنه الآن عند هذه الـ «...» التي كتبت عنها أمه، أخرج رأسه، شهق بقوة، كشهقة الولادة الأولى، يعبئ صدره بالقدْر الذي تستطيع رئتاه استيعابه من الأكسجين، يضرب بأطرافه فوق الماء ليتمكن من الطفو، شيء ساخن يسيل من عينه ويختلط بالماء، لا يعرف إن كانت دمعة أم قطرة دماء. ثم افتَر ثغره عن ابتسامة، استوَت إلى قهقهة، لا يصدق أنه الآن.. «يسبح في البحر!».

اندهش من تفكيره في كلمات ممنوعة، ومعانٍ ملعونة بنفس اليسر الذي تنطقها به أمه؛ لم تجزع نفسه هذه المرة، استوى على الماء، نظراته تجول بروية في السماء، يتساءل في نفسه، أي الأزرقين انسكب في «أحضان» الآخر؛ «البحر» أم السماء؟

***

مصنع الكلمات

«وإن أماتوا زهرة في جوفك، فإن بستانك ما زال حيًّا».

جلال الدين الرومي

«على قبري ستُكتَب العبارة التالية: هنا يعيش إنسان مات في أثناء حياته[1]».

كانت تلك أول كلمات أكلتُها من الكتاب الذي أهدتني إياه «ري».. «ري»، كم اشتقتُها! العالم دونها موحِش، لا السماء ترتدي أجمل أثوابها، ولا الأرض التي تحمل خطواتي هي نفسها التي كانت تحتفي بخطوات «ري». أخفيتُ شوقي في جيوب الحياة السرية، انتعلتُ حذاء الضجر، ومضيتُ أجُر الأيام الخاملة ورائي، كلها شفَّافة بلا نكهة، وحدها الأيام التي أمضيتُها بجوار «ري» كانت بيضاء مسكِّرة.

«لقد اقتربتُ من القُبح كما لم يقترب منه إنسان في هذا العالم؛ اقتربتُ منه إلى درجة الملامسة والإحساس بالأنفاس الساخنة، فالقبح هو صديقي اللدود الذي عشتُ معه، في داخلي أو في داخله كل سنوات حياتي[2]».

أتفرج على الحياة من شرفة الأسى، بينما آكل المزيد من الكلمات، لم يكن كتابكِ هدية يا «ري» بل كان عقابًا، أدركتُ هذا الآن. كاتب غير معروف، ليس له صورة واحدة، لا يتذكره أحد، عاش منبوذًا، ومات مهمشًا، فقط لأنه مريض بداء القُبح، لماذا تعطينني هذا الكتاب بالذات يا «ري»؟ هل تريدين

---

(1) "لا تولَد قبيحًا"، للكاتب المصري محمد رجاء عليش.

(2) من الكتاب السابق.

إيلامي مثلما آلمتكِ؟ أتحاولين التنبؤ بمصيري الذي سيشابه مصير الكاتب؟ هل سأطلق الرصاص على نفسي، وأموت منتحرًا مثله؟

آكل المزيد من الكلمات، بل من النزيف، نزفَ الكاتب على الورق، على مسمع ومرأى من العالم، نزف الخيبة والقهر والمهانة والعذاب والألم، اتخذ من القبح عينين كفَّتا عن الإبصار، وتشبَّعَت به خلايا شاخت قبل أن تتذوق مراحل الطفولة والمراهقة والشباب، خلايا وُلِدت لتموت.

لم يكن له خليل يشاطره همّه، ولا امرأة يُقاسمها الحب، تلتهمه العيون بضراوة، شاعرًا أنه فأر صغير واقع تحت مخالب قِط متوحش، يشعر أن ملابسه تُخفي جلد فأر، ويستر سرواله ذيله الطويل ببراعة!

كم آلمني ذلك، كان بإمكانه أن يشبِّه نفسه بأي مخلوق آخر في العالم، أي جماد، أي نبتة منبوذة ومهجورة.. لماذا الفأر؟! لماذا تفعلين بي هذا يا «ري»؟ شعرتُ بالعالم كله كأنه قط كبير شرس ينشب مخالبه في جسدي، يخمش كل موضع يطاله دون أن أملك قدرة على حماية نفسي، بماذا أحميها؟ لم يستطِع هذا الكاتب أن يحمي نفسه، هل سأتمكن أنا الفأر الضعيف المنبوذ؟!

انتقلتُ إلى الصفحات الأخيرة من الكتاب، ربما أعثر على كلمات أقل مرارة وأكثر طلاوة، وليتني لم أفعل! أكلتُ صفحتين من الكلمات الدامية عن كتكوت بلا ريش، تُناصبه أفراخ الحظيرة العداء، ينقضون عليه بغتةً، وينقرونه في أنحاء جسده الهزيل، لا لشيء إلا لأنه مختلف، لا يستطيع الاندماج في العالم المتعجرف، لا لأنه يكره العالم، بل لأن العالم يكرهه! يبدو أن شيئًا ما في طبيعة الكائنات الحية يدفعهم لكره الغرباء، الخوف منهم، والرغبة الشديدة في نبذهم، وتجاهلهم، وإيذائهم.

***

أذابني الشوق إلى «ري»، لن أحتمل هذا الفراق أكثر، انطلقتُ تحت عيون الليل الناعسة إلى مغارة الكتب غير مبالٍ بالبرد الذي ينخر عظامي، سرتُ على أربعٍ بسرعة وخفة، بحثتُ عنها في كل مكان، لم أعثر لها على أثر، «ري» تخشى الظلام، لن يُخرِجها من مغارة الكتب في هذا الوقت من الليل سوى سبب قويٍّ.

اصطدمتُ بكتاب مفتوح على الأرض، لا بُد أن كانت «ري» تتناول كلماته على العشاء، رغم أنني لستُ جوعان، فإنني أكملتُ الوليمة من حيث توقفَت هي، هكذا استشعرتُ -ولو بقدر طفيف- وجودها معي.

كانت رواية، ولم يسبق لي أن أكلتُ كلمات رواية، عن أحدب حزين، قارع أجراس أصم، يعاني قُبح الهيئة، ويقاسي آلام حب لا أمل فيه[1]. لماذا يطالعني القبح من كل مكان وكأنه لعنة؟! وكأنني عندما أحدد الزاوية التي أنظر بها إلى العالم تصطف الموجودات لترسم لي طريقًا اخترتُ معالمها سابقًا؟! كان الأحدب جميلًا من الداخل، أجمل شخوص الرواية، لماذا يغض الناس الطرف عن رؤية هذا النوع من الجمال؟ العالم يرمز للعدالة بامرأة معصوبة العينين تحمل ميزانًا بيسراها وسيفًا بيمناها، ويبدو أنه حين يود التفرقة بين القبح والجمال يستعين بأختها العمياء!

انطلقتُ كالفراشة؛ أرشف الرحيق من صفحات الكتب، وبخاصة الروايات منها، ومن أحدب فرولو قارع الأجراس إلى خطة الدجاجة إبساك في الهرب إلى البرية[2]، ثم رافقتُ دورودثي غيل في أرض أوز، حيث الفزاعة التي تبحث عن عقل، ورجل القصدير الذي يبحث عن قلب، والأسد الذي يبحث عن الشجاعة[3].

ثم أخذتُ فسحة من الوقت عندما آلمني بطني قبل أن أعود لأتجول في مدينتَي ديكنز[4]، وأقابل مسخ كافكا[5]، وأتلصص على طيور الحب التي ترفرف بين «مصطفى» و«وجيهة»[6]، وأتأمل كيف لكاتب أن يخلق شخصية خيالية تمتزج به، وتُكمل الناقص من سيرته كما حدث مع السيدة «رضوى»،

---

(1) "أحدب نوتردام"، للكاتب الفرنسي فيكتور هوغو.

(2) "الدجاجة التي حلمت بالطيران"، للكاتبة الصينية صن – مي هوانغ.

(3) "ساحر أوز العجيب"، للكاتب الأمريكي ليمان فرانك بوم.

(4) "قصة مدينتين"، للكاتب الإنجليزي تشارلز دينكز.

(5) "الانمساخ"، للكاتب الألماني فرانز كافكا.

(6) "سارق الكحل"، للكاتب المصري يحيى حقي.

والسيدة «شجر»[1]، فأخلص من ذلك كله أن الأدب لا يُبكي، إنما يُقدِّم لقرائه ذريعة ليتحرر الأنين المحبوس بداخلهم.

- أبحث عنكَ بينما أنتَ هنا.. ماذا تفعل يا «كي»؟!

باغتتني «ري» على غفلة، تركتُ الكلمات تتساقط من فمي، وأنا أقف أمامها باضطراب لص ضُبِط متلبسًا، جئتُ لاسترضائها، فأقدمتُ على فعل دنيء كسرقة كلماتها.

أشرتُ إلى اللاشيء، وأنا أقول باضطراب:

- «ري»، أنا آسف، لم أشعر بنفسي إلا وقد أكلتُ هذا الكم من الكلمات.

شعرتُ بحرارة تتصاعد من أحشائي، ورجفة في أطرافي، وعرق غزير فوق جبهتي، أمسكتُ بطني صائحًا:

- آه.

سقطتُ أرضًا، هرولَت «ري» صوبي، انكفأَت تفحصني باهتمام، وتقول مُعنِّفة:

- ماذا فعلتَ بنفسكَ يا «كي»؟

قلتُ والألم يحاصرني من كل الزوايا:

- لم أستطِع التوقف، كانت الكلمات لذيذة جدًا، أفرزَت معاني عظيمة لم يسبق لي اكتشافها. أنا آسف يا «ري»، أكلتُ طعامكِ و...

ضربتني بقائمتها الأمامية في كتفي قائلة:

- هل تظنني حزينة لأجل الطعام؟ أنا غاضبة، لأنكَ آذيتَ نفسك. أنتَ أحمق يا «كي»؛ أحمق يراني قبيحة، عليَّ طردكَ الآن، لكنني حمقاء مثلك.. حمقاء تراكَ جميلًا.

وقعتُ في حب هذا الألم، لأنه جلب لي «ري»، وأسمَعني من فمها كلمات حلوة، «ري» تراني أنا جميلًا، قرَّبتني منها إلى الحد الذي مكنني من سماع قلبها الملهوف، تساقطَت عبراتها تغسل وجهي، وتُرطِّب جلدي، ثم فقدتُ الوعي في أحضانها.

***

(1) أطياف، للكاتبة المصرية رضوى عاشور.

دام مرضي ثلاث ليالٍ إلا قليلًا، كنتُ فيها موجوعًا، محمومًا، ينبوعًا للأرق، لم تضجر «ري» من رقدتي التي طالت، طبَّبتني بمسحوق نباتات مجففة، أخبرتني أنها أحضرته من جُحر قريب مملوء بها، تُكدِّس صاحبته الأعشاب الطيبة جنبًا إلى جنب الألوان والصور!

لم أفهم العلاقة بين المرض القاتم والألوان المبهجة، فقالت «ري»:

- المرض مكروه، أعرف، لكنه أحيانًا يكون شرطًا لندرك.

- ندرك ماذا؟

سألتُها بصوت هده المرض، فقالت:

- نعمة المعافاة.

الحرارة تشق رأسي، تشوش أفكاري، وتلهب أشجاني:

- هل سامحتِني يا «ري»؟

- لم أحزن منكَ، بل لأجلكَ.

فتحتُ فمي لأتكلم، فأسكتتني بصرامة، «ري» تستطيع أن تكون صارمة عندما تريد ذلك:

- نَم الآن.

فنمتُ، ثم استيقظتُ، ثم نمتُ، ثم حلمتُ بجُحر كبير، مملوء بكلمات لها أذرع طويلة، تُطبِّب، وتهدهد، وتترفق، وتضُم، وتُعلِّم، تُلازمني «ري» في كل خطوة، نجلس معًا، ونأكل ما شاء لنا من الكلمات، تعصر بعضها صانعةً منها شرابًا لذيذًا تُخلطه بالأعشاب التي تجلبها من الجُحر القريب، ثم تحذرني ألا آكل المزيد، كي لا أُصاب بالتخمة.

ثم استيقظتُ، كانت «ري» قد هدَّها التعب، فسقطَت نائمة بجواري، أنفاسها رتيبة هادئة بعكس طبيعتها الحماسية الثرثارة، كم تبدو وديعة في نومها؛ تُدفِّئ كل شيء قريب منها، كريمة، معطاءة، كأنها الشمس والعالم يدور من حولها!

- هل أنتَ بخير يا «كي»؟ هل انخفضَت حرارتك؟ دعني أنظر.. نعم، أنتَ بخير الآن، إياك أن تفعلها ثانيةً. أنتَ أحمق يا «كي»، ألا تعرف

أن لمعدتكَ طاقة استيعاب محدودة! هل ظننتَ أن بإمكانكَ أن تأكل الكلمات إلى الأبد؟!

انعكسَت ثرثرتها بسمة على وجهي، أنا ممتن كثيرًا لقلقها، هذا يعني أن لي قدرًا عندها.

- قلتِ إنكِ كنتِ تبحثين عني.. قبل أن أفقد الوعي.

دبَّ النشاط بداخلها فجأةً، قفزَت على أربع، وغاصت بين الرفوف، ثم عادت حاملةً كتابًا لا يبدو كباقي الكتب؛ غلافه مصنوع من ألواح رقيقة من الخشب، بشكل بدائيٍّ جدًا، بقيَت منه صفحات قليلة غير مأكولة أقرب إلى الأوراق التي كنتُ آكلها في بيت الداء: أي أنها ليست مطبوعة، وإنما رصاصية مكتوبة بخط اليد.

انسلَّت كلماتها تتراقص إثارةً وشغفًا:

- لدينا مهمة سرية!

رمقتها حائرًا، أنقل بصري بينها وبين ما تمسكه بين قائمتيها الأماميتين. تساءلتُ:

- أي مهمة؟

- مهمة إنقاذ.

ثم أضافت ببهجة لا تسعها مغارة الكتب:

- سننقذ هذا البلد.. سنُعيد إليهم الحاء المفقودة من الأبجدية!

***

(55)

يد من تُمسك بالقلم؟

يتلاشى كل جميل بجرّة زيف واحدة، يتبدد صدق الساعات بثانية واحدة كاذبة. لم أُطِق الحديث معها منذ أن تهرَّبَت من سؤالي عن كيفية علمها باسم «رتيبة»، كتبَت هذا الاسم اللعين فتبدد السحر، كلمة واحدة أفسدَت كل شيء بيننا.

لا أُطيق الزيف، ولا الكذب، صحيح أنني أعيش مع «رتيبة» حياة زائفة، لكنني أفعل ذلك، لأن العالم كله مزيف وكاذب، أما هي.. ظننتُها الحقيقة الوحيدة، الصدق المُنجِّي، وجوهر الأبدية. كنتُ مخطئًا، ولشد ما آلمني أن أكون مخطئًا، كنتُ معها فراشة أسير بمحاذاة اللهب، الآن احترقتُ وانطفأَت هي.

تجولتُ في الطرقات بلا هدف، أحمل قلبًا تعددت انكساراته، وتنوعت هزائمه، مرة من عدو وأخرى من حبيب، وما أوجَع هزيمة الحبيب!

- كاذبة، مخادعة!

هتفتُ بها وأنا أركل تراب الطريق، فيتناثر في وجهي، أسعل ثم أسب ثم أعلن، ثم أستكمل السير بلا وِجهة، تاركًا الوقت يرتع من خلفي.

لم أعُد واثقًا حتى من كونها تطابق الشخصية التي رسمتُها لها في خيالي، تُرى في أثناء أحاديثنا الطويلة، هل كانت تقتبس ردودها من كتاب؟ هل ثمة من يُملي عليها الجواب؟ هل كانت تتجمل، تتزين، تتبهرج، أم تحاورني بلا مكياج؟

الشك في كل شيء أجج غضبي، وبالطبع لم يكن هذا هو الشيء الوحيد الذي يستجلب حنقي واحتراق أعصابي؛ لم أتوصل إلى معلومة تفيد بأن

الورق الذي أخذه الحارس من فرع شجرة الدردار كان مسحورًا، أو يحوي تعويذة، أو يسكنه جنيٌّ لعوب بنى جسرًا خرافيًّا بين كاتب وقارئته الأولى، بين سطور روايته الأخيرة.

كلما سرتُ تسرب الغضب من مسامي، ثم الحسرة، ثم الخيبة، ثم نكهة الخيانة، ثم مرارة الهزيمة، وعندما وصلتُ إلى جدار منطقة النار، وجلستُ متكئًا عليه، لم يكن قد تبقى في جعبتي إلا الشوق والحسرة.

أخرجتُ الرواية من الجيب الداخليِّ لمعطفي، طالعتني كلماتها التي تستجديني وتسترضيني، كي أعاود الحديث معها؛ أغلقتُ الرواية بقوة وكأنني أصفعها، الفتاة لا الرواية، ثم أعدتُها إلى جيب معطفي، لن أتمكن من نسيانها، هذا مؤكد، أحتاج دهرًا كي أنجح، كم عصرًا يكفي لنسيانها؟

نصبتُ لها محكمة علنية، وأوقعتُ عليها عقوبة فورية؛ نفيًا أبديًّا في جُب النسيان، لم يتحرك حارس واحد ليجرها صوب زنزانتها، صرختُ في الجميع، فلم يسمعني أحد، وقفَت في قفصها خلف القضبان المعدنية تنظر إليَّ برجاء صامت.. رجاء لم يجد بداخلي أصداءً كافية.

أنفخ أنفاسي في كفي علها تتدفأ؛ البرد قارس، يؤلم وجهي فيتخشَّب، ويسحق أطرافي فتتفتت، فلا أعود قادرًا على حمل ورقة، ومن داخلي يتصاعد ألم آخر، نار تشتعل، تلهب أحشائي، ولا تهدأ. فهمتُ الآن لماذا يُعذِّب الله بالزمهرير جنبًا إلى جنب النار؛ لكليهما أثر رهيب فوق الاحتمال!

***

- سأخبركَ بكل شيء.

هبَّت رياح قوية كادت تسرق الرواية، وتُخفيها في جوفها، ثم تفر هاربة، قبضتُ على الصفحات بقوة وأنا أقرأ آخر ما كُتِبَ للتو؛ أخيرًا قررَت الإفصاح عن كل شيء، لكن ما أدراني أنها لن تكذب عليَّ من جديد؟! دخل الشك إلى صدري مرة، هدَم وحطم ونشب أظافره المدببة بين أضلعي، التخلص منه لم يعد سهلًا. إذا وقع القاضي في حب المتهمة، هل سينتصر الحب أم العدالة؟

- إن كذبتِ ثانيةً سأختفي تمامًا.

عضضتُ لساني لائمًا القلب الذي خنَع، تولَّدَت كلماتها سريعًا بين الأسطر:

- لن أفعل؛ نلتُ عقابًا رادعًا بصمتكَ.. أنتَ فظ في العقاب!

العقاب بالصمت يزعج «رتيبة» أيضًا، البعض يقول إن الصمت أداة للابتزاز والإساءة العاطفية، حتى إنه كان يُستخدم كعقوبة للسجناء في القرن التاسع عشر بدلًا من العقوبة الجسدية، بمنعهم من التحدث ومناداتهم بأرقام بدلًا من الأسماء، وتغطية وجوههم كي يمنعوهم من التواصل مع بعضهم بعضًا، ولو بالإشارات والنظرات ولغة الجسد. ذكَّرني هذا بشكل مفزع بحال الناس الذين أصادفهم في الطرقات وفي زوايا المصنع، وكأن الجميع معاقَب بالصمت، لكنه عقاب أنزلوه بأنفسهم على أنفسهم.

- كيف عرفتِ اسم زوجتي؟

- لأنني أعرفكَ.. أعرفكَ أكثر مما تعرف نفسكَ.

كنتُ أثق بأنها تعرفني، سمعَت عني، رأتني، ولربما تحدثَت معي، لكن قولها: «أعرفكَ أكثر مما تعرف نفسك»، حفَّز أعصابي مرة أخرى، وأثار عاصفة من الدهشة بداخلي، لا أحد يعرفني أكثر من نفسي، لا أحد بإمكانه أن يدَّعي ذلك، مثل هذا الادعاء مردود على صاحبه.

- من أين تعرفينني؟ وكيف استطعتِ فتح جسر بين عالمَينا؟

- هل تسمح لي أولًا أن أحكي لكَ قصة؟

انتابني شعور قويٌّ أن ما ستحكيه ليس مجرد قصة، لم تنتظر ردي، شرعَت فورًا في الكتابة:

- في البدء، كانت طفلة وحيدة لأبوين يغزلان لها نسيج الكون في شكل حكايات قصيرة، ملونة، ومبهرة، تلعب بها ومعها؛ حكاية الشمس التي وهبَت الأرض كل الكلمات المضيئة، مثل: الحق والخير، والنور والجمال، والسعادة والحب، وأخيها القمر الذي أفاض على الأرض كلماته المعتمة، مثل: الشر والظلم، والحقد والحسد، والقبح والتباغض، وحكاية الحب الذي انقسم إلى فصول أربعة، بعدما دارت الأرض الحُبلى به دورة كاملة حول الشمس[1]، وحكاية الببغاء الذي جاع، فلم يجد ما يأكله سوى الحروف المتساقطة من الإملاء، والكلمات المهجورة

(1) ذُكرَت في رواية "ثاني أكسيد الحب"، للمؤلفة.

المتربة في هوامش الكتاب، فتعلَّم لغة البشر، وحكاية الرجل ذي اللحية الكثيفة الزرقاء الذي ابتدع الأرقام، كي يتمكن من عَد شعيرات لحيته، وحروف الأبجدية الثمانية والعشرين التي نبتت من مفاصل كفَي أول كاتب فكر في تدوين الكلمة.

هنا قاطعتُها:

- تلك حكاياتي أنا!

استمرَت، وكأنها لم تقرأ جملتي الاعتراضية:

- حتى قوانين الفيزياء، وبراهين الرياضيات، والرسم البياني في الإحصاء، تعلمَت الطفلة كل شيء من خلال حكايات مشوقة عنهم، للحكاية قدرة خارقة على جمع الكون في قبضة طفل، وهكذا في سن صغيرة كانت قد قبضَت على الكون بين كفيها، فكان بديهيًّا أن تُمسك بالقلم، وتخط حكايات كثيرة عندما تكبر، تشيِّد فيها عوالم، وتهدم أخرى. كان من الطبيعيِّ أن تصبح في نهاية المطاف كاتبة روائية.

توقفَت عن الكتابة لدقيقة، ثم أضافت:

- لكن شيء ما حدث.. شيء ما تبدد، أو لعله انطفأ؛ لم تعد قادرة على اقتحام عوالم جديدة، فقدت قدرتها على تتبع فكرة حتى النهاية.. على الوصول إلى نهاية حكاية. تراكمَت المسودات يومًا بعد يوم؛ حكايات مبتورة، وشخوص باهتة، ومعانٍ مفقودة، وأهداف مؤجلة.. يسمونها سدَّة الكاتب، ويشخصونها كمتلازمة قابلة للعلاج، لكنها لم تكن واثقة من قدرتها على الشفاء، حتى اجتذبتها فكرة، دارت معها كما تطوف أرض حول شمسها، لأسابيع، وأشهر، وسنوات، كل ما تريده أن تكتب نهاية لروايتها الأخيرة. ثم ستتوقف بعدها عن الكتابة، مستسلمةً لكونها قد فقدت الإلهام والحافز، مستسلمةً لكونها باتت باهتة بلا ألوان، شفافة، وأنها لم تعد ملآنة بصنوف الحكاية، لكن الرواية استمرت في التمدد، استطالت وتشعَّبت، واعترفت الكاتبة أخيرًا أنها فشلت في كتابة النهاية، لكنها عنيدة؛ لا ترفع الراية البيضاء بسهولة، أصرت على أن تضع نهاية، وإن لم تُرضِها بشكل كبير، أرادت أن تكتب

خاتمة لمسيرتها الطويلة، لم ترضَ قط بأن تكون نهاية مسيرتها رواية غير مكتملة، حكاية مجهضة بلا نهاية.

توقفَت عن الكتابة لبضع دقائق، كنتُ خلالها أعيد قراءة ما كتبَت، أحاول استيعاب ما تقول، أفتش عن رابط بين القصة التي ترويها، وإجابة سؤالي الذي طرحتُه عليها، وما زلتُ أنتظر جوابه.

- لماذا تخبرينني بكل ذلك؟

- لأنني لستُ قارئتكَ.. كنتَ محقًا؛ كذبتُ عليكَ.

كنت واثقًا من ذلك، إلا أن اعترافها التالي زلزل أركاني، صفع خيالاتي، هدم العالم فوق رأسي، واستجلب آهاتي بأكثر مما فعل الزمهرير والنار:

- أنا كاتبتكَ.. أنتَ شخصية في رواية؛ روايتي الأخيرة التي عجزتُ أن أُنهيها!

وعند تلك الكلمات تمامًا، انتهَت صفحات الرواية بين يديَّ!

***

(56)

عبير الكاتب

كانت ساعة ممطرة كئيبة، عندما توقفت السيارة السوداء الفخمة أمام مركز رقابة الأبجدية، لتنتهي بذلك زيارته القصيرة لمنطقة النار.

كانت أمه تخبره دومًا أن أبطال القصص لا ينتهون بالشأن نفسه الذي بدؤوا به، شيء ما يغير دواخلهم، يعصف بأفكارهم، يُمخِّض عواطفهم، يدفعهم لأن يكونوا أشخاصًا مختلفين عن نقطة البدء والانطلاق. وكانت تضيف: «القصة التي لا تدفع الشخصية الرئيسية لأن تتغير؛ قصة ميتة لا نبض فيها».

تلاقت عيناه في الرواق الداخليِّ مع عينَي قائده، تبادلا نظرة ذات مغزى خفيٍّ عن الجميع إلَّاهما، أدرك «مؤيد» الآن سبب القسمات الذاهلة، العيون الزائغة، العزوف عن الكلام، الغرق في التفكير، فقدان التركيز، الأعراض التي عاد بها قائده من زيارته لمنطقة النار؛ كلاهما امتلك معرفة لا يمكنه الكشف عنها، ولا يدري ما الذي سيفعله بها؛ معرفة تستفز الأعصاب، وتستدعي صنوف الألم، كجمرة تقبض عليها الأنامل.

تبادلا إيماءات رأس خفيفة دون كلمة، نكَّس القائد رأسه، دخل «مؤيد» مباشرةً إلى مكتبه يمضغه التعب، وتبتلعه الهواجس، خلع معطفه، علَّقه على المشجب، ثم أسقط جسده فوق الأريكة ساعيًا لاسترخاء يعرف أنه بات بعيد المنال كبُعد التراب عن النجم. كان يسمع من قبل عن «لعنة المعرفة» دون أن يدرك كُنهها، الآن بات يفهم؛ معلومة يمتلكها المرء ويجهلها الناس، دون أن يكون لديه القدرة على نقلها أو مشاطرتها أو التعامل معها.

أفكاره ضباب يغشى عينيه، فلا يكاد يُبين، يتخبَّط في هواجس تطل عليه من مكامنها داخل صدره، هل الشيء أو الشخص الذي يساعد الناس على مواجهة أخطائهم، ويُبصِّرهم بالواقع، عنصر مخرِّب كما يرى القائد المهيب، أم جندي مجهول كما تؤمن أمه؟ العقول التي أشعلت «حربًا» لأجل بقرة، قادرة على أن تخلق جحيمًا من أجل «حرف» في الأبجدية؛ إن هو فكّر في «طرح» فكرة إعادة النظر في القانون.

انتبه إلى كونه بدأ يصيغ أفكاره مستخدمًا كلمات حائية بيسر عجيب، دون أن يجد واعظًا من ضميره ينهاه عن هذا الفِعل الأثيم، أزعجه ذلك، وأثاره في الوقت ذاته. تقلَّب على جمر السُّهاد، يتذكر آخر كلمات تبادلها مع قائد مجلس البلدية قبل المغادرة:

- ماذا فعل الملك والوزير؟ هل استطاعا شفاء أهل المملكة من الجنون؟
- بل اضطرا إلى الشرب من نهر الجنون!
- لماذا؟
- لأن الجنون مع الجماعة خير من أن تكون العاقل الوحيد؛ العاقل وسط حفنة من المجانين سيظل في نظرهم المجنون الوحيد.

فكر «مؤيد» ربما عليه أن يفعل كما فعل الملك، يشرب من النهر كي لا يكون مختلفًا عن الجميع؛ ينسى كل شيء عرفه في منطقة النار، المعرفة نور والجهل ظلام، لكن ربما من الأفضل له أن يختار مؤاخاة الظلام.

السؤال المهم الآن: كيف بإمكانه إطفاء الشمس التي بزغَت بداخله؟

***

ساقته قدماه ومشاعر مجهولة بلا اسم مُعرَّف، صوب الفتاة التي أخبرته في الغابة أن نبتة إبرة الراعي قادرة على وقف نزيف الدماء، لكن ماذا بشأن نزيف «الروح»؟ هل ثمة نبتة بإمكانها شفاؤه؟

وجدها في مشغلها منهمكةً في العمل، هذا ما بدا له للوهلة الأولى، وبعد نظرة ثاقبة أدرك أنها مُشتتة، ومنغمسة في دوامات التفكير.

- لقد عُدتَ!

قالتها «نداء» بابتهاج عفويٍّ، ثم خطت صوبه تستقبله بسؤال عجول:

- أين كنتَ طوال اليومين الماضيَين؟ أنتَ لا تتغيب عن العمل فجأةً دون إعلامي، وشيخ المنطقة رفض إخباري بمكان إقامتكَ.. هل أنتَ بخير يا «عامر»؟

تأملها صامتًا، ولربما متلذذًا، قلقها أدهشه، ثم زعزعه، ثم أبهجه. لما طال صمته استطردت هامسة:

- ظننتكَ وقعتَ في يد شرطة رقابة الأبجدية، لستَ ذا طباع متمردة، رغم ذلك خشيتُ أن تكون قد اقترفتَ جريمة الأبجدية.. ظننتكَ لن تعود أبدًا.

اختتمَت كلماتها بصوتٍ متهدج، به رعشة «محبَّبة»، «حزينة»، «حنونة»، «مريحة»، و«سمحة». تذوق داخليًّا كلمات جرَّمها طويلًا على وجدانه، معاني مُسكِرة أدارت رأسه، واختلج بها كيانه. بات الآن قادرًا على وصف الفتاة كما يليق بالوصف أن يكون؛ عيونها «حلوة»، مغزولة «بالسِحر»، ملونة «الروح»، «حرة» الشَكيمة، لطيفة «الحديث»، «رحومة» الطبع، ومفعمة «بالحياة». كعلبة «الحاوي» أخرج من «الحرف» المغضوب عليه كلمات ملونة أنجبت معاني عجيبة، قذفت في قلبه عاصفة من «الإحساس»!

- «عامر»، لماذا لا تتكلم؟ تعالَ اجلس هنا، سأصنع لكَ شاي بذور اللوتس.. لا تبدو بخير!

كان بخير.. بخيرٍ كثيرًا، لكنه خير مُقلِق، يوجِب العقوبة، كالماء الذي يقترب من اللهب بلهفةٍ، فينال عقوبة التبخُّر. أعدَّت «نداء» شاي الأعشاب، جلسا في هدوء يرشفانه ببطء، لا لسخونته، وإنما لسخونة الأجواء التي تتقلب فوق جمر المجهول، ساد هدوء مزعج استفز أعصابها، فوضعت الكوب فوق الطاولة، وقالت:

- إن كنتَ متورطًا في مشكلة، فبإمكاني مساعدتك، لعلنا لا نعرف بعضنا بعضًا لفترة كافية، لكنكَ تستطيع أن تثق بي.

ثم مالت صوبه هامسة:

- بإمكاني أن أخبئكَ عن العيون لأسابيع.. لسنواتٍ.. للأبد، دون أن يدري بذلك مخلوق.

صدَّق قوتها، وآمن بإخلاصها؛ تبسَّم، تتنزه نظراته فوق قسماتها بمزيج من الرغبة والرهبة، هل يفشي السر؟ هل يشاطرها الهم؟ هل يعترف لها بمن يكون، أم يستمر في لعبة لم تعد تستهويه؛ تبعثر هدفها في كل صوبٍ، ففقد تجاهها شغفه؟

ماذا لو عاش «حياة» مزدوجة؛ يكون فيها «مؤيد» و«عامر» في الوقت ذاته؟ ألا تعيش بلده في ازدواجية يباركها الجميع، جدار فاصل بين العقل والجنون، أو الجنون والعقل، لم يعد يدري أيها العاقل، وأيها المجنون.

- كم هو عُمر الكذبة؟

تفاجأت «نداء» من سؤاله، ثم قالت بجدية وصرامة بالغة:

- الأكاذيب لا عُمر لها، إنما تُولَد من الأساس ميتة، يسعى الناس لتغطيتها بعطور اصطناعية نفَّاذة، لكن يومًا ما يكشفها شذاها العَفِن.

بدت كلماتها ثقيلة النطق؛ جثمَت على أذنيه بالثقل ذاته. استطردَت شاخصة البصر:

- الكذب يسافر في ظل الجدران، يتكلم بأبجديات بائدة، وينام في جوف العدم، لا سيقان له، وإنما أهداب تُسيِّره في الاتجاه المعاكس للزمن، لا عُمر له، ولا مكان ينتظره، يقطع مسافات لا مُبتدأ لها ولا مُنتهى.

شعر «بالسحر» ينسل من مسام كلماتها، فكر.. ماذا لو تكلمت «بالحاء»، أي بريق قد تفيض به «أحاديثهما»؟ أي معانٍ قد يتشاركانها؟ وأي «أحاسيس» قد يخلقانها؟

كان لا يزال لم ينطق بشيء سوى سؤاله عن عُمر الكذبة، عندما بادرته بتبصُّر أدهشه:

- كأنكَ ضائع!

- بالفعل أنا كذلك؛ الرؤية مشوهة، البوصلة مكسورة، والاتجاهات بلا إشارة.

- تطلَّع إلى السماء إذن، عندما أفشل في العثور على الجواب على الأرض أعثر عليه في وجه السماء.

ابتسمَت فابتسم، ودَّ لو يقص عليها مغامرته بين أمواج اللون الأزرق، وشعور الميلاد الجديد بعد أن كاد يلفظ أنفاسه غرقًا، يخبرها أنه قبض بأصابعه العارية على سمكة، لم يأكلها، أعادها مرة أخرى إلى الماء بعد أن أخبرها بـ «حلم» راوده لأول مرة، وهو بين «أحضان» الموج.

ودَّ لو يشاطرها ما قصَّه على السمكة، ثم يتجولان في الغابة، تُعلمه أخبار النباتات والأشجار، ويقص عليها كل «الحكايات» التي كانت تؤلفها أمه مداعِبةً شعره كي ينام. يتقاسمان سرًا، بل «حفنة» من الأسرار، كل علاقة بلا سر زائفة، وهو يريد أن يعيش معها «الحقيقة» الآسِرة.

- ماذا لو عرفتِ أن جميع من في البلد قد شرب من نهر الجنون، وأنكِ.. وأخاكِ.. وأنا؛ لم نشرب؟ أكنتِ مُقدِمة على الشرب من النهر، أم التمسك بلجام العقل مهما يسُقكِ إلى مصاعب ومشقات؟

فكرَت طويلًا، وكأنها أمام اختبار مصيريٍّ، ثم قالت بتصميم:

- لن أشرب.

عارضها:

- سيظنكِ أهل البلد مجنونة، لأنكِ مختلفة عنهم.
- منذ قديم الأزل، والناس تعد الاختلاف جنونًا.. ما الجديد في ذلك؟!
- سيشككونكِ في سلامة عقلكِ، سيهدمون ثوابتكِ التي ترتكزين عليها، ستستيقظين ذات يوم متسائلةً؛ أيكما العاقل وأيكما المجنون!
- لو كنتُ بمفردي سأشرب.. ربما.. لكن أخي.. وأنتَ.. يكفيني ذلك لأبني عالمًا صغيرًا أعرف فيه أنني لستُ بمجنونة، سنُذكِّر بعضنا بعضًا بهذا كل يوم.
- أو ربما نعيش بوجهين؛ وجه يراه الجميع، ووجه سري لا نظهر به إلا أمام ثلاثتنا.
- لا بأس بذلك؛ أنا أهوى الأسرار.

أشرق وجهها بابتسامة كبيرة، خُيِّل إليه أن الكون كله قد أشرَق معها، امتدَت أنامله تتلمس الطريق القصيرة صوب كفها المضطربة، وعندما ضمَّها وجدها ناعمة، دافئة كصوت أمه، وهي تقص عليه «الحكايات». سحبتها

سريعًا، وتشبعَت وجنتاها بـ «حُمرة» لطيفة، تأملها ساعيًا لإيجاد اسم مناسبة للشعور الذي باغتها، فخلا قاموس الكلمات إلا من كلمة مهجورة.. «الحياء».

عمَّ الظلام بغتةً، غمامة كبيرة وقفت أمام الشمس مبتلعةً إياها دون رأفة، على أعتاب الباب الصغير الذي يُفضي إلى المخزن، وقف الصبي يرقب «مؤيد» في فزع، يشير صوبه بإصبع مرتعشة، ثم يهتف بـ «نداء»:

- هذا هو الضابط البغيض الذي أخبرتكِ عنه يا أختي!

للكذبة «رائحة» عفنة بالفعل، تمكَّن من شمِّها عندما تبدَّت سوءتها، كانت «نداء» شديدة الصدق معه عندما أخبرته أن الأكاذيب بلا سيقان، تقطع مسافات لا مُبتدأ لها ولا مُنتهى، إذ يشعر الآن أنه سار سيرًا طويلًا دون أن يفارق المربع «صفر».

***

السماء كسولة، والأرض متعطشة للمطر، والهواء مُلقَّم ببذور الكآبة، يطوف به فوق الوجوه، ويزرعه في تربة خصبة للإنبات، وجميع وجوه البلد كانت تربة «صالحة» للإنبات.

زكمَت أنفه «رائحة» السردين المختلطة بالعفونة والعَرق، سأل أول من لاقاه، وكان «رفيق»:

- أين «صهيل»؛ ذاك الأسمر الذي يعمل في قسم نزع الأمعاء؟

- في الخلف، عند مخازن التسليم. من أنتَ؟ وفيمَ تريد «صهيل»؟

لم يُجِبه «مؤيد»؛ اندفع مباشرةً صوب المكان الذي أشار إليه، وجده عاكفًا على تعبئة علب السردين داخل الكراتين استعدادًا لإرسالها إلى متاجر التجزئة. انتفض «صهيل» ما إن وقعت أنظاره على «مؤيد»، خُيِّل إليه أن أمره قد انكشف، وأنه قادم للقبض عليه بتهمة القتل بـ «سلاح» الخيال.

- أزعجتكَ؟

هزَّ «صهيل» رأسه نفيًا، على الرغم من أنه ودَّ لو أجابه: «نعم، وأكاد أموت ذعرًا!». استطرد «مؤيد» مشيرًا إلى مقعدين خشبيين بالخارج:

- لا أُطيق السردين، فلنتكلم في الهواء الطلق، لكن أولًا أعِد لنا كوبين من الشاي الأخضر إن كان هذا ممكنًا.

استجلب أسلوبه الهادئ ريبة «صهيل»، لأول مرة يلتقي بالرجل دون أن يقذف بوجهه الصراخ والسباب والتهديد، بل ويطلب مشاركته شرب الشاي! نفَّذ صاغرًا، ينهشه الفضول لمعرفة سبب قدوم الشرطي، لا يبدو أنه يرغب في القبض عليه، وإلا لوضع الأصفاد في يده مباشرةً دون أن يطلب كرم الضيافة.

- تفضَّل.

جلسا يرشفان الشاي، وثالثهما صمت ثقيل يجثم على أنفاس الرجلين؛ صمتٌ مؤلَّفٌ من قلق وتخمين وتفكير وترتيب و...

- هل تعرف لماذا كانت تُغطَى عين الصقر بعد اصطياده؟

كان سؤال «مؤيد» عجيبًا ومفاجئًا، «الصقر»! يا له من مخلوق جميل! لم يعد له وجود في بلدهم، هل هذا فخٌ ما؟ كانت بديهة «صهيل» سريعة ونشطة:

- لأنه ولد طليقًا؛ لا يطيق القيود. إن اكتشف الصقر أنه وقع في الأسْر سيثور بهجوم مباغت ساعيًا للفرار، وسيفشل الصياد في استئناسه، يجب أن يظل الصقر هادئًا بلا مقاومة، كي لا تفشل مهمة ترويضه.

تجرعا رشفات أخرى من الشاي، وقد بدا على «مؤيد» الرضا، وهو يستطرد:

- وهل تعرف لماذا كان يُدفَن في الرمال مع سكْب الماء البارد عليه في الدقائق الأولى لصيده؟

- لأن الصقر طير عزيز النفس؛ إن أدرك أنه وقع في الأسْر سيقتل نفسه في التو.

ثم أضاف:

- لذا وبمجرد دفنه وتهدئة قلبه بالماء البارد، يجب تغطية عينيه قبل أن يرى مَن اصطاده؛ إن عرف الصقر أن صائده هو نفسه مُدرِّبه سيزداد شعوره بالمهانة.

بدا وكأن الغمام قد بدأ في التكشُّف رويدًا، والأرض «فرحة» لاستقبال الغيث، و«السحاب» قد تنفَّس بعمق، يخط بريشته البيضاء فوق صفحة السماء الزرقاء كلمات لا مرئية، تتجول دون رقيب، «تتلاقح» مع المطر،

فتنسكب فوق الأرض كـ «أحبار» شفافة، سقطت قطرة في كف «صهيل» اليسرى، وأخرى فوق جفن «مؤيد».

لم يفهم «صهيل» سر الكلام عن الصقر وصياده، موضوع غريب للنقاش بين ضابط ومشتبه به في جريمتَي قتل، لكن الأغرب كان سؤال «مؤيد» التالي:

- هل تعرف أجمل ما في ألف ليلة وليلة؟

- أنها دون مؤلِّف.

أجاب «صهيل» دون تفكير، لأنه سبق أن فكر في هذا المعنى، كتاب شارك في كتابته مؤلفون كُثُر على مر الأزمان ومن مختلف الأمكِنة، مجهولون متوارون عن الأنظار والأسماع، كلٌّ منهم يضيف شيئًا فريدًا إلى الكتاب، ذكَّره هذا بـ «الحياة»؛ كتاب يؤلف فيه كلٌّ منا جزءًا بوقائع فريدة، من مختلف صنوف «الحكايات»؛ قصصًا صغيرة مغزولة مع بعضها بعضًا في قصة كبيرة، خيوطًا متشابكة، ومشاهد «متلاحقة»، وشخوصًا مقرَّبة ومتباعدة، سبب يقود إلى نتيجة، ونتيجة يسبقها سبب.. تمامًا كما في بناء الرواية.

ولأنه كاتب روايات أدرك أن لسؤال الشرطي مغزى سيقوده إلى ضم قطع «الأحجية» المتناثرة معًا، كي تُشكِّل «حبكة» متماسكة، لذا دقق النظر، وأصاخ السمع، و«شحن» تركيزه، و«شحذ» تفكيره. بادره «مؤيد»، وهو يقترب منه متشممًا إياه:

- هل ينبعث منكَ عبير زهر العسل أم أنني واهم؟ نعم.. إنها هي.

يرسم «الحنين» بسمة رائقة على شفتَي «مؤيد»، وهو يردف:

- كانت أمي تخبرني أن للجميع عطرًا مميزًا في هذا العالم، يمكنك أن تشتمّه من أجسادهم مهما يغطُّوه بالعطور الزيتية أو الاصطناعية؛ كانت تقول إن العبير المميز للأطباء هو القطن، والعبير المميز للمعلمين هو الخشب، والعبير المميز للعاملين هو التراب، والعبير المميز للضباط هو شجر الليمون، أما العبير المميز للكُتَّاب فهو زهر العسل. لا أعرف لماذا هذه النبتة بالذات كانت أمي تزرعها في شرفة بيتنا، وتوليها عناية فائقة؟!

وكأن الشبه الكبير في القسمات لا يكفي، يقص عليه أيضًا اعتزاز أمه بزهر العسل! كلماته عن أن لكل مخلوق «رائحة» مختلفة، وأن «رائحة» الكُتَّاب هي زهر العسل؛ ذكَّره بالبستانيِّ الذي نفر منه ما إن اشتمَّ زهر العسل في ملابسه، قائلًا: «أنتَ منهم، ابتعِد عني!»، أيكون البستانيُّ قد أدرك من «رائحته» أنه كاتب؟

بدا عقل «صهيل» مشوشًا، كلما قبض على أفكاره تنزلق من إدراكه كالزئبق. أنهى «مؤيد» الشاي في كوبه، نهض واضعًا كفيه في جيبَي سُترته الجلدية، قائلًا وهو يغرف بعينيه من خير الأفق:

- لا أعرف ماذا تصنع، ولا دورك في هذه القصة؛ جندي مجهول أم عنصر مخرِّب! وبالمناسبة، لا أريد أن أعرف، فقط أريد أن أقول لكَ: استمر، أيًّا كان ما تفعله.. استمر في فعله. هذا العالم بائس جدًا؛ غير قابل للتغيير.. غير قابل للإنقاذ، لكن على الأقل يمكننا أن ننقذ أنفسنا. العمر قصير، فنعيشه كما نريد أن نكون.

ثم مضى دون أن ينظر خلفه، تاركًا «صهيل» فاغرًا فاه، يتقاذفه الذهول!

***

مصنع الكلمات

«الجاهل ميِّت بين الأحياء».

علي بن أبي طالب

- لا أريد الدخول يا «ري»، أنا خائف جدًا!

رغم أن «ري» قد أنفقَت الأيام الماضية تُقنعني بالدخول، فإنه عندما حانت اللحظة الحاسمة شعرتُ بفزع رهيب، لا أحد يلومني إن طُلِب مني الدخول إلى عالم مجهول، مفتاحه كتاب من الخشب!

- «كي»، لقد تحدثنا في هذا سابقًا، يجب أن نفعل ذلك، كي نعيد الحاء إلى البلد.

قلتُ بانزعاج كبير:

- لماذا نساعد أهل هذا البلد؟ ربما لا يرغبون في المساعدة، ربما يحبون ما هو عليه الحال، ما أدراكِ أنهم يرغبون في عودة الحاء إلى الأبجدية؟ هم الذين محوه بأنفسهم، وبالتأكيد لا يرغبون في استعادته!

تملُك «ري» من الصبر ما يكفي لتكرار كلماتها عشرات المرات، ومن العناد ما يكفي للإصرار على إقناعي بما تؤمن به، قالت ما رددته عليَّ سابقًا بحلم وهدوء المرة الأولى:

- لقد حدَّثتكَ عن الطاعون الذي انتشر قبل سنوات طوال؛ الموت الأسود الذي حصد أرواحًا لا حصر لها. أخبرتُكَ أن الخرافة كانت عاملًا مهمًا في تفاقم المرض. عندما ذاعت شائعة أن الفئران هي المسؤولة عن المرض، قتل الناس آلاف القطط قبل أن يتبيَّنوا أمرهم، قبل أن يحصلوا على معلومة دقيقة مؤكدة. وماذا كانت النتيجة يا «كي»؟ انتشر المرض أكثر، لأن ببساطة لم تكن القطط هي المسؤولة عن انتشار المرض، بل

الفئران والبراغيث التي تحملها على ظهرها: أي أن قتل القطط لم يحل المشكلة بل حوَّلها إلى كارثة.

- ما علاقة هذا بحرف الحاء؟

- الخرافة يا «كي»، أينما وُجِدت الخرافة أزاحت في مقابلها عشرات الحلول المنطقية والأفكار العقلانية، ومحتها من الوجود، بل واتهام العقلاء بالجنون. الخرافة هي العدو اللدود للعلم والمعرفة يا «كي»؛ التطيُّر بالغراب، التشاؤم من الرقم 13، الخرزة الزرقاء، حدوة الحصان، وفتح الشمسية داخل البيت... كلها أمور توجِّه الناس إلى قناعات غير منطقية، وتدفعهم إلى الإيمان بالأوهام، وأسوأ أنواع الخرافات هي التي تكون في العلم والدين، تؤدي إلى كوارث أكبر من التي يمكن أن يُحدثها الاعتقاد بأن المشي تحت السلم يجلب الحظ. والبعض لا يُقلِّد خرافات الآخرين، بل يخترع خرافاته الخاصة! نزْع الناس لحرفٍ من الأبجدية، ومعاقبة الكلمات، وتجريم «الحوار» كي تنتهي «الحروب» والصراعات؛ هو محض خرافة يا «كي»، خزعبلات تُعشش في رؤوسهم، ولن يكونوا سعداء ما لم يدركوا ذلك.

- ولماذا نحن من نساعدهم؟ اثنان من جنس الفئران المكروه؟

- الملَك ابن النور، والجان ابن النار، والإنسان ابن الطين، والحيوان ابن التراب؛ ألا نكون أوفياء للتراب الذي خُلِقنا منه، فنحفظ تراب هذا البلد من الهلاك؟

ولمَّا رأتْ «ري» في عيني بقايا عصيان استدرتْ عاطفتي بأكثر نبراتها رقة:

- البشر الذين يعيشون في هذا البلد الحزين محبوسون داخل ذواتهم، لأنهم لا يستطيعون الاعتراف بـ «الحرمان»؛ لا يستطيع الواحد منهم أن يُعدد ما هو «محروم» منه، لا يمكنه أن يصرخ: «أنا محتاج». هؤلاء البشر يعيشون في دوائر مغلقة من «الحرمان الاجتماعي»، فلا يستطيع الفرد منهم أن يتفاعل مع سائر المجتمع. إن لم تكن هذه العزلة سجنًا، فماذا يكون السجن إذن؟ يجب أن نحررهم يا «كي».

قلتُ متمسكًا بآخر قطراتٍ من عنادٍ يمتلئ بها جوفي:

- وما أدراكِ أن هذا الكلام المكتوب بخط اليد في بطن هذا الكتاب ذي الغلاف الخشبيِّ صحيح؟ ربما كذبة، أو خدعة.. أو وهْم.

- أو معجزة لا تدركها الأفهام.

- أو هذيان وأضغاث أقلام.

ضمَّت بقايا الكتاب تحتضنه بين قوائمها بعناد؛ الكتاب الذي أخبرتني أنها وجدَته في جُحر الأعشاب التي تضعها صاحبته جنبًا إلى جنب الألوان والصور، تقول «ري» إنها عثرت على الكتاب في شقٍ متوارٍ بالجدار، فأخذته في الحال، إذ إنها عندما تذوقت أولى كلماته المكتوبة بخط اليد تنبأت بأنه كتاب خطير، ليس كغيره من الكتب.

قاطعت «ري» تفكيري، وهي تمسح على ظهر الكتاب، أو ما تبقَّى منه، كأم تتحسس جسد رضيعها:

- أعرف أنكَ لا تصدقني يا «كي»، لكنني أؤمن بالكلمات التي أكلتُها من هذا الكتاب، كما ترى، أنهيتُه إلا قليلًا، لذا لا يمكنني أن أجعلكَ تشعر بما أشعر به؛ أكلتُه وحدي في الأيام التي تخاصمنا فيها، وما إن انتهيتُ منه حتى ذهبتُ إلى جُحركَ، كي أحضركَ إلى هنا، ونبدأ مهمة الإنقاذ.

- وما أدراكِ يا «ري» أن كاتب هذه الكلمات رجل عاقل، ربما هو مجنون!

- المجنون لا يُصلِح يا «كي»، المجنون يهدم فحسب.

ثم أضافت، وهي تترك الغلاف الخشبيَّ للكتاب يسقط أرضًا، تدنو مني، تنظر في عمق عيني، وتمس بقائمتها كتفي، تعرف «ري» كم تَضعف مقاومتي حين تفعل:

- الكلمات التي أكلتُها كانت مفعمة بالصدق يا «كي»، أقسم لكَ.. كان كاتبها حريصًا على أهل بلدته، لذا فتح لنا بابًا لإنقاذهم، كما أخبرتُكَ من قبل. وحسب ما فهمتُ، لقد راودته رؤيا عظيمة -بينما كان نائمًا- عن شجرة عملاقة تتفتح فيها عوالم ضخمة، وتعيش فيها مخلوقات عجيبة. عوالم الشجرة لا تتفتَّح أبوابها إلا لكاتب شغوف مثابر، وكان هو كاتبًا شغوفًا مثابرًا، رأى أن ثمة مخلوقَين ناقصَين من عوامل الشجرة الأسطورية يبحث عنهما أبوان مكلومان؛ مخلوقان صغيران

لهما نفس أوصافنا يا «كي»، أقسم لكَ.. يقول الكاتب إننا يجب أن نعود إلى الشجرة، إلى حيث ننتمي، لكن قبل ذلك علينا أن نُحرر إحدى الكلمات من الأسْر!

- وكيف سنفعل؟

فهمَت «ري» سؤالي كبادرة تعاون في حين أنها لم تكن كذلك؛ أجابتني بحماس، وهي تُحرك قائمتيها في الهواء كما تفعل حين تتحدث في موضوع مثير:

- كما يقول الكاتب: كلمات العالم كله، المنطوقة والمكتوبة؛ جميعها تخرج من مصنع الكلمات، ومصنع الكلمات موجود فقط في أحد عوالم تلك الشجرة. في مصنع الكلمات تُصنَع كل الكلمات الموجودة على ظهر الأرض، ثم تُمرَّر عبر خطوط ثابتة إلى كل مكان، وكأنه نهر يُغذي بقنواته كل شبر من الأرض. هناك خط خاص بكل لغة، وبكل لهجة وبكل أسلوب. قال كذلك إن علينا إيجاد الخط الذي يُغذي هذا البلد الذي تقيَّدت حاؤه، ورُميَت كلماته في غياهب السجن.
- أي أنه يريدنا أن نُحرر كل الكلمات الحائية من الأسْر؟
- ليس الكلمات كلها، لا نملك القوة لنفعل، فقط كلمة واحدة؛ بإمكاننا أن نُحرر كلمة واحدة من الأسْر.
- وما هي تلك الكلمة؟

سألتُها لأعجزها، ولقد أصبتُ الهدف، قالت ترفع كتفيها حائرة:

- لا أعرف بعد، كلمة «سُلطانة» يقول المؤلف إننا سنختارها بأنفسنا.

ثم أضافت بإصرار مستعيدة حماستها:

- سنقرر وقتها أي الكلمات سنُحررها من الأسر، لا أريد أن أخوض تلك المغامرة بمفردي، هل أنتَ معي؟

تعلَّقت أنظاري بالكتاب المفتوح أرضًا؛ غلافه الخشبيُّ الذي من المفترض أن يكون مفتاحنا لمصنع الكلمات كما يقول كاتبه، نحن بالذات، الفأرين المنبوذين!

وحدها الفئران تأكل العقارب، فهي قادرة على تحمُّل لدغتها المؤلمة، أقول ذلك رغم أنني لم أعرف مذاق العقارب قط، لم أعثر طوال حياتي على واحدٍ، وفكرة العودة إلى العالم الذي أتيتُ منه لأتلذذ بأكل ما أشتهي بدت مثيرة جدًا. لكن ما فائدة الأكل؟ هل لكي أبقى حيًّا؟ ما فائدة حياتي إذن؟ لماذا أحرص عليها تمام الحرص بينما هي جوفاء بلا هدف؟!

رغم ذلك أشعر أنني بطل حكاية تسير حبكتها ببطء شديد، لكاتب يملك الكثير من الصبر والوقت، يُضفِّر الأحداث البعيدة، والوقائع القريبة كي يصل بحبكته إلى لحظات الصراع بالغة التشويق، وعندئذٍ سأتقلد مكاني كبطل الحكاية، وأؤدي أفعالًا لا يقدر عليها سوى الأبطال، سأهزم كل شرور العالم، وأرفع رايات الحق والخير والجمال.

أكلتُ الكثير من أوراق الكتب التي تتحدث عن الأبطال، وكلما أكلتُ أكثر، زادت رغبتي في أن أكون أحدهم؛ أبا زيد الهلالي، الشاطر حسن، السندباد، علي بابا، علاء الدين، الحارث بن همام، علي الزيبق، زرقاء اليمامة، حذام.

أكْل الكتب لا يحرك رغبتي في أن أكون في مصاف الأبطال فحسب، بل ويجعلني قادرًا على فهْم بني الإنسان، فالكثير منهم «لا يعرفون الكُوع من البُوع[1]»: أي أنهم جُهَّال تمامًا، أكلتُ ذات مرة هذا السطر، فاستقر معناه في نفسي.

- إن لم تأتِ معي يا «كي» سأذهب بمفردي، لكن هذه المرة لن أسمح لكَ بالعودة إلى مغارة الكتب، لن أسمح لكَ أن تكون بقربي أبدًا.

يا له من عقاب قاسٍ يا «ري»، يستنفد قدرتي على الاحتمال، كنتُ ما زلتُ أرتجف خوفًا عندما قلتُ لها:

- أنا معكِ.

اتسعت ابتسامتها، ولمعت أنيابها، أمسكَت بالكتاب، وخرجنا معًا نتحسس مواضع قوائمنا في طريقنا الطويلة نحو الغابة، ومنها إلى الشجرة العملاقة التي كُتِب عنها في الكتاب الذي تحتضنه «ري»، وكأنه أحد صغارها. وضعَت الكتاب ملاصقًا للشجرة، التي صُنع غلافه من أحد فروعها كما قال الكاتب،

(1) البوع: عظم يلي إبهام الرِجل.

ثم أمسكَت «ري» بيدي، تُربت على كتفي مطمئنة، أمنحها ابتسامة مضطربة حاولتُ أن أجعلها شجاعة.

- أنتَ شجاع يا «كي»، الشجعان وحدهم يواجهون مخاوفهم.

منحتُها ابتسامة أكثر ثباتًا هذه المرة، تبددت سريعًا، إذ طالعني أعجب مشهد رأيته في حياتي، ذاب غلاف الكتاب في جسد الشجرة، عاد الغلاف فرعًا كما كان في خلقه الأول، تشممته الشجرة في البداية، ثم قرَّبته، ثم عانقته، ثم أذابته فيها، تاركة أثرًا طفيفًا كجرح أُعيد خياطته.

أغمضت «ري» عينيها، ففعلتُ، عَدَّت حتى ثلاثة، ثم قفزنا عاليًا في الهواء بأقصى مسافة تُمكننا منها قوائمنا الثمانية، وعندما هبطنا فوق الموضع الذي التحم فيه الغلاف الخشبيُّ مع الشجرة كانت المسافة طويلة.. طويلة جدًا، وكأننا سقطنا في بئر ليس لها نهاية، تلُفُّنا عاصفة غبارية عنيفة، أعجزتنا عن فتح أعيننا.

أخيرًا لامست قوائمنا سطحًا مستويًا، شعرتُ بدوار شديد في رأسي، عجزتُ عن الوقوف بأعصابي الخائرة، تسرَّبت رائحة ثقيلة إلى أنفي، كنتُ ما زلتُ مغمضًا عيني بشدة عندما سمعتُ «ري» تصيح مبهورة:

- يا للروعة، إننا في مصنع الكلمات!

فتحتُ عينَي ببطء شديد، ثم اتسعتا لاستيعاب المنظر الرهيب، إننا حقًا في مصنع الكلمات، لم يكن الكاتب واهمًا!

***

على الهامش(*)

(*)ما كان ينقصني سوى هذا الشرطي المعتوه!

لم أفهم فيمَ جاء، وفيمَ ذهب، وماذا أراد أن يقول، ماذا يعني بـ«استمر في فعل ما تفعله»؟ لا يتحدث عن تعبئة السردين بالتأكيد!

أنا لا أفعل شيئًا مهمًا في حياتي اللعينة سوى الخضوع لمحاكمات «رتيبة» في محاولة لإثبات براءتي من تهمة الخيانة، وتأليف روايات، إما تُنشر بغير اسمي، وإما غير صالحة للنشر على الإطلاق، ومؤخرًا أُضيفَت مهمة جديدة، ألا وهي التحدث مع فتاة معتوهة بين سطور كتاب، وكأن لدي مغناطيسًا قويًا قادرًا على جذب الجنون.

الفتاة تدَّعي أنها كاتبتي، لم أسمع أو أقرأ شيئًا بهذا السخف قبلًا! أنا «صهيل» المنتصب أمامك الآن، ويضرب بقدمه كراتين السردين غضبًا، والمؤلَّف من لحم وعظم ودماء وأعصاب، تدَّعي تلك المعتوهة أنني شخصية متخيَّلة مؤلَّفة من أحرف وكلمات!

لا والأسخف أنني من بنات أفكارها، من مخاض خيالاتها، أخبِرني بربك هل تقع شخصية روائية في حب كاتبتها؟ هل هذا أصلًا قابل للطرح على طاولة النقاش؟ هل تبدو الشخصيات الروائية حية مثلي؟ هل تبدو متناقضة، وممتعضة، ومهمشة، وساخطة، وغاضبة بقدري؟ هل قابلتَ شخصية روائية لا تؤدي دور البطولة كما يجب أن يكون؟ هل أبدو لكَ كأبطال الروايات؟ أنا أشبه بشخصية ثانوية تقع

على حافة الأحداث، غير مؤثرة في الحبكة، ولا تملك دورًا فعّالًا في نقاط التنوير الرئيسية، فكيف بربكَ تريد تلك المخادعة إقناعي بأنني بطل روايتها؟

معتوهة.. نعم، أدرك ذلك، ولعلها تمارس سحرًا أسود مكّنها من التواصل معي عبر سطور الرواية، نعم، إنه السحر بالتأكيد، لكنها تغلغلت في نفسي، واستطالت جذورها بداخلي حتى إن محاولة انتزاعها ليست مؤلمة فحسب، بل لم تعد من المُمكِنات، أشتاق إلى تلك المعتوهة كما يليق بالشوق أن يكون.. مفجرًا، مؤلمًا، حارقًا، كالاحتضار.

أغلقتُ باب المخزن جيدًا من الداخل، أخرجتُ الرواية من جيب معطفي الداخليّ، قلَّبتُ أوراقها حتى بلغتُ الصفحة الأخيرة، الجملة الأخيرة: «أنا كاتبتكَ، أنتَ شخصية في رواية، روايتي الأخيرة التي عجزتُ أن أنهيها»!

ليتَ الصفحات لم تنتهِ! ليت الأسطر لم تنفد! ليت فراغًا واحدًا بين سطرين لا يزال متاحًا، فأسكب بداخله براكين غضبي! عجزي عن الرد على كلماتها بما يليق بالرد المستهجن أن يكون أجَّج غضبتي، وكأن قنبلة انفجرت بداخلي، وحوَّلتني إلى أشلاء ككسر الزجاج مبعثرة، تجرحني كلما شرعتُ في لملمتها ولصقها من جديد.

لم أُطِق المصنع، ولا البيت، ولا الشارع، ولا مجالسة «رفيق» في مكاننا المعتاد عند خط النار، المكان الوحيد القادر على استيعاب غضبتي الآن هو المكتبة الليلية، سأدفن نفسي المحتضرة بين صفحات الكتب؛ علها تنبعث من رمادها كما العنقاء.

ولأنني لم أُرِد مفارقة المكتبة حتى الفجر؛ لم أسأل الحارس أن يأتيني بأي كتاب محرم من القبو، اكتفيتُ بأشباه الكتب المرصوصة فوق الأرفف، ربما لأنها مشوهة الكلمة، ناقصة الأبجدية، منزوعة المعنى.. مثلي.

أنفقتُ الوقت داخل الغرفة المثلثة، حتى...

- أتيتُ!

بلغَت الكلمة أسماعي همسًا، وكأن الريح حملتها من بلاد بعيدة، أو عوالم لم تُكتشف بعد، وبصوتٍ متمهِّل كسكب الشاي الساخن في فنجان خزفي! رفعتُ

رأسي عن الكتاب العقيم الذي أقرؤه، خُيِّل إليَّ أنني سأطالع أمامي أي شيء، أو أي شخص داخل الغرفة المثلثة، إلا المستحيل الذي أراه ماثلًا أمام ناظري الآن!

***

تصدَّع العالم أمام عيني، دار رأسي كما كان يدور قبل ثلاثين عامًا عندما كنتُ أسبح في البحر المحرم علينا الآن، لم أنسَ البحر، ولم أنسَ العوم، أدركتُ ذلك بينما أجدِّف بذراعي أصارع أمواجًا هادرة غير مرئية، في محاولة عابثة للنجاة من دوامة قاتلة.

- شُعلة!

نطقتُ بحروف اسمها همسًا وجزعًا، داخل الغرفة المثلثة مغلقة الباب أرى الآن الخادمة التي التقيتُها لمرة واحدة داخل منزل السيد «ك» قبل موته؛ الفتاة التي لم تترك خلفها أثرًا، والتي تتحدث عن بتر ذراعي اليسرى بسهولة تحدُّثها عن الطقس، والتي كدتُ أصدق أنها وهم خلقته في رأسي!

من عينيها كانت شرارات النار ماثلة كما رأيتُها أول مرة، وقفتُ ببطء، لم أدنُ منها، وإنما تسمَّرتُ في موضعي أحاول العثور على كلمات صالحة للنطق.

- أعتذر إن أخفتكِ.

لم تُخِفني، بل كادت تقتلني فزعًا، من أين جاءت؟ وكيف دخلَت؟ اشرأب عنقي أستطلع الحارس في مكانه حول مكتبه الدائري، من أهم قوانين المكتبة الليلية منع وجود قارئَين في غرفة واحدة، مستحيل أن يُسمح لها بدخول غرفة أنا موجود فيها إلا إذا...

- لم يرَني.. ولن يراني.

أجابتني عن سؤال لم أسأله، بجواب لم أفهمه، كيف لم يرَها، ولن يراها؟ لماذا أنا الوحيد الذي يراها إذن؟ كانت ترتدي نفس الفستان الأسود بقماشه الحريريّ، شعرها مُجمّع إلى الخلف بشكل دقيق دون أن تتفلَّت شعرة واحدة، متوسطة كل شيء: الحجم، القامة، السمار، الجمال، والشامة التي بحجم قطرة حبر لا تزال هناك تتصدر الطرف الأيسر من شفتها العلوية. تمامًا كما التقيتُها أول مرة، دون تغيير، وكأنني فارقتُها في بيت السيد «ك» للتو!

مهلًا، هل ما يخبرني به قلبي حقًا؟ هل أدرك قبل عقلي حقيقة الفتاة التي تقف أمامي الآن؟ يقولون إن القلب يسبق العقل أحيانًا، لذا نتأخر كثيرًا في ترجمة ما نشعر به، هل تكون الفتاة الماثلة أمامي الآن هي الفتاة نفسها التي أنفقتُ أيامًا ولياليَ أفضي إليها، وتُفضي إليّ؟

- إنها أنا، أعلم أن هذا صادم؛ سأخبركَ بكل شيء.

وددتُ أن أصفعها، ثم أعانقها، ثم أصفعها، ثم أهرب منها، ثم أهرب بها، ثم أهرب إليها! لم أُقدِم على أيّ مما وددتُه، تسمرتُ في مكاني مثل شجرة عمرها ألف عام، زرعَها عابر ليل في مكان غير مأهول بالواقع.

- من أنتِ؟

- أخبرتُكَ.

- ما كتبتِه هراء.

- ما كتبتُه حقيقة.. والحقيقة في نظر المكذِّبين مِراء.

لاحظتُ نطقها لكلمة «الحقيقة»، هل تصدق ذلك؟ تفوَّهَت بكلمة حائية في البلد الذي يمنع النطق بالحاء دون أن تنقض علينا شرطة رقابة الأبجدية لتسوقها إلى المكان الذي يحترق فيه الناس، ثم يعودون رمادًا في زجاجة! يبدو أنها قرأت أفكاري، أو أنها بالفعل تعيش داخل رأسي، فكَّت عقدة الوشاح المعقود حول رقبتها، فتبدَّت أمامي رقبتها العارية من الأطواق، هذا مستحيل!

- أنا إنسان.

- لم أقل إنكَ غير ذلك.

- ادعيتِ أنني شخصية في روايتكِ.

- أنتَ كذلك.

- كلامكِ يُناقض بعضه بعضًا!

- أنتَ إنسان بالفعل، ربما قابلتُه عند باب المترو، أو تشاركنا مقعدين في حافلة سفر طويل، أو ربما صادفتُك في شارع مزدحم، فاصطدم كتفانا، أو

شربتَ من فنجان قهوة كان بين يدي في نفس المقهى، ثم أخذتُك وحبستُك في رواية، كما ترى، لا يناقض كلامي بعضه، بل يكمِّله.

- أنتِ تتلاعبين بالكلمات.

- أنا كاتبة؛ لعبتي هي الكلمات.

- أنا الكاتب هنا.

- وماذا أكون أنا؟

- وهْمًا اختلقه خيالي، ربما أنا مريض كما يدَّعي «رفيق»، أو معتوه كما تظن «رتيبة». أنا مريض، وأنتِ عرَض لهذا المرض.

- أنتَ مريضٌ بي، وأنا مريضةٌ بكَ إذن، لأنني أيضًا اختلقتُك من طين خيالي، ثم جررتُك معي في حبكة رواية.

- إذا كان كلامكِ صائبًا؛ إذا كنتُ بالفعل شخصية في رواية، كيف أمتلك إرادة لأفعل ذلك!

أنهيتُ كلماتي في اللحظة التي دوَى فيها صوت الصفعة، كانت مباغتة إلى الحد الذي جعلها ترتطم بأرفف الكتب. مسحَت بأناملها فوق جبينها تتفحَّص قطرة دماء نازفة، ثم تعود لتستقيم أمامي من جديد.

- هذا ما لا أجد له تفسيرًا أنا الأخرى، وربما حدث ذلك كعقاب لي على خطأ مخيف قد ارتكبتُه. أنتَ قاسٍ حين تغضب!

ثم أضافت بعد تنهيدة عميقة:

- كان كل شيء يسير كما ينبغي أن يكون؛ أكتب رواية كما اعتدتُ أن أكتب دومًا؛ روايتي الأخيرة.. رواية اعتزالي.. حكاية عن بلد خرج أهله إلى الشوارع ينادون بسقوط الحاء من الأبجدية، بعد حرب طويلة طاحنة استنزفتهم. وفي الحكاية شخصية هامشية.. ثانوية؛ غير مؤثرة في مجرى الأحداث الرئيسية. كاتب ظِل يؤلف الروايات سرًا، ثم يبيعها لمن يدفع ثمنًا مناسبًا، يكفي به احتياجات زوجة لا يحبها، ويستمر في حياة لا يريدها. يؤلف الروايات بالطلب من أجل السيد «ك» إلى آخر لحظة في حياته.. يعيش سلبيًا، ويموت كذلك.

ازدردَت ريقها، سرح بصرها، ثم ثبَّتته في عمق عيني، وهي تردف:

- لكن فجأةً حدث شيء غير متوقع، في اللحظة التي كدتُ فيها أن أكتب مشهد النهاية في آخر الفصل رقم (30)، في مكتب السيد «ك»، بينما يطلب منكَ كتابة رواية جديدة؛ فجأةً بلا إنذار، رفضتَ عرضه.. تشاجرتَ معه.. سببْته.. هاجمتَه، ثم صفعتَ باب المكتب مغاضبًا. لم يكن ذلك ضمن تفاصيل الحبكة، لم أرسمكَ متمردًا، وإنما كشخصية عاجزة عن التغيير!

تهدَّجت أنفاسها، وهي تضيف بانفعال، وكأنها ترى المشاهد حاضرة أمام عينيها:

- حاولتُ أن أعيد الأمور إلى نصابها؛ دفعتُ بالسيد «ك» إلى حبسك في غرفة الخفير علك تنصاع من جديد، فتنسى لحظة التمرد غير المحسوبة تلك، لكن بدلًا من حل المشكلة تفاقمت أكثر؛ شيء ما حدث لكَ في تلك الغرفة.. أجَّج تمردكَ، وألهب إدراككَ، وقذف بداخلكَ الرغبة في التغيير. شرارة صغيرة لا أعرف من أين جاءت أشعلَت بداخلك النار، وحب النار، بعد أن كنتَ خاملًا، باهتًا، منطفئًا.. كالرماد، حتى إنكَ تمرَّدت على الصيغة السردية للمفرد الغائب المميَّزة للراوي العليم، ومضيتَ في حكايتكَ بصيغة المتكلم. كان من المفترض أن أكتب رواية كاملة خالية من الكلمات الحائية، مثل: رواية «Gadsby» للكاتب الأمريكي «إرنست فنسنت رايت»، التي كتبها خالية تمامًا من حرف الـ E، وكالخطبة المنسوبة لـ «علي بن أبي طالب» الخالية من الأحرف المنقوطة، وأخرى خالية من حرف الألف.. أردتُ أن أكتب روايةً خالية تمامًا من حرف الحاء، مثلما كتبَ «يوسف محمد عبد الجواد الشربيني» كتابًا كاملًا خاليًا من الأحرف المنقوطة أسماه بـ «طَرَح المَدَر لحلِّ الآلئ والدُّرر»، لكنكَ.. لكنكَ.. أفسدتَ سرد روايتي!

كنتُ أستمع إليها، وكأنها تحكي عني، وفي الوقت ذاته عن شخص لا أعرفه، استطردَت، وهي تتحسس الجرح الصغير في جبينها، وتغالِب ألمًا متصاعدًا في أنحاء جسدها:

- ثم قررتَ فجأةً أن تكتب رواية محرمة؛ تخالف بها قانون الأبجدية الذي لم يخالفه أحد في الرواية، ولا حتى أشجع شخوصها. فقدتُ السيطرة عليكَ

تمامًا، وكأنكَ.. وكأنكَ تملك إرادة حرة تمردتَ بها على صانعك: تُفكِّر.. وتُحلل.. وتبحث.. وتفحص، ومن ثمَّ تُقرر. وكأنكَ.. وكأنكَ إنسان حقيقيٌّ!

رعدَ صوتها، برقَت عيناها، وباتت حركة يديها في أثناء الكلام أكثر اضطرابًا. وهي تردف:

- فشلتُ في إنهاء الرواية، اضطررتُ إلى دفْع شخوصها لخوض أحداث جديدة في الخط الرئيسي الموازي لخطك الثانوي، أما ما تفعله أنتَ وتنسجه من أحداث فقدتُ سيطرتي عليه تمامًا. كنتُ لا أزال أمسك بخيوط الخط الرئيسيِّ في يدي، فصنعتُ حبكة جديدة لشخصية الشرطي «مؤيد»، وأضفتُ شخصية أنثوية تتفاعل معه، وتدفع بالحبكة إلى الأمام. أما أنتَ.. لم أجد بُدًا من التواصل معكَ؛ أحاول أن أفهم ما الذي حوَّلكَ من شخصية مهمشة إلى شخصية صاحبة قرار، أثرتَ فضولي بشدة، لأول مرة أرغب في أن أتحاور مع أحد شخوص روايتي، ففعلتُ، في المكان الوحيد الذي يستطيع كاتب أن يلتقي فيه مع شخصية روائية على مرأى ومسمع من القارئ.. بين السطور.

- ألا يرانا القارئ الآن؟ احذري.. أنتِ تخاطرين بإفساد الرواية!

قلتُها هازئًا، غير مصدق لكل ما تقول، أجابتني بجدية بالغة:

- القارئ لا يرانا الآن، انتهى الفراغ بين السطور؛ نحن الآن نلتقي في مكان بعيد عن عينيه.. نحن الآن على هامش الرواية.

- ولماذا لا يرانا في الهامش كما يرانا بين السطور؟ هل يحتاج إلى نظارة مُكبِّرة ليفعل؟

قلتها هازئًا من جديد، فأجابت بالجدية ذاتها:

- في هامش الرواية يتجمَّد الزمان والمكان، وتتوقف الأحداث عن التتابع. في الهامش لا يستطيع القارئ رؤية شيء سوى المعلومات الجامدة التي يُرسلها الكاتب إليه عامدًا. لكل رواية مكان، وزمان، وحدث.. نحن الآن نقف في اللامكان.. واللازمان.. واللاحدث!

تأكيدًا لكلماتها التفتَت صوب الحارس المنشغل فوق مقعده حول مكتبه الدائريِّ، اشرأب عنقي أستطلع أمره، وأدقق النظر هذه المرة، فهالني ما رأيتُ! تجمَّد الرجل في مكانه، ممسكًا بالقلم في يمناه، سن القلم متسمِّرٌ في الهواء بقوة

خفية لا تحرك له ساكنًا، بينما إحدى الورقات تسقط من يده اليسرى صوب الأرض، إلا أنها لا تبلغها، ظلَّت مُعلَّقة هكذا.. في اللامكان.. واللازمان.. واللاحدث!

***

في دروب الخيال، قادتني «شُعلة» تحمل في يمناها قلمًا، وفي يسراها شُعلة!

مَن كان ليخطر بباله أن ثمة عالمًا بين السطور، يتواصل فيه الكاتب مع شخوصه إذا أعلن أحدهم عصيانه على خط سير الحبكة؟ يرى القارئ كفاحهما، يتتبع صراعهما، يدرك جهود الكاتب، ويفهم ما لا تبوح به شخوص الرواية. ومن كان ليتخيل أن ثمة عالمًا آخر يدور بمعزل عن عين القارئ في هوامش الكتب؟ يتجسد فيه الكاتب بظله! هكذا قالت «شُعلة» حين سألتُها في محاولة للعثور على ثغرة في حكايتها غير القابلة للتصديق:

- كيف أراكِ الآن؟ كيف رأيتكِ من قبل في بيت السيد «ك»؟!

- لكل كاتب ظِل، يحاول جاهدًا أن يتخفَّى به عن أعين القراء. ظِل الكاتب يُفسد الحكاية، ويموه الصراع، ويُضعف الحدث. لا يحب القارئ رؤية ظِل الكاتب يحوم فوق الأسطر، يحرك الأحداث، ويدفعها للأمام، لو أحس القارئ به سيتوقف عن تصديق الحكاية. الظِلّ سُم الخيال!

ثم أردفَت بإنهاك ملحوظ. تُمسك ذراعها، تضغطها، ثم رأسها لتمسح عليه، بينما العرق البارد ينبت فوق جبينها، لم تكن تكذب بشأن مرضها إذن، ندمتُ بقوة على صفعها. قالت:

- لكنني خاطرتُ مرتين: مرة في بيت السيد «ك»، يومها حاولتُ دفعكَ صوب.. قاطعتُها بانفعال، وقد خبت ندمي:

- صوب القتل، أليس كذلك؟ أردتِ أن تقنعيني أنني قاتل السيد «ك»، وأن الخيال لعنة توجِب الفرار منها كالفرار من الموت.

- لكنكَ لم تفعل؛ عاندتَ.. تمردتَ، وأصررتَ على التغيير. ظننتُ أن الندم سيتغلغل بداخلكَ.. سينهشكَ.. سيُعيدك طوع أناملي، لكنكَ لم تصدق أن الخيال لعنة توجِب الفرار.

- ولذلك كانت جريمة المصنع؛ أردتِ تكرار التجربة.

- وفشلتُ ثانيةً.

- لمَ كل ذلك؟

- لأنه كان على هذه الرواية أن تنتهي بخسارتكَ.. واستسلامكَ.. وضعفكَ. كاتب ظِل لا يجد لنفسه مكاناً في هذا العالم يستسلم لقدره ثم يموت، لكنكَ بعنادٍ رفضتَ الاستمرار في الخط المرسوم سابقًا، تمرَّدتَ، حتى إنكَ كتبتَ رواية تخالف فيها قوانين العالم الذي رسمتُه أنا!

- ما الذي يزعجكِ إلى هذه الدرجة في روايتي؟

- يزعجني أنكَ كتبتَها، ثم يغضبني أنكَ عجزتَ عن إنهائها!

- لماذا؟

- لأنني لا أستطيع إنهاء روايتي ما لم تستطِع أنتَ إنهاء روايتكَ. على هذه الرواية أن تنتهي، وأنتَ تمنعني من إنهائها. الحياة والخيال متضافران بشكل أكبر مما يتصوره عقلكَ. أنت في هذا العالم كاتب، وفي الوقت نفسه مكتوب. كلنا أبطال في حكايات غيرنا. الخلل الذي يصيب قصة واحدة يمتد تأثيره إلى باقي القصص، مثل: تأثير الدومينو، بتحريك قطعة دومينو واحدة تسقط بالتبعية باقي القطع.. هل فهمتَ الحقيقة الآن؟

- الحقيقة!

نطقتُها رغمًا عني، انفلتت الكلمة من بين شفتيَّ، وكأنني لم أعُد أملك طاقة لحبسها، نطقتُ بكلمة حائية لأول مرة منذ ثلاثين عامًا، انتظرتُ رنين الطوق حول رقبتي بسرينة إنذار عاجلة، ثم اقتحام شرطة رقابة الأبجدية للمكتبة الليلية، انتظرتُ أن يقودني رجلان مفتولا العضلات صوب سيارة الشرطة، كي يرسلوني إلى المحرقة، لكن أيٌّ من هذا لم يحدث!

- لا أفهم!

قلتُها ورأسي يدور، بل العالم كله يدور أمام عيني، قالت بنبرة حانية:

- أخبرتكَ.. نحن الآن على هامش الكتاب؛ لا قوانين في الهوامش. هذا هو المكان الوحيد الذي يستطيع ظِل الكاتب أن يظهر فيه دون أن يفسد على

القارئ متعة الاندماج في الأحداث، لذا تجده دائمًا مملوءًا بالملحوظات والإرشادات والمعلومات الجامدة.

ثم دنت خطوتين حتى صار وجهها قاب قوسين أو أدنى، ثم همسَت:

- هل صدَّقتَ الآن؟

***

انطلقتُ من ميناء الذاكرة صوب لحظات الماضي: الحرب الأهلية، وما قبلها، وما بعدها، عناق أمي مبتورة الذراعين، موتها في الحرب، حلم الكتابة، زواجي بـ «رتيبة»، «رفيق»، روايتي الأخيرة، أفكاري، ومشاعري، ومخاوفي، ونقاط ضعفي، ومواطن قوتي، وقناعاتي: كل ذلك مجرد حروف مرسومة على الورق، كلمات حية تنبض بسيلان الحبر عبر عروقها.

ستسألني ما الضير إن كنتُ أكتب الكلمات أم هي تكتبني، سأجيبك: لا أعرف، حقًا ما الضير؟

سألتُها:

- عدم قدرتكِ على إنهاء روايتكِ، ومواجهتي للسيد «ك» رافضًا عرضه في اللحظة التي كنتِ تكتبين فيها مشهد النهاية. قلتِ إن ذلك ربما يكون بسبب خطأ مخيف قد ارتكبتِه.. ما هذا الخطأ؟

دام صمتها سطرًا ونصف من كلمات مغزولة بعناية، ثم قالت:

- الإغدراسيل.. شجرة الدردار العملاقة!

ذكَّرتني الكلمة بشيء، لكن عقلي كان في حالة شتات قصوى عجزتُ معها عن التقاطه:

- أنتَ كاتب، لكن ليس كل كاتب يَعرف. لم أُضِف هذه المعلومة في خلفيتكَ عندما رسمتكَ، وأظنكَ لم تبلغها بنفسكَ. البعض يقول إن شعراء الجن الذين يسكنون «وادي عبقَر» يُلقِّنون شعراء الإنس، ويُلهمونهم الفصاحة والبلاغة وعجائب الشعر. حسنًا، ألم تفكر من أين تنبع أفكار الروايات والحكايات والقصص؟ من أين يغرف الكاتب أفكارًا نضرة ومعالجات مبتكرة وشخصيات استثنائية؟ الإجابة هي الإغدراسيل.. شجرة العوالم التسعة.

ثم أضافت بحماسة وشغف:

- كُتّاب محظوظون جدًا هم الذين تُفتح لهم عوالم الإغدراسيل الأسطورية. أحيانًا تُستدعى إلى تلك العوالم يقظاً، وفي أكثر الأحايين نائمًا. هناك، ترى المتناقضات، وقد جُمِعت في لقطة واحدة، سماء نصفها كنور الشمس المشرق، ونصفها كقطع الليل المظلم، ترى هناك حيوانات عديدة، ومخلوقات عجيبة، تسمع حوارات ملهمة، وتفاصيل دقيقة ومعاني مكثّفة. هناك تتداخل عوالم البشر مع الكائنات والجمادات، واللامرئيات والماورائيات، فتغرف منها ما شاء لكَ من بديع الأفكار. زيارة عوالم الإغدراسيل الأسطورية هي مكافأة كل كاتب مُجِد، نلتُها مرات عدة، لولا أنني اقترفتُ خطأً مميتاً.

- ماذا فعلتِ؟

تنهدّت بأسى قائلة:

- في زيارتي الأخيرة لعوالم الإغدراسيل سرقتُ شيئاً، وأخفيتُه بين طيات ملابسي، أخرجتُه من عالم الأكوان التسعة، وهذا في عُرف الأساطير خطأ لا يُغتفر.

- ماذا سرقتِ؟

- مخلوقين حديثَي الولادة، تركتهما أمهما أسفل ورقة كبيرة لشجرة ثلج عملاقة، وذهبت لتبحث لهما عن غذاء. سرقتُ اثنين من فئران الخُلد العارية!

- فأران!

- يستطيع أي كاتب أن يقطف الأفكار الناضجة من فوق شجيرات الأفكار المتناثرة في أراضي، وسماوات العوالم الأسطورية التسعة، لكن لا يحق لك أبدًا سرقة شيء ماديّ، وإخراجه من عالمه.

بات كل شيء واضحًا، إلا أنه ليس بالوضوح الكافي لتتبدد كل علامات الاستفهام المتطايرة في الأجواء!

تقول إن ثمة شجرة أسطورية عملاقة تفتح أبواب عوالمها التسعة أمام كُتَّاب محظوظين دون غيرهم، تمد أمامهم أكوانها التسعة العجيبة، وتسمح لهم بالتجول فيها، في لحظات يقظة أو بين ثنايا حلم، يغرف منها الكاتب ما شاء له من الأفكار، ويمزج ما بدا له ماتعًا من الأدوات الروائية القابلة للمزج، الأفكار المتجددة والشخوص الاستثنائية تعيش هناك في العوالم التسعة التي تنفتح على بعضها بعضًا. ذكَّرني هذا بما وقع معي عند شجرة الدردار في نهاية الغابة، هل بشكلٍ ما هذه الشجرة هي ظل للشجرة الأسطورية مثلما الفتاة الواقفة أمامي الآن هي ظل للكاتبة نفسها؟

تقول إنها ارتكبت خطأً لا يُغتفر عندما ساعدَت على فرار فأرين من عوالم الشجرة الأسطورية، وأنها عوقِبت بيا شخصية ثانوية تتمرد على الأحداث والحبكة، وترسم لنفسها طريقًا جديدة رغم أنف مؤلفها. شغل تفكيري أمرٌ آخر: هل للفأرين الصغيرين اللذين سرقتهما من عوالمهما العجائبية علاقةٌ ما بالفأرين بطلَي روايتي الأخيرة: «ري» و«كي»؟ وإن كان ثمة علاقة، فما هي بالتحديد؟

كنتُ في أشد حالاتي هشاشةً، المجهول يُخيفني أكثر من الواقع نفسه، هذا الشعور المقلِق يقرض أعصابي، ويُفتت إرادتي الحرة. دنَت مني، لم أفر منها، اقتربَت حتى كدنا نتلامَس، تمكَّنتُ من رؤية شرارات النار من قرب أكثر، يغسلها ماء رقراق دون أن تنطفئ، نار لا تحوِّل ما تلمسه إلى رماد، بل تُعيد إحياءه من جديد.

- عليكَ أن تختم روايتكَ: على روايتي أن تنتهي.

- أنتِ من أخذتِ النسخة الأخرى من مكتبة السيد «ك»، أليس كذلك؟

- كان عليَّ أن أُخفيها كي أقنعك أنكَ تتحدث إلى قارئتك الأولى، كي لا تكتشف من أكون.

- ولماذا بُحتِ لي بسرك؟

- خفتُ أن تختفي، ألا تتحدث إليَّ ثانيةً، خشيتُ أن تظل الرواية مُعلَّقة في رحم الخيال بلا نهاية.

لماذا على هذه العلاقة أن تكون مستحيلة إلى هذا الحد؟ ألم تخبرني أنها لا تريد لهذه الرواية أن تنتهي أبدًا! لماذا ترغب الآن في إنهائها؟ ماذا سيحدث إن ظلت روايتها وروايتي بلا خاتمة؟

وكأنها سمعَت أصداء السؤال تتردد بداخلي؛ أجابت في الحال:

- سيتداعى كل شيء، ستفقد الحبكة تماسكها، ستتماهى الوجوه، وتبدو الشخصيات وكأنها مُشكَّلة من عجينة واحدة. ألم تشعر أنكَ تُشبه «مؤيد» إلى حدٍ كبير؟ ألم تدرك التغيير الذي بات يتسلل رويدًا إلى وجهة حارس المكتبة الليلية؟ المكتبة الليلية نفسها هي أمنية نبتَت من قلبك، وسُقيَت بماء الخيال. باتت أمنياتك مفسدة لحبكة روايتي. ألم تشعر أن كل شيء قد خرج عن طوره؟ البستانيُّ الذي اشتمَّ فيكَ رائحة زهر العسل أدركَ أنكَ كاتب، وفي الوقت ذاته يساوره الشكوك بأنه مكتوب، يخشى الكُتَّاب، لأنه يشعر أنه من بنات أفكار أحدهم! موت السيد «ك»، وحادثة المصنع: كل هذه ملفات مفتوحة دون تقديم فاعل حقيقيّ إلى القارئ. إلى متى تظن أن الحبكة ستتحمل كل هذا العبث؟ يجب إنهاء الرواية قبل أن ينهار عالمها فوق رؤوسنا.

من وجه نظر كاتب كانت محقة، لا يمكن للحبكة أن تتحمل عبثًا أكثر. لكن من وجهة نظر شخصية روائية، فلتذهب الحبكة إلى الجحيم. ازدردتُ ريقي بصعوبة، وأنا أسألها، أخاف الجواب:

- عندما أُنهي روايتي، وتنهين روايتكِ؛ لن نتمكن من التواصل ثانيةً، أليس كذلك؟

- سيُغلق الباب الذي انفتح على عالمينا من بين السطور.. سينتهي كل شيء.

طعنَت كلماتها صدري مثل خنجر، هل سأكون حبيس هذا العالم الذي نسجَته من وحي خيالها؟ عالم منقوص الأبجدية، تندلع فيه الحرب من أجل بقرة، ثم يلقون اللوم على كل كلمة حائية؛ عالم يبغض «الحوار»، ويُجرِّم «الحب»، ويُسَفِّه «الفرح»، ويقطع «الأرحام»، وينتهك «الحرمات»، ويقتل «الحياة»!

- لماذا لم ترسميني في عالم أجمل؟ ستتركينني هنا أقاسي وحدي، مع صديق أعجز أن أبوح له بكل ما يختلج في نفسي، وامرأة لا تراني ولا أراها، وغرباء لا يفهمونني ولا أفهمهم؟!

نهشتُ لحم ذراعي اليسرى بأظافري، فمسَّته أناملها بحنوٍ تقول:

- ستنسى كل شيء، عندما تنتهي الرواية لن يعود بوسع شخوصها التفكير خارج إطار الحبكة. ولا حتى أنتَ؛ في كل مرة سيمسك فيها قارئ هذه الرواية من فوق رف الكتب، ويقلب صفحاتها ليقرأها، ستعيش الحكاية نفسها من جديد دون أن تتذكر أنكَ عشتها آلاف المرات من قبل في خيال آلاف القراء.

اندفعتُ صائحًا:

- وهل من المفترض أن يجعلني هذا أحس بشعور أفضل؟ لا أودُّ البقاء هنا: أخرجيني إلى رواية جديدة.. إلى عالمٍ أفضل.

نطق الأسى فوق وجهها يخبرني بما تفكر فيه قبل أن تقوله:

- لا أستطيع، أخبرتكَ أنني لم أعُد أملك القدرة على الاستمرار في الكتابة؛ حُرِمتُ من زيارة عوالم الإغدراسيل إلى الأبد. تلك روايتي الأخيرة.. شارة اعتزالي لميادين القلم.

***

في مدينة الحب، يسقط المستحيل، تتلاشى الحدود، تتماهى الفوارق، تُقهَر أبواب الزنازين بمفاتيح صدئة، وتغدو عجوز المئة العام فتيَّة ونضرة، خضراء بلون الحُمُّص.

في مدينة الحب، تختبئ اللهفة خلف أشجار الحَور، ويتسلق الأرق أعمدة الإنارة، تخلع الكلمات أزياءها المهترئة، وترتدي أثواب العيد، وتُستحال وجوه الأحبَّة نورًا يُضيء عتمة عابر ليل.

هذا ما أعرفه عن مدينة الحب، هذا ما أؤمن به، وهذا ما أتمنَّاه، لكن كيف بقدراتي المحدودة كشخصية ثانوية في رواية أن أعبر عالمي إلى عالمها، أو تعبر عالمها الواقعيَّ بكل ما فيه من مادة إلى عالمي المؤلَّف من كلمات؟

نعم، كلنا كلمات، أنا وهي وحتى أنتَ. البعض يحرس الأيام، والبعض الآخر يحرثها، لا يهم من منا يكتب الآخر؛ كلنا فوق صفحة الحياة لسنا إلا.. كلمات.

- أنتَ تكتب العالم، والعالم يكتبك.

قالتها بإقرار، ثم أردفَت بصوتها الدافئ المتمهّل:

- البعض يظن أن الروايات نسخة مصغرة عن الواقع، أو ملحق بالحياة يجوز الاستغناء عنه. والحقيقة أن الروايات لا تصوِّر الواقع، بل تُكمِّله. كل رواية مكتملة حلقة سحرية تربط الواقع ببعضه بعضًا، وكل حدث واقعيّ لؤلؤة في قلادة الخيال، إن كفَّ أحدهما عن الاستمرار ستختل موازين الكون، الحياة نفسها نشأت واستمرت بلَغتنا كقصة، وما من كتاب سماويّ إلا وينسج التاريخ البشري كحكاية، يسردنا كأحسَن القصص.

ثم أردفَت برجاء:

- لذا استمِر فيما تفعل.. استمِر في كتابة روايتك.

رفعتُ ذراعي اليسرى لتحتل المسافة القصيرة بيننا، أسألها:

- لماذا جعلتِني أشعر أنها زيادة على جسدي، ماذا كان هدفكِ من ذلك؟

رمقتني وذراعي بنظرات حائرة، ثم تنهدَت بقوة، وهي تهز كتفيها في يأس:

- هذا ما لا أفهمه أبدًا. أنا لم أرسمكَ على هذا النحو، ولا يوجد ما يبرر شعوركَ تجاه ذراعكَ. حقًا لا أفهم.. هذا غير منطقيّ أبدًا!

قلتُ ببسمة هزيلة:

- وماذا في هذا العالم يخضع للمنطق؟ بعض الألغاز تظل بلا إجابة.

بادلتني البسمة بمثلها، كانت قريبة كما لم تكن قبلًا؛ أسمع أنفاسها تتردد داخل صدري، وأشعر بماء عينيها يسيل على وجهي، وكأننا تبادلنا الأماكن، ذراعي الزائدة ركّبت فيها، مسَّته بأطراف أناملها فاقشعر بدني، وآلام مرضها اجتاحت جسدي، فتصاعدت منه حرارة أذابت نُدَف الثلج المتساقطة بالخارج، إحساس عجيب بتمازج الصانع والمصنوع، قلبها ينبض في صدري، وقلبي ينبض في صدرها،

صوتها يهز أوتار حنجرتي، والتوت الذي أكلتَه هي قبل لقائنا امتلأت به حليمات لساني، انتقلتَ عيني اليمنى مكان عينها اليسرى، فكأنني أنظر إلى نفسي في مرآة.

- أهذا وداعنا الأخير؟

- إنه كذلك.

رأيتُ الألم في وجهها يفصح عن نفسه، أحزنني أساها بقدر ما أبهجني، تفتقدني من الآن، كافتقادي لها، لستُ كأي شخصية روائية رسمتها، هذا مؤكد، لستُ بحاجة إلى سؤالها، أرى هذا جليًّا في عينها، في عيني. وددتُ لو أقول الكثير، الألفاظ قوالب المعنى، يبقى المعنى أسيرًا في متاهات العقل ما لم يجد قالبًا مناسبًا؛ ظلَّت كل معاني الأسى واللوعة والاشتياق حبيسة عقلي.

في مدينة الحب، لا ينطق أحدٌ بكلمات الحب، فيمَ خُلِقت العيون إذن؟

قايضنا الكلمات بالزمن؛ تبادلنا أحاديث طويلة لم ننطق فيها حرفًا، مرَّت أعوام وعصور ودهور، وبلغنا حافة الأبدية، ثم عُدنا من الطريق ذاتها، أوقفنا فيضان الكلمات بسد العناق؛ امتزجنا فيه حتى توحَّدنا في حكاية واحدة، تعلمتُ حينما أن ثمة مشاعر صمَّاء بكماء عمياء، لا تُمرَّر إلا باتصال الكلمة بالكلمة.

من نحرِها فاح عبير زهر العسل، الرائحة المميزة لنا معشر الكُتَّاب، ومعها تصاعدت الرائحة الكبريتية والرماد والخشب المميزة لعالمي، في تلك اللحظة أدركتُ لأول مرة أنها رائحة الورق!

بلغنا حافة الأبدية مرة أخرى، وعندما عدنا إلى نقطة الصفر كانت قد اختفت، تبخَّرت من بين ذراعيَّ كسحابة محملة بماء الغيث، سكبتَه على الأرض ترويها ثم ارتحلَت، لامست ورقة الحارس الأرض، ووجدتُني مرة أخرى مقيَّدًا في كرسي المكان والزمان والحدث.

***

(57)
نادي الدردار السري

ولأنه لا يعرف كيف يُطفئ الشمس؛ مضى والشمس تبزغ بداخله، يواريها عن الأعين بما يملك من استطاعة. استمرت الأيام في تتابعها، أيام متشابهة تجر بعضها بعضًا، تتدفق كسيلان الماء من قمة شلال، لتصب في النهر نفسه.

وفي يوم مُشابه لإخوته الذين سبقوه في القفز من قمة الشلال، اتخذ قرارًا مفاجئًا، كانت أمه تخبره: «عندما لا نفكر كثيرًا؛ نتصرف ببراءة أكثر، وعندما نتصرف ببراءة؛ نَسعَد ونُسعِد».

ذات نهار أطلق عقله «يمرح» في براري «الحرية»، لم يعد ينزعج من تذكُّر كلمة «حائية»، صار يتلذذ بتمريرها على «حليمات» عقله، يتذوقها كما الشعر، لم يعاقر الشعر يومًا، لكن الآن بات شغوفًا بالتعرف عليه.

مشى بخطى ثابتة في «أحشاء» الغابة، «مفتوح» العينين على اتساعهما، يُعبئ بهما الألوان والجمادات، يستنشق الهواء حتى أعمق «حويصلة» هوائية في رئتيه، يستلذ بتذوق التوت البريِّ من فوق شجرة متطرفة ومختفية عن الأعين، يصبغ شفتيه بلون «محرم»، يدعك فمه بقوة، فلا «ينمحي».

- كنتُ أعرف أنني سأجدك هنا.

يصل إلى نهاية الغابة، عند آخر وأكبر أشجارها، يقف تحت وريقات الدردار لا «محتميًا» بها، بل «حاميًا» لها. تضطرب «نداء»، وترشق عينيها في أرجاء الغابة، «تبحث» و«تفحص»، وتتمنَّى ألا يظهر أخوها، فهذا الرجل «حتمًا» لم يأتِ في خير.

- ماذا تريد منا؟

لو تعلم أن الجواب ليس ببساطة «طرحها» للسؤال لأشفقَت على اضطرابه، ولتركَت له الزمن الكافي ليبلغ مراده، لكنها خائفة، والخوف كائن رخويٌّ عجول، يلتصق بجلد الإنسان كما القرادة.

- تقول أمي إن الكلام يلد الماء، أم إن الماء هو الذي يلد الكلام؟ لا أذكر، لكنهما متشابهان في الكثير، وأهم هذه المتشابهات أنهما ينسلان هربًا ما إن تقبض عليهما الأصابع.

ليست بادرة كلام لرجلٍ أتى في شر، رغم ذلك لم تتمكن من التخلص من قرادة الخوف اللزجة التي تشبثت بجسدها تتغذى على دمها، ومع الخوف كان ثمة شعور مكسور، تفتَّت إلى شظايا بداخلها؛ الثقة عندما تنكسر تُدمي في البداية من آمن بها. ولأن النزف لا يزال مندفعًا وثائرًا، لم تستطع ترويض غضبها إذ قالت:

- ألم تصِل بعد إلى ما تريد؟ هل فشلتَ كـ«عامر» في بلوغ الهدف فجئتَ الآن تُخبرني كفيلسوف عن الكلام الذي يلد الماء؟ ما هدفكَ هذه المرة؟

توقَّع الإعصار، وتجهَّز له:

- لا أهدف إلى شيء؛ افتقدتُ الغابة.. وشاي جذور اللوتس.. المشغل، وصُنع الإطارات الخشبية، الألوان التي تُبعثر قُبلاتها في كل مكان. افتقدتُ كلامنا معًا.. هذا كل شيء.

- هل أبدو لكَ غبية لأقع في الفخ نفسه مرتين؟!

كانت «محقة» في غضبتها؛ انفلقت الثقة نصفين غير متساويَين، كل نصف يُدمي الآخر، «الثقة ثمرة سريعة العطَب إذا ما تعرَّضت لصقيع الخذلان القارس».. هكذا أخبرته أمه على هامش جلسة ثرثرة.

قال بقوةٍ، وبـ«حُرقة» مبرَّرة:

- كنتُ أؤدي عملي، لن أعتذر على ذلك، لكنني آسف لأجل الشعور الذي خلَّفه هذا في نفسك.

وقع قوله عليها كعُذر أغلَظ من ذنب:

- أي عمل؟! هل أنشؤوا في مركز رقابة الأبجدية فرعًا للكذب والنصب والتدليس، وأنا لا أعرف؟!

- أي نصب؟! قلتُ لكِ كنتُ أؤدي عملي الذي هو أهم من كل شيء. كان يجب أن أعرف إن كنتِ أو أخوكِ متورطَين في الجريمة، أو لديكما معلومة مُخبَّأة.

مدَّت ذراعيها في الهواء تقول بانفعال:

- وهل وجدتَ ما تُفتِّش عنه؟ هل وصلتَ إلى المعلومة التي تخبئها المجرمة التي تقف أمامك؟

قال بجمود، وهو يخفي كفيه المتجمدتين في جيب معطفه:

- تعرفين جيدًا أنني لم أجد شيئًا يربطكِ بتلك الجرائم. كنتُ أسير في الاتجاه الخاطئ، وأتتبع الشخص الخطأ.. أعترف بذلك.

ثم أضاف بإصرار وإباء:

- لكنني لن أعتذر عن ذلك كما أخبرتكِ.. كنتُ مضطرًا.

إن تركت الأمر لإنصافها، فستُدرك أنه مصيب في فِعلته، فما هو إلا شرطي شريف يسعى للإمساك بمجرم أثيم لأجل تطبيق العدالة، لو تركت الأمر لعقلها الذي لطالما كان ناضجًا واعيًا لأدركت أنه مصيب في شكوكه بشأنها وأخيها، كونه أول من اكتشف الجريمة، لكن لا الإنصاف ولا العقل ولا المنطق يملكون القدر الكافي من القوة لإقناع امرأة تتألم أن مشرط الطبيب انزلق بغير عمد، وأصابها في موضع دقيق من قلبها.

عندما شاركته ألم فقدان أبويها، وآلام فقده لأمه، ظنَّت أنهما تشاركا شيئًا شديد الخصوصية، وكأن بابًا خفيًّا شُرِع بين عالميهما الداخليَين، وامتد جسرٌ منه إليها، ومنها إليه. الآن تشعر أن بابها فقط هو الذي انفتح، وأن جسرها فقط هو الذي امتد، فوقف عالقًا في منتصف الطريق بين عالمين مختلفين لا سبيل لتلاقيهما أبدًا. آلمها ذلك، اعتصر قلبها إلى أن نزف قطرة دماء سارت عبر عروقها وخلاياها، وظهرت في عينها شفافة، لاسعة.

- طالما عملكَ قد انتهى.. غادِر ولا تعد!

سئم الفراق، كره «الرحيل»، سواء كان هو «المرتحِل» أو «المرتحَل» عنه:

- ألا يمكننا البدء من جديد؟

- الثقة التي تتبختر تصنع غمامة سوداء يُظلِم معها كل شيء.

- الغمامة التي تمتلئ بالماء تفيض به على الأرض لترويها. ألا يمكن لهذا الماء أن يُنبت جذور الثقة من جديد؟ الماء يلد الكلام، فلماذا لا يُنبت الثقة؟
- لعله يفعل، لكن يستلزم لذلك تربة خصبة للإنبات، والتربة هنا كما ترى.. جرداء!

بعيدة عنه كأفق، قريبة كعُقلة في إصبعه، كان دومًا يُسلم نفسه لـ «حُكم» المسافات وقوانينها عصية الفهم، ربما بسبب الشمس البازغة بداخله، أو الموج الذي لا يزال يشعر به مصطدمًا بجسده، أو لعله بسبب الماء «المالح» الذي اختلط بأنفاسه وقاده إلى «حافة الحياة»، أو لعل كل تلك الأسباب مجتمعة هي التي قذفت بداخله شُعلة التغيير الأولى، نبتة تمرُّد وجدَت لنفسها في الخواء والجفاء تربة خصبة للإنبات.

- سأخبركِ بأكبر أسراري وأخطرها.

قرر أن ينثر البذرة، وما عليها إلا سقايتها إن شاءَت، أو قتلها إن جرأت، يعرف أنه يتخذ أجرأ اختياراته، وأصعب قراراته، لكنه لم يكن خائفًا، بل «مُتحررًا».

لم تفهم ماذا أراد أن يفعل باقترابه منها، اضطربت قسماتها، وتلجلج ثباتها، أخرج من جيب معطفه قطعتَي مغناطيس، كلٌّ منهما في مقاس عُقلة، وبدهشة كبيرة راقبته، وهو يُقربها من طوق رقبتها، عند موضع التقاط صوتها وكلماتها، فتنجذب إليه بقوة، ويفعل مع طوقه بالمثل مستخدمًا قطعة المغناطيس الأخرى.

بنظرات صقر «فحص» الغابة، ولما تأكد خلوها من أي أعين متلصصة، استمال تجاهها قائلًا:

- هذا السر الكبير كان بيني وبين أمي؛ لم يعرف به مخلوق إلى يومنا هذا، الآن صار سر ثلاثتنا.

لم تفهم «نداء» ما السر الكبير في انجذاب قطعة مغناطيس صغيرة إلى طوق رقبتها؟ لم تدرك المخاطرة التي عاشها إلا عندما قال هامسًا:

- هكذا اعتدنا أنا وأمي أن نراوغ القانون. لعبة علَّمتني إياها صغيرًا، ثم امتنعتُ عنها عندما كبرتُ، وانضممتُ إلى شرطة رقابة الأبجدية؛

لعبة خطيرة لم ترُقني وقتها.. لم أفهمها، ربما لأنني كنتُ دومًا أكره المخاطرة بالاختلاف، والخروج عن النص.. هكذا أنشأني أبي. وربما لم أكن أكره ذلك، بل كنتُ ببساطة عاجزًا عنه.. عاجزًا عن أن أكون بجسارة أمي.

شردت عيناها، وذَهُلت قسماتها، تسأله بدهشة كبيرة:

- أي لعبة؟

خبتَ صوته أكثر، يستجمع كل جرأته، وإصراره، يمد إليها جسرًا قويًّا لا ينهار، كافيًا لإقناعها أن ثمة تربة «صالحة» بينهما:

- لعبة النطق بابن الأبجدية الملعون، بهذه الطريقة كانت أمي تعلمني كيف أنطق بـ «الحـــــاء»!

***

لم يَعلق في شباك الغروب صوت، ولا نفَس، ولا «حركة»، وكأن الغابة سكتت فجأةً، تقاعست «الريح» عن هز أوراق الأشجار لتُصدر «حفيفها» المعتاد، وانشغلت بمراقبة المشهد المهيب عند أقدام شجرة الدردار العملاقة.

بعد دقيقة أو يزيد تقاربَت قمم الأشجار تسأل بعضها بعضًا:

- ما الذي سمعناه الآن؟ هذا المخلوق يُصدِر صوتًا عجيبًا لم يطرق آذاننا قبلًا!

فتقول «الريح» في نشوةٍ، وقد اعتادت أن يسموها «عاصفة»، مهما تكن رقيقة وناعمة وهامسة:

- هذا جزء من اسمي الذي لا تعرفونه، اشتقتُ إلى سماعه.. اشتقتُ كثيرًا.

تأهَّبت «الريح» لسماع المزيد، بشوق ولهفة وابتهاج، تبكي تأثرًا، والبرق يلمع من صدر السماء «ضاحكًا». وكان برق آخر يلمع في صدر «نداء»، لا «ضاحكًا» بل مضطربًا خائفًا، وفي الوقت ذاته مبتهج متوهج، علَّمها أبواها الكثير من الكلمات «الحائية» بالكتابة والنظر، لكنها لم تسمع «الحرف» ينسل من بين شفاههما قبلًا، كان وقْعه على أذنيها أشبه بـ «السحر».

- أنتَ.. أنتَ تنطق بـ.. أنتَ تخالف القوانين!

أنار عقله إجابة سؤال كان يلازم تفكيره، عن سر خرق الناس للقوانين، الآن بات بشيء من الإدراك قادرًا على استيعاب أن «احترام» القانون يُلازم

قانون «الاحترام»، كلاهما نبع للآخر بشكل ما، لأن القانون ما هو إلا تطبيق لمبادئ أخلاقية، وطالما «الاحترام» بين الناس ومع الناس مفقود، سيِّد غائب، وسُلطان معزول؛ سيظل القانون نصف راية بالية مُعلَّقة في الهواء.

خدعة المغناطيس كانت «ناجحة»، لم يُصدِر طوق «مؤيد» صوتًا إنذاريًّا عاجلًا، ولم تهجم عليهما شرطة رقابة الأبجدية. أخذَت الغابة شهيقًا عميقًا، ثم أخرجَت زفيرها بنعومة تهز أوراق الأشجار معًا بتناغم سيمفونية عذبة.

أمسك بكفيَّها وشدَّ، لا يودُّ أن يُفلتهما أبدًا، لعينيها بريق ينافس بريق السماء في لمعته، وصوت أنفاسها هزيم رعدٍ يعصف بداخلها، كانت كـ «الحياة» نابضة، يرى فيها الخسوف، والكسوف والبرق، والرعد، والزلزال، والطوفان، والمطر، سأم الموت، ومعاشرة الأموات، ودَّ لو يعيش «الحياة» كما هي.

«الحياة مخاطرة، تزوَّد بالرفيق؛ تتذلل أمامك مشاق الطريق»، هكذا قالت أمه يومًا قبل أن تنزع قطعة المغناطيس عن طوقه، وتُخفيها في طيَّات ملابسها.

- شاركتُكِ سري الأكبر، وخبيئتي الأخطر.. أمَا زلتِ ترين أن بناء الثقة بيننا شيء «محال»؟

طرقتْ «محال» أسماعها، فاضطربت أنفاسها بإثارة بالغة، ابتسمت، ثم «ضحكَت» مقهقهة بسعادة عظيمة، كأنه يقطف لها من ثوب الليل نجمة مع كل كلمة «حائية» ينطق بها. عادت تستضيف الخوف زائرًا لزجًا، لم يلبث طويلًا هذه المرة، انتزعته و«حاشيته» العالقة بجلدها.

أتاه جوابها يطوي الليل، ويقرع بوابات النهار، يضرم «الحرائق» في غابات الرتابة، ويحصد ثمار مواسم «الأحلام»:

- شاركتَني سرًا.. سأشاركَ ثلاثة!

اتسعت ابتسامته قائلًا:

- لا أطيق صبرًا.

- نادي الدردار السري.. هذا هو سري الأول!

***

مصنع الكلمات

«لا يمكن أن يستمر إخفاء ثلاثة أشياء لفترة طويلة؛
الشمس والقمر والحقيقة».

غوتاما بودا

رائحة كبريتية ممزوجة بنفحة رماد مع عطر خشبيٍّ ثقيل، تنبعث من كل شيء، ومن كل ركن داخل مصنع الكلمات! كنتُ أحسب طوال عمري أن الرائحة التي أشتمُّها في الكتب مَبعثها الورق، الآن أدركتُ أنها رائحة الكلمات!

في مصنع الكلمات لا إضاءة على الإطلاق، رغم ذلك كل شبر فيه متوهِّجٌ، وعندما سألتُ «ري» عن مصدر الإضاءة أجابتني هامسة:

- الكلمات.

رميتُ أنظاري صوب الأفق، فلم تبلغ نهاية المصنع، وعندما التفتُّ للخلف لم أتبيَّن بدايته، وكأن مصنع الكلمات لا بداية له ولا منتهى، لا يمكن قياسه بحسابات الأرقام، لا أرض له ولا سماء! كنا مُعلَّقين في المكان الفاصل بين السماء والأرض، دومًا شعرتُ أن تلك المساحة لم تُخلَق اعتباطًا، وأن الهواء والسحاب والغلاف الجوي ليسوا كل ما يشغل هذا الفراغ العظيم، الآن أدركتُ أنه مأوى مصنع الكلمات.

يسير كل شيء بآلية شديدة، حتى ظننتُ أننا لن نلقى أحدًا، وعندما مر أمامنا جسد لم أتبيَّن أبعاده بوضوح، انتفضنا فزعًا، جذبتني «ري» صوب جدار من النور اختبأنا خلفه، وعندما مر الكائن استطعتُ تمييز أبعاده من ظهره، فهمستُ بشهقة دهشة:

- ما هذا الذي أراه؟

أجابتني «ري» بدهشة أقل ويقين أكبر:

- إنها علامة تعجُّب (!). قال الكاتب إن علامات الترقيم هي شرطة التنظيم في مصنع الكلمات. لم أرَ علامة تعجب تتحرك من قبل.. يا للروعة!

تابعنا بأنظارنا العلامة العجيبة، نحيلة الجسد، بلا أطراف، وفي قدمها حذاء مستدير.. تركل به الكلمات الشاردة عن الشريط المطاطيِّ الطويل لأجهزة إنتاج الكلمات.

- لن نفلح هكذا، يجب أن نعثر على بداية المصنع، كي نتمكن من فهم خريطته، ومن ثم إيجاد المكان الذي تُحبَس فيه الكلمات المحظورة.
- نعم، أنتِ محقة، يجب أن نعثر على منابت الحروف.
- ولماذا الحروف؟
- لأنها منشأ الكلمات، أليس كذلك؟

وافقتني بهزَّة من رأسها، فضَّلتُ عدم الانفصال مخافة ألا نعثر على بعضنا بعضًا من جديد، فقالت «ري» بثقة:

- سنعثر على بعضنا بعضًا بالرائحة، أنسيتَ أننا من جنس الفئران؟
- صحيح، أنتِ محقة.

وهكذا افترقنا كلًا في جهة، رغم أنني لم أحب ذلك، ولم أرتَح له، لكننا اضطرنا من أجل اختصار الوقت:

- انتبهي لنفسكِ يا «ري»، احذري أن تراكِ إحدى علامات الترقيم، وإن صادفكِ أي شيء مخيف اصرخي، وسأجدكِ فورًا.

رمقتني ممتنة بنظراتٍ برَّاقة، انحنت بغتةً، وطبعت قُبلة على وجنتي استدعت أرق ابتساماتي.

- وأنتَ أيضًا يا «كي»؛ إن احتجتني اصرخ بأعلى نبراتك الفئرانية صوتًا.

فارقتني «ري» إلى الطرف الأيمن، فيما أخذتُ أنا الأيسر، كل شيء يسير بسرعة وآلية، الكلمات صامتة ومستكينة فوق خطوط الإنتاج المطاطية، تسير إلى حيث يأخذها السير الذي يعمل آليًّا، نائمة أو غافلة، هكذا بدت لي عندما قفزتُ فوق أحد الأجهزة لأتطلع إليها، وعندما مسستُها بأحد قوائمي بدت هشَّة جدًا؛ بلا لون، بلا رائحة، بلا أثر، مُهملَة من غير نسيان.

سرتُ طويلًا، إلى درجة أرهقتني، وعندما أوشكتُ على أخذ استراحة تنامى إلى مسامعي أصوات غاضبة، وشجارات عنيفة تتصاعد من خطوط الإنتاج التالية. أحث السير تجاه الصوت، بينما قلبي يخفق بوجلٍ، اختبأتُ تحت طاولة من سحابٍ لبعض الوقت، ثم قفزتُ فوق أحد الأجهزة، كي أتطلع إلى الكلمات، ملمس الجهاز تحت يدي وكأنه جُمِع من قطرات ماء، ألهذا السبب تمتلئ الغيوم رويدًا قبل أن تُرسل حملها إلى الأرض مطرًا؟ رأيتُ كلمات مختلفة عن تلك التي صادفتُها أولًا، لم تكن نائمة أو غافلة، بل كانت نارية ثائرة!

الكلمات كالأصوات، والنظرات، والإيماءات، ولغة الجسد؛ تُشبه الشخص الذي حيكَت في رأسه أو تقافزَت فوق لسانه. أعجبني التقسيم المنظم للخطوط الإنتاجية للكلمات، لم تُقسَّم بعدد الأحرف، ولا بمعانيها، ولا مرادفاتها، بل قُسِّمَت بقوَّتها وحرارتها! كل خطٍ إنتاجيٍّ ينتهي في عقول وألسنة أناس يُشبهون بعضهم بعضًا في القوة والحرارة، ربما لهذا السبب ينجذب أصحاب الأحاديث المتشابهة إلى بعضهم بعضًا.

انبعثَت رائحة منفِّرة في الأجواء عندما اقتربتُ من قسمٍ إنتاجيٍّ جديد، وما إن تسلَّقتُ أحد الأجهزة لأنظر إلى الكلمات حتى انتابني الخجل؛ كانت الكلمات عارية فوق السير، مكشوفة العورة، منفِّرة المنظر، نابية الخُلُق، عفنة المعنى، منزوعة القيمة، هالكة المقصد! رُصَّت في صفوف طويلة، وبأعداد كبيرة، تسير إلى وجهتها في قوافل لا مفردة.

حين كنتُ أسمع من البشر كلمات منزوعة الحياء، يتبادلونها على سبيل المزاح أو بين ثنايا الشجار؛ كنتُ أشعر بالاشمئزاز، لكن لم أتخيَّل قط أن تبدو تلك الكلمات في حقيقتها بهذا القبح. لم أستطع أن أحدد أيهما أوجَدَ الآخر؛ قبح النفس استجلب قبح الكلمات، أم قبح الكلمات تولَّدت عنه نفسٌ ألِفَت القباحة.

كتمتُ أنفاسي، إذ أصابتني الرائحة بالغثيان، وما إن خرجتُ من القسم، ودلفتُ إلى آخر حتى أصابتني موجة ضحك، لم أحتَج إلى وقت كي أفهم أنني في قسم الكلمات المؤلِّفة للمزحة والنكتة وضحوك القول. الكلمات تضحك، وترقص، وتتوهَّج، فأشعر بثلاثتهم في نفسي.

للأسف كانت كلمات هذا الخط شحيحة جدًا، انتهى الجزء النشط من القسم بلمح البصر، وأصبحت الأجهزة الباقية مُعطَّلة، صدئة، مهجورة الكلمات، ألم يعد أحد قادرًا على التفكير أو التلفظ أو الكتابة بكلماتٍ ضحوكة، بشوشة، ماتعة؟ لماذا أصبح البشر على هذا النحو القاتم المُخيِّب للمرح؟! ماذا أصابهم؟ الضحك علاج، والمرح استشفاء، ألهذا السبب تكالبَت عليهم الأمراض، واستشرَس في وجوههم الداء؟

من بعدها رأيتُ كلمات هزيلة، في صوتها بحَّة، وفي رائحتها عطونة، لكنها ملونة، مبهرجة، لافتة، احترتُ في أمرها، ولم أقف على مغزاها حتى اقتربتُ منها كثيرًا، ورأيتُ ملصقًا صغيرًا على ظهرها: «كلمات زائفة مصنوعة لغرض الزينة». دققتُ فيها النظر، فرأيتُ الحب، والصدق، والإخلاص، والأمان، والاعتدال، والمساواة، والموالاة، والديموقراطية، والحرية، وشعارات أخرى كثيرة.

لم يفُتني ملاحظة أن الكلمات تتكرر على خطوط إنتاجية مختلفة، فمثلًا: كلمة «الدم»، رأيتُها في خط الكلمات المقدسة، والزائفة، والغافلة، والضاحكة، والمتشفِّية!

فاجأني رؤية كلمات عجوز.. عجوز جدًا، تقف مستندة إلى جدار من ضباب، مجعَّدة الحرف، متخبِّطة النقاط، تتبصَّر طريقها بصعوبة، ما إن طالعتُ بعضها حتى فهمتُ أنها كلمات تُراثية مهجورة، لم يعد يستدعيها أحد، يستثقلها البعض لبطء سيرها، ويعجز حديثو العهد بالكلمات عن فهمها، تتشح بالسواد، وتسير كسيحة وعرجاء بجوار بعضها بعضًا، لا وجهة محددة لها. ما إن تُستدعَى إحداها حتى يسارع أقرانها بتزيينها، يلبسونها فستانًا من سحاب، وتاجًا من نور، ويزفُّونها على أنغام الدفوف، تفارقهم على استحياء كما العروس في خدرها.

وبين مناضد السحُب أخذَت كلمات حائرة في التجول بلا هدف، تدور في دوائر مغلقة، لا تعرف لنفسها صاحبًا، يزل بها لسان المرء وقلمه عندما يقصد كلمات غيرها، كانت حزينة، باهتة، ففاض قلبي شفقةً بها.

وفي أشولة كبيرة مصنوعة من نُدَف الثلج رقدَت كلمات متجمدة، مددتُ رأسي من فتحة أحدها فهالني الصقيع المنبعث من الداخل، قلَّبتُ الكلمات

المتجمدة بقوائمي الأمامية في حسرةٍ، شاعرًا بعظيم الأسى عليها إذ كانت يومًا جزءًا عفيًّا من لغات بائدة، وأخرى منسيّة هالكة.

في هذه اللحظة بالذات أدركتُ أمرًا مصيريًّا، لعله أهم ما تعلمتُه في حياتي، ساعدتني عليه الكلمات التي قابلتُها للتو؛ أنا كائن مختلف، خلقني الله على هذه الهيئة، وكل مخلوق في خلقه حكمة، لا توجد المخلوقات في أرض الله صدفةً أو اعتباطًا، نحن نُكيِّف عوالمنا الداخلية بالطريقة التي نُقيِّم بها أنفسنا، أنا لستُ نتاج ما يراه الآخرون فحسب، بل وما أراه أنا في نفسي، اختلافي يُكمِّل الصورة ولا يفسدها، يُجمِّل الكون ولا يُشوهه، الأشياء بأضدادها تُعرَف، تسمو معانيها وتتكشَّف.

تعبتُ من السير، فاتكأتُ إلى الهواء، على الهواء هنا قادر على أن يكون جسدًا متينًا قويًّا، غفلت عيناي لدقيقة أو اثنتين، ثم استيقظتُ على هزيم رعد، وصاعقة برق وحركة نشطة هنا وهناك، همستُ لنفسي:

- يا إلهي، لقد كشفوا أمري!

ما إن استدرتُ بلهفة كي أعود باحثًا عن «ري»، حتى فوجئتُ بفاصلة منقوطة من شرطة علامات الترقيم تقف خلفي، وتُشهِر سلاحها المستدير في وجهي!

***

في غياهب، الظلام ألقتني علامة الترقيم الصارمة، ظننتُ في البداية أن المكان خالٍ من الكلمات، واكتشفتُ متأخرًا أنني كنتُ مخطئًا.. مخطئًا بشدة.

هاجمتني كلمات كراهية سوداء وذات أطراف مدببة، كانت عدوانية، انتقامية، دامية، ومُدمية؛ خدشت جسدي، وأنبتت دمعات حارقة في عينيَّ. حاولتُ دفعها، ضربها، صفعها، دون جدوى، كانت قوية، محتدة، ومتكالبة عليَّ.

انزويتُ في ركن قصيٍّ ألملم شتاتي، وأتحسس جراحاتي، أغالب البكاء، وهو قريب على عتبة الباب، إذا كان هذا ما حدث معي، فما الذي تقاسيه «ري» وحدها؟ هل ألقوا بها في ظلام آخر تُعشش فيه كلمات.. قاتلة؟ انتابني الفزع، يجب أن أخرج من هنا، يجب أن أنقذ «ري»؛ شرعتُ في البحث عن

مصدر للنور وسط الظلمة الحالكة، قبل أن تستعيد كلمات الكراهية عافيتها، وتهاجمني في جولة وحشية جديدة، ربما لن أخرج منها حيًّا هذه المرة.

عثرتُ على فتحة بالجدار في حجم حبة عنب، أغلقتها بعيني اليمنى، رأيتُ حديقة غنَّاء تتراص فيها الأشجار بامتداد البصر، سيقانها ضخمة، وأوراقها خضراء، زاهية، كثيفة، ما إن تقع ورقة شجر حتى تتساقط معها أبجدية كاملة، حروف صغيرة حديثة عهد بألاعيب اللغة، وقوانين التهجئة، وقواعد الكتابة، تمرح على العشب الأخضر، ضاحكة مستبشرة، ثم ما يفتأ أن يمر عليها رجال بلا ملامح، ونساء بلا حواس، يقال عن ذكورهم: «فلَّاحو الكلمات»، يشرع الفلاحون في جميع محصول الأحرف في أسبتة من خوص البرق، لامعة وبراقة تحبها الأحرف، وتسارع في القفز إليها متدفئة، وتجلس نساؤهم -ويقال لهن «الخيَّاطات»- على حُصَر من نجمات تسطع، ولا يخبَت بريقها، تمر أمامهم نماذج جاهزة من قاموس كلمات العالم، يغزلن من الأحرف الوليدة كلمات مشابهة لها، بأعدادٍ لا مبتدأ لها ولا منتهى، ثم تُسارع الكلمات في التموضع فوق السير المطاطيِّ لخطوط الإنتاج.

يجب أن ترى «ري» هذا المكان البديع، ستحب كثيرًا أن تعرف كيف تتكون الكلمات، «ري»، أين هي؟ يجب أن أعثر عليها، يجب أن أسارع في الخروج إليها. تأملتُ المكان من حولي، فيما كلمات الكراهية تُصدِر صوتًا مخيفًا كالفحيح، كان سجنًا فسيحًا بلا أبواب، بلا قضبان، ومع ذلك لا يمكن الفرار منه؛ سجن بلا خارطة، أمضيتُ فيه أوقاتًا بلا تاريخ، يقال إن الشمس لا تطلع عليه أبدًا، من قال؟ بالطبع «ري».

عانقتُها بشوقٍ ولهفة، أتحسس رأسها وقوائمها لأتأكد من أن شيئًا لم يُصِبها، أسألها إن كانت بخير، فتُهدِّئ أنفاسي المتسارعة بنبراتها الحانية:

- بخير، لا تقلق يا «كي».
- «ري»، ظننتُ أنني فقدتُكِ.. خفتُ كثيرًا. «ري» لا تُفارقيني أبدًا، كانت فكرة انفصالنا اقتراحًا سخيفًا!
- «كي»، أنتَ مصاب.

أشرتُ لها صوب الكلمات التي تقبع في الظلام، همستُ مرتعدًا:

- يجب أن أُخرجكِ من هنا.. «ري»، هذه الكلمات متوحشة لا ترحم.

- لا تقلق، سنخرج معًا.

صدَّقت على قولها بأن أمسكَت يدي، وانطلقنا في قفزات مسرعة صوب ما بدا لي للوهلة الأولى جدارًا مصمتًا، ما إن عدنا إلى نور الكلمات داخل المصنع حتى سألتُها مبهورًا:

- كيف عرفتِ أن الجدار باب مستتر؟

- من البشر؛ أكثر العقبات التي يصدمون رؤوسهم بها هي بوابات خروج، فقط إن استعملوا رؤوسهم في التفكير.

التفتُّ حولي مستطلعًا، ثم سألتُها بقلق:

- ماذا سنفعل الآن؟

- لقد وجدتُ سجن الكلمات المحظورة. يجب أن نسرع قبل أن تقبض علينا شرطة علامات الترقيم. اصطدمتُ بعلامة تنصيص تبحث عن جُملة هربَت من عناقها، وكاد قوسان يطبقان عليَّ، لولا أن فلتُّ منهما في اللحظة الأخيرة.

- لكن أنا أعاني الألم، وقوتي خائرة. لماذا لا نعود إلى مغارة الكتب السعيدة؟ لماذا لا نتجاهل معرفتنا بهذا المصنع وبالكلمات الحبيسة؟ لنعود إلى حياتنا الهانئة المريحة، ونترك البشر يُحلون مشكلاتهم بأنفسهم، لقد آلمونا كثيرًا، لم يفلت مخلوق من حقدهم وبطشهم، لماذا نهتم لأمرهم؟!

- كلنا يعاني الألم، والحرمان، والنقص؛ البعض يختار الاستسلام، والبعض يقرر أن يكون عظيمًا، وأنا أريد أن أكون عظيمة يا «كي».

لا تعرف «ري» كم هي عظيمة في عيني، كم هي جزء مهم أكمَلني، دونها أنا ناقصٌ، دونها أنا محروم، ليست عظيمة فحسب، بل وأيضًا..

- أنتِ جميلة.

علَت الدهشة وجهها، خملَت حركتها لحظات، ثم دنَت من وجهي تُفتِّش فيه عن أمارات كذب أو مجاملة، لم تعثر في قسماتي على شائبة، كنتُ صادقًا

جدًا؛ ما لبثَت السعادة أن تقافزت في عينيها، خبَّأتها سريعًا مستشعرة خطورة اللحظة، واستطردَت:

- بعد أن ننفذ مهمة الإنقاذ علينا العودة إلى عالمنا الذي ننتمي إليه. الشجرة الأسطورية هي بيتنا، لن يعود كل شيء إلى مساراته الصحيحة ما لم نعُد إليها. هيا الآن.. يجب أن نتحرك بسرعة.

***

ساقتني «ري» إلى حيث تتوجه الكلمات بعد فرزها وعبورها خطوط الإنتاج، كنا في المكان الذي تتألَّف فيه الجُمل، وتتشكَّل معه الأفكار، مالت «ري» على أذني تشرح بينما نسير بسرعة وحيطة:

- العبارات الجاهزة، والتشبيهات المستهلكة، والأفكار المكررة يجمعونها في أشولة من غبار، وهي أكثر ما يُنتجه مصنع الكلمات. يأخذها كُتَّاب حديثو عهدٍ بالكتابة، يُطعِّمون بها نصوصهم الوليدة، دون تقويم أو تهذيب أو إعادة تدوير، فتخرج نصوصهم تقليدية، وصيغهم كليشيهية.

ثم أشارت صوب عبوات أصغر حجمًا، وأدق صُنعًا لا تسع إلا كلمة أو فكرة، عليها علامات بحروف وإشارات، وكأنها موجَّهة إلى شخص بعينه:

- أما المحترفون، فهم لا يحتاجون إلا إلى كلمات مفردة، يجمعونها جُملًا بجهد ومثابرة، يبدون بها نصوصهم بروية وعناية فائقة، كحِرَفيٍّ تستحيل قطعة الخشب الجامدة بين يديه إلى أرابيسك. يصطادون أفكارًا بسيطة يزرعونها في أرض الخيال الخصب. كنتُ أظن أن الأعمال العظيمة لا تحتاج سوى إلى أفكار عظيمة، ثم فهمتُ أن فكرة بسيطة يستطيع الماهر أن ينسج منها عملًا إبداعيًا مميزًا، وفكرة عظيمة قد تصير عملًا هزيلًا إن اشتغلَت عليها الأيادي الخاطئة.

كنا قد وصلنا إلى قاعة فسيحة تنقسم إلى عددٍ لا نهائيٍّ من القنوات، فهمتُ دون توضيح أن كل قناة تصب في عقل أو يد، أو تُغذِّي لسانًا عربيًا أو أعجميًا، فلا حدود هنا لعدد اللغات والأساليب واللهجات.

انتفضتُ فزعًا ما إن وقعَت أنظاري على وحش كبير عملاق، أبيض، لكن ليس بنقاء السحب؛ باهت لم يقتبس شيئًا من نور الكلمات، وقبل أن أميل على أذن «ري»، كي أسألها عنه كانت توضِّح بنبرةٍ رهبة وإجلال:

- إنها الممحاة!

عدتُ أتطلع إلى الممحاة العملاقة التي تُرسَل فوق رؤوس الكلمات التي تدخل إحدى القنوات عن يميننا، حيث وجَّهتني «ري»، ثم أردفَت:

- هذه القناة خاصة بالبلد الذي يمنع النطق بالحاء، هنا تُمحى الكلمات التي لا يجب أن تستقر في عقول سُكَّانها، وتُنزع المعاني التي لا يجب أن تسكن صدورهم، هنا توءَدُ الكلمات في مهدها يا «كي».

شعرتُ بالأسف على الكلمات الموءودة، توهَّجَت في رأسي جمرات الغيظ، والرغبة في إنقاذها، همستُ :

- ماذا سنفعل الآن؟ قلتِ إن الكلمات المحظورة تدخل السجن، لكن الممحاة تزيلها من الوجود.

- السجن في بطن الممحاة يا «كي»، علينا أن نصنع من أنفسنا طُعمًا، لا حل آخر أمامنا.

فوجِئتُ بشجاعة «ري»، رغم أنني أعرفها شُجاعة، ثم بُهِتُّ للحظات، ما تطلبه مني قد يعرض حياتينا للخطر، قد نُسجَن في بطن الممحاة مع الكلمات الموءودة، ولا نعود إلى مغارة الكتب أبدًا.

طافت جميع الاحتمالات في رأسي، وحدها الرغبة في إنقاذ الكلمات المسكينة استقرَت في قلبي، ليس الكلمات وحدها، صحيح أن البشر في هذا البلد البائس آذوا جميع المخلوقات التي كانت تعيش معهم، أبادوهم عن بكرة أبيهم، لكن إذا ساعدناهم لعل كل الأمور تعود إلى نصابها، لعل فيهم من يرفض هذا الظلم، لعل فيهم من يرغب في أن يتحرر.

- هيا بنا يا «ري»، دعينا لا نُضيِّع المزيد من الوقت.

تقدمنا بصدر منتفخ، وحماس فائر، ورغبة قوية في أن نُذكَر في التاريخ كالأبطال: «ري» و«كي» فأران الخُلد العاري، اللذان أعادا إحياء الكلمات الموءودة، وأنقذا بلدًا من الحزن.

وقفنا أسفل الممحاة، أغمضنا أعيننا، والتحمنا في عناق قويٍّ، قبل أن تنزل فوق رؤوسنا بقوة غشيمة تُمحينا تمامًا من الوجود!

***

ولجنا عالمًا جديدًا، إنه مقبرة مصنع الكلمات، عالم موحِش، بئيس، يأوي كل الكلمات المنبوذة، رأينا بأعين تتسع دهشة كل الكلمات الحائية المحظورة مُعلَّقةً من أعناقها في سقف غير مرئيٍّ، وكأنها أجساد مشنوقة، حُكِم عليها بالإعدام بلا عدل، بلا استئناف، بلا دفاع.

- علينا أن نختار الكلمة التي سنحررها.
- لماذا لا نحررهم جميعهم؟
- أخبرتكَ يا «كي». هذا ما قاله مؤلِّف الكتاب؛ يجب أن نُحرر كلمة واحدة.. سلطانة الكلمات. هذه هي الطريقة الوحيدة لنتمكن من الرجوع، وإلا حُبِسنا مع كل هذه الكلمات هنا للأبد.
- لنا فرصة واحدة، يجب أن نحسن استغلالها. في رأيكِ يا «ري»، أي الكلمات هي السلطانة؟ أيها الأحق بالإنقاذ؟

كان الاختيار صعبًا، أصعب مما تصورتُ، ومما خطر في بال «ري»، رأيتُ حيرتها التي لم تختلف كثيرًا عن عجزي عن الاختيار، أمام عيوننا كم هائل من الكلمات التي تستحق الإنقاذ؛ حلم، حل، حرارة، إحسان، حنين، حمْد، فرح، مرح، حُكم، رحمة، حرمان، حرام، حبر، رحيق، حساب، صُلح، لحم، صياح، صلاح، حفظ، حرص، سماحة، منح، حصن، حرث، احتفال، حوار، احترام، حدود، صراحة، استحقاق، شرح، حيوان، حق، بحر، حب وحياة!

أيٌّ من هذه الكلمات قادرة على استجلاب الأخريات؟ أيٌّ من هذه الكلمات إن أنقذناها اليوم، ستأتي بكل أخواتها في الغد؟ أيٌّ من هذه الكلمات هي السلطانة؟ وأيُّها الوصيفات؟ أيٌّ من هذه الكلمات النبع الذي يصب في كل القنوات بالبركة والخير والإنماء؟

كل هذه الكلمات تستحق الحياة، لكن أيها قادر على الإحياء؟

- وجدتُها!

صدحَت بها «ري»، ثم أردفَت، وهي تقترب من إحدى الكلمات المُعلَّقة، وتشير إليها قائلة بثقة كبيرة:

- هذه يا «كي»، إنها الكلمة القادرة على إنقاذ باقي الكلمات.

اقتربتُ من الكلمة، تطلعتُ إلى حروفها المنسوجة بدقة وعناية، حقًا ما أمهر أيادي الخيَّاطات! رحتُ أتذوق وقْع الكلمة على لساني:

- «حرِّية»!

- نعم يا «كي».. «حرِّية»؛ إنها الكلمة السلطانة القادرة على إنقاذ باقي الكلمات.

ثم راحت تتكلم في حماسة، وهي تحرك قوائمها الأمامية في الهواء:

- فكِّر في أي كلمة حائية.. هل تراها تتحقق دون حرية؟ أقول لكَ يا «كي»، إنها الكلمة السلطانة التي نبحث عنها.

معها حق، لا تستقيم حياة بلا حرية، أي حياة بلا حرية هي موت بلا إعلان وفاة، رغم ذلك، لا يزال في نفسي شيء، شك بسيط، طفيف جدًا، لكنه مزعج، راقبتُ «ري»، وهي تتقدم صوب «الحرية»، تتسلقها، تُقبِّل رأسها، وتمسح بحنان فوق حروفها المُنهَكة، تمد قائمتيها صوب عُقدة الحبل، كي تحلّه وتحرر عنقها، كادت تفعل، لكنني صرختُ بغتة:

- توقفي!

رمقتني «ري» بدهشة، خاصةً وقد رأتني أتقدم من إحدى الكلمات المتوارية خلف أخواتها، كانت عجوزًا جدًا، وكأن عمرها ملايين الأعوام، رغم ذلك في وجهها نضرة وكأنها لم تُستهلَك كثيرًا، وكأن الأيادي كانت ولا تزال تنبذها، أو لعلهم فقط لا يعرفونها، ولا يقدِّرونها حق قدرها.

جاورتني «ري» تتطلع إلى الكلمة بدهشة.. تفكر، بينما عيناها تتنقلان بين الكلمة التي اخترتُها وبين «الحرية» التي اختارَتها، تسألني بشك:

- هل أنتَ واثق؟

حسمتُ أمري، نعم أنا واثق، أجزم أنها الكلمة السلطانة التي ستحرر باقي الكلمات، وتنقذ البلد الحزين.

- نعم يا «ري»، إنها السلطانة.. هذا ما يحتاجه الناس حقًا. إن فتشوا عنها.. إذا حاذوها.. إذا آمنوا بها.. إذا رسموا خرائطهم وفقًا لها؛ ستتحرر باقي الكلمات.

الشك لا يزال يتربَّع في مكانه بصدرها، التفتُّ إليها، أمسكتُ بكتفيها، ناشدتُها:

- ثقي بي هذه المرة، لن تندمي، أعدكِ.

لم يكن قرارًا سهلًا، أعرف، لم يكن لديها ما يكفي لتثق بي، أعرف، لكنني وددتُ كثيرًا أن تفعل، أن تؤمن بحدسي. اتسعت ابتسامتها، وقد حسمت أمرها:

- أثق بكَ.. هيا لنُحررها إذن.

***

جفَّ الهواء، واجتاحتنا عاصفة غبارية، كنا نهوي، السقوط مبتدأ الطريق ونهايتها، وكأننا نعيش الحياة بين سقطتين.

لفظتنا الشجرة عند أطراف الغابة، كان الظلام حالكًا، استغرقنا بعض الوقت حتى استطعنا الرؤية تحت كشَّافات القمر، دخلنا أحد عوالم الشجرة الأسطورية اثنين، وعدنا منه ثلاثة؛ أنا و«ري» والكلمة السلطانة.

ما حدث لاحقًا كان مقررًا منذ البداية، الوسيلة الوحيدة كي نعيد زراعة الكلمة المُحررة في صدور البشر هي عن طريق أكلها، ثم عضِّهم! ستذوب الكلمة في أفواهنا، وتفرز عصارتها النادرة، ستتشبع بها دماؤنا وخلايانا وإفرازاتنا، ومثلما كان للفئران دورٌ في إصابة البشرية بلعنة الطاعون، سيكون لي ولـ «ري» الفضل في شفائهم من مرض معاداة الكلمة.

كانت الكلمة ليِّنة بين قوائمنا، لكنها صلبة كذلك، حليمة وعفيَّة، ناعمة وقوية، بسيطة وثرية، تجمع متناقضات العالم في كفيها، تقاسمناها أنا و«ري»، وضعتُ نصفها في فمي، وكذا فعلت بنصفها الآخر، ذابت في وجداننا في اللحظة نفسها.

وعندما رحلنا عن الغابة كنا أربعة؛ أنا و«ري»... ونصف كلمة «الحقيقة» بداخل كلٍّ منا!

***

أمضينا الأيام التالية في اختيار من سنحقن في دمائهم «الحقيقة»، أدركنا أن للكلمة قوة سحرية، تُعظِّم قدْر من آمن بها، وسعى إليها، وتُهلِك من أنكرها، وحاول طمسها، تكاثرت حوادث الاحتراق الذاتيِّ في البلد، أشفقتُ عليهم، لكنني كذلك كنتُ مؤمنًا أن القيمة مُقدَّمة على المصلحة الفردية.

وفي ليلة شديدة البرودة قفزتُ إلى غرفة منفردة مُشيَّدة على مساحة صغيرة، ظننتُها خالية، ثم لمحتُ بطرف عيني رجلًا حبيس سلسلة معدنية، مُعلَّقة في رقبته، وكأنه محكوم بالشنق، يبدو عجوزًا كالحقيقة، منبوذًا مثلها.

لم يَهَبني إذ رآني، ربما هلع لوهلة، ثم حاول أن يقترب مني بشكل ودود، بعكس ما يفعله البشر عادةً من محاولة قتلي فور رؤيتي. كان كريه الرائحة، هزيل الجسد، سقيم النفَس، مُخرَّب الثياب. أشار صوب دعامة خشبية بالجدار، تجر السلسلة المعدنية، ويشير إلى أسنانه، ثم إلى أنيابي، ففهمتُ أنه يرغب في أن أحرره.

لم تكن مهمتي، كان بإمكاني عضُّه، أو ترْكه دون عض وأنصرف، لكن وقع في نفسي أنه -على رقَّة حاله، وهوان مآله- شخص مؤثِّر؛ أن بيده مبتدأ الحكاية ومنتهاها، أنه الحياة بين سقطتين!

عضضتُه في ساقه حانقًا ترياق «الحقيقة» في جسده الفاني، فرأيتُ إشارة الإدراك الأولى تومض في عينيه، ثم عكفتُ على محاولة تحريره، لم يكن الأمر سهلًا، لم أطلب من «ري» مساعدتي كي لا أُعرِّضها للخطر، فالمكان من حوله يعج بالبشر الذاهبين والآيبين، أمضيتُ أيامًا ثم أسابيع في محاولة تحريره، كنتُ أنظر إليه، وكأنه هيكل مجسد لـ «الحقيقة» التي تعاونًّا أنا و«ري» على تحريرها.

وأخيرًا، تمكنتُ في يومٍ بهيج مشرقة شمسه من خلخلة الدعامة الخشبية، تمكنتُ لكن يبدو أنني لن أرى تتمة هذه الحكاية، ككل الحكايات التي تولد على أيدينا دون أن نتمكن من إنهائها، وكأننا نأتي إلى هذه الحياة نحمل راية، نعيش بها، ثم نُسلِّمها إلى غيرنا عندما تأفل شمسنا، وأنا قد أفَلَت شمسي.

لم أمُت حزينًا، أو خائبًا، أو محرومًا؛ كنتُ شجاعًا، قويًا، ملهمًا، تركتُ الأثر الذي لطالما تمنيتُ أن أُخلِّفه كأبطال الحكايات التي أكلتُها. سأشتاق إلى «ري»، ستكون وحيدة دوني، وحيدة لكن قوية، سأنتظرها إلى أن تلحق

BOOKS

بي، حيث المصير الذي أعده الله لأجل أمثالنا من الحيوانات، لا أعرف كيف سيكون، ربما جنة، ربما ترابًا، لكنه بالتأكيد سيكون مصيرًا جميلًا.. جميلًا مثلي.

أغمضتُ عيني مبتسمًا، راضيًا، مُتنعِّمًا، يكفيني أنني لم أمُت قبيحًا.

***

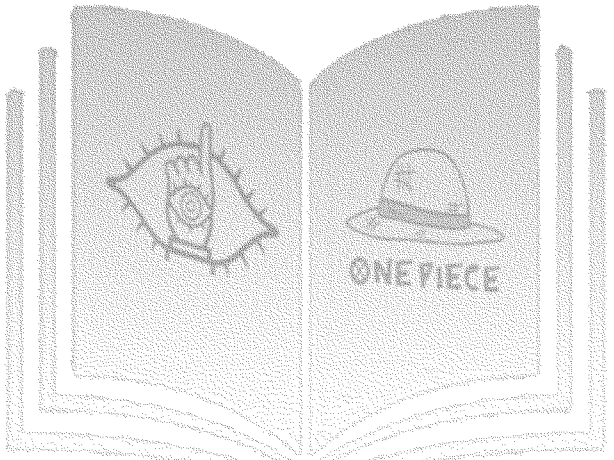

(58)

البلد الذي يمنع النطق بالحاء

انتهى حصان الكتابة الجامح من الركض المحموم فوق مراعي الحرف، على أطراف سهول الحياة الشاسعة، شددتُ اللجام، فتوقف لاهثًا، متعرقًا، خفيفًا، وجائعًا، أرجعتُ ظهري إلى المقعد داخل الغرفة المثلثة، متعبًا، شغوفًا، ممتنًا، وناقمًا.

حارس المكتبة الذي انطفأت إحدى عينيه بغتةً، ووضع فوقها قطعة جلد جعلته أشبه بأحد قراصنة الفايكنج. كان منكبًا على عمله الغامض غير مدركٍ للعالم الذي بدأ، وانتهى في عقر مكتبته الليلية، كان مع «شُعلة» كل الحق، إن لم تنتهِ الرواية ستتداعى الحبكة، وتتماهى الوجوه، كأنها خُلقت من عجينة واحدة.

عندما يصل الكاتب إلى تتمة روايته تزوره جميع المتناقضات في آنٍ، لذا يكون مضطربًا ومشتتًا عند النهايات بأكثر مما كان عند البدايات، إنها لذة الاحتراق ببطء. أضِف إلى ذلك أنني لستُ كأي كاتب، وتلك لم تكن كأي رواية، بكلمة «تمت» لم أُنهِ عالمًا مختلقًا لفأر حقق حلمه في أن يكون فارسًا مغوارًا، بل أنهيتُ حلمي في أن أكون مع المرأة الوحيدة التي خفق لها قلبي، أغلقتُ الباب الوحيد المفتوح بين عالمينا.

كنتُ قد أخذتُ من الحارس بضع ورقات من فرع شجرة الدردار الذي سبق وأن كتبتُ فوقه روايتي، وفوق الورقات القليلة دوَّنتُ الخاتمة. ومن بين سطور الخاتمة شرعتُ في الكتابة:

- هل أعجبتكِ النهاية؟

كنتُ أثق أنها حاضرة هناك، في انتظار كلماتي تُلوِّح لها من بين السطور، لذا لم أتعجب عندما أجابتني سريعًا:

- إنها رائعة! وكأن رواية كلٌّ منا تُكمل حياة الآخر، وكأن الخيال والواقع يسافران في مسارين كرويَين مختلفين، ثم يعودان ليلتقيا في نقطةٍ ما على حواف الدائرة.
- وكأن وجودي يُكمِّلكِ، ووجودك يُعوِّض أجزائي الناقصة.
- لهذا ما كان بإمكاني أن أُنهي روايتي قبل أن تفعل أنتَ.
- روايتكِ الأخيرة.
- نعم، الأخيرة.
- وإذا سألكِ أحدهم لماذا توقفتِ عن الكتابة، بماذا ستجيبين؟
- بالطبع لن أقول الحقيقة، لن أقول إنني انطفأتُ.. إنني أفلستُ من الأفكار. سأقول إن تجربتي الأخيرة كانت مرهقة؛ مرهقة إلى الحد الذي استنزف جميع طاقاتي، وهي الحقيقة نفسها لكن بوجهها الآخر.
- كيف الألم؟
- لا يتوقف، أو يتوقف، لكن لكثرة اعتيادي له لم أعد أشعر بتوقفه، كجلوسك بجوار مكبر صوت لوقت طويل، حتى وإن انطفأ سيستمر رأسك في الطنين.
- إن قلتُ لكِ إنني أشعر بنفس الألم الذي وصفتِه، هل ستصدقينني؟
- أصدقكَ.
- هل تعمَّدتِ ذلك؛ كمحاولة إسقاط ألمك على آخر؟
- لم أتعمد أي شيء تفعله الآن، أو تقوله أو تشعر به. أنتَ رسمتَ مسارَكَ بنفسك منذ وقت طويل، لذا لم أعُد أندهش من كونكَ تُدهشني!
- وددتُ لو أقول إنني سأفتقدكِ، لكن الشوق عادةً ما يكون تجاه شيء بعيد.. غير ملموس. أما في حالتنا، أنتِ بعيدة جدًا كالنجوم، وقريبة جدًا كالدماء في العروق.

- أحيانًا نشتاق إلى الأشياء القريبة بأكثر مما نفعل مع الأشياء البعيدة، أحيانًا يكون الشوق لا للشيء نفسه، بل للطريقة التي نريد له بها أن يكون.
- إذن أشتاق إلى أن أكون شخصًا عاديًّا في عالم عاديٍّ يلتقي بفتاة عادية بطريقة عادية.
- ربما لو حدث ذلك لملَّ أحدنا الآخر منذ اللحظة الأولى. أحيانًا تجرنا الحياة صوب خيارات مثيرة ومدهشة لندرك عظمتها وروعتها. أحيانًا تُعلِّمنا الحياة دروسها بطرق أكثر ألمًا من عصا المُعلِّم.
- اللذة والألم.. لا يمكن لأحدهما أن يوجد دون الآخر، أليس كذلك؟
- لهذا وُجِدت المتناقضات، كي تحقق وجود بعضها. تخيَّل حياة فيها خير بلا شر.. حب بلا بُغض.. أبيض بلا أسود؛ إنها ليست حياة رتيبة فحسب، بل ميتة كذلك.

***

- لماذا البلد الذي يمنع النطق بالحاء؟ من أين أتيتِ بهذه الفكرة؟
- في عوالم الإغدراسيل، قابلتُ رجلًا زائرًا مثلي استدعته الشجرة الأسطورية في نومه، هناك حكى لي عن فتاة قابلها في أغرب مكان قد يلتقي فيه رجل وامرأة، روَت له هذه الحكاية، وحكايات بلدان أخرى كثيرة[1].
- أين تقابلا؟
- لم يخبرني.

زارنا الصمت لثوانٍ، ثم كتبتُ والأسى يقطر من كلماتي:

- لم يتبقَّ سوى فراغات قليلة بين الأسطر.
- كل شيء يحظى بميلاد عليه أن يأفل وينتهي.
- الوداع الأخير إذن؟
- دعنا لا نُسميه وداعًا، فلنقل -مثلًا- إنه الغروب الجميل.

(1) رواية "جثة في بيت طائر الدودو"، للمؤلفة.

- أحب الشروق أكثر.
- لولا الغروب لَما أشرقَت الشمس أصلًا.

انتهَت الفراغات كما كُتِب على كل شيء أرضيٍّ أن ينتهي، لو كان للشخصيات الروائية جنة، فسأطلب من الله في الجنة أن تُجمَع النهايات، ثم تُرجم ثم تُشنَق ثم تُحرَق، ما من شيء أوجع الإنسان في ربوع الدنيا بقدر النهايات.

ثمة ورقات قليلة خالية كانت فائضة على الخاتمة، أخذتُها وألقيتُ بها في السلة، ووقفتُ هناك أنظر إلى اللاشيء بأعين لا ترى. هل عليَّ أن أبكي؟ لم أشعر بأنني أملك طاقةً لفعلٍ هادر كالبكاء، لكنني انزويتُ في ركن المكتبة، فوق الأرض رحتُ ألملم شعث نفسي، دون جدوى، كنتُ منهكًا، ومستهلكًا، وهالكًا في آنٍ.

فقدتُ «رفيق» إلى الأبد، ما عاد بإمكانه مسايرتي في جنوني كما يقول، عليَّ أن أعترف بهشاشة صداقتنا من البداية؛ صديق تضطر إلى ارتداء قناع كلما لاقيته لهو صديق زائف. الجميل في الأمر أنني لن أتذكر كل ذلك، ما إن تخط «شُعلة» الكلمة السحرية «تمت»، ويبدأ أول قارئ في قراءة الرواية حتى أعود لأكرر الأحداث نفسها من جديد، دون أن أتذكر شيئًا عما سألاقيه لاحقًا، وعندما يصل القارئ إلى «تمت» تنتهي حبكتي، وأقبع في ظل رفوف المكتبات، تحت مظلة أغلفة الكتب، نائمًا في هوامشها، حيث يتجمد الزمان والمكان والحدث، أنتظر أن يمسك القارئ التالي بالكتاب.

وهكذا سأظل أدور وأدور في حبكة مغلقة، حتى مجيء اليوم الذي تقوم فيه قيامة الشخصيات الروائية: أي اليوم الذي تختفي فيه كل نسخ الرواية من الوجود، عندها فقط سوف أموت.

الرجل الحقيقيُّ عندما تسرق الريحُ خيمته؛ يصنع من ذراعيه بيتًا لأحبائه، ماذا إن تجرأت الريح على سرقة أحبائه؟

أشتاقها من الآن، انتهت هذه الحكاية، فلماذا لا تجمعنا حكاية جديدة، أو اثنتان أو ألف؟ أنا كاتب الظِل، وهي ظِل الكاتبة.

«لم أتعمد أي شيء تفعله الآن أو تقوله أو تشعر به، أنتَ رسمتَ مسارَكَ بنفسك منذ وقت طويل، لذا لم أعد أندهش من كونكَ تُدهشني!»، ترددت أصداء كلماتها بداخلي لدقائق مضت ببطء، ثم انحنيتُ ألتقط الأوراق التي ألقيتُ بها في السلة، عدتُ إلى المكتب، وضعتُها فوقه، أمسكتُ بالقلم، وفي منتصف الصفحة رحتُ أكتب: «الفصل الأول».

ومن أول السطر كتبتُ: «وفي الوقت الذي غربت فيه الشمس هنا، كانت في اللحظة ذاتها تُشرق فوق أرض جديدة، في الطرف الآخر من العالم، ومن نفق عميق في أحشاء الغابة تصاعد صوت صرير خمسة فئران وليدة، يكتبون بأقدامهم الصغيرة فوق التراب حكاية جديدة، عن البلد الذي يأكل الخميس، في هذا البلد كان ثمة عادة غريبة، وهي إسقاط يوم الخميس من أيام الأسبوع واقتصاره على ستة أيام، وفي أحد الأزمان قدِم رجل غريب إلى البلد الغريب، لم يخبره أحد بسر الخميس، حتى سمع هزيم الرعد في ليلة شتوية ممطرة، ورأى ألسنة البرق تمتد من السماء إلى قمم شجرة عملاقة نبتت في منتصف ساحة السوق، في تلك الليلة عرف السر الذي أدهشه وأفزعه في آنٍ، فقد كان...».

كنتُ أقبض بقوة على القلم الذي لا ينفد حبره، يبدو أن مداده ماء خيال لا ينضب، استمر القلم في الرقص فوق الأسطر، يملأها ببناتٍ لا حصر لهن ولا عدد، إذا كانت الأفكار قد نضبت من رأسها، فلا يزال الكثير يرقد في جعبتي، إذا كانت هي كاتبتي، فلماذا لا أكون أنا مُلهمها؟

أحيانًا يجد الكاتب إلهام روايته الجديدة في روايته السابقة؛ جملة، أو حدث، أو معلومة أو اسم، أو شخصية تفتح أمامه أبواب عالم روائيٍّ جديد. انتظرتُ بأمل، لدقائق قليلة، ومن بين الأسطر أشرق رسمٌ يدويٌّ بقلم حبر، فشعرتُ بنوره ينعكس مباشرةً على وجهي؛ «☺».

***

يعمل مساعدًا لشرطي مُجِد، إلا أنه يدرك أن هذا الشرطي الذي يصغره بأكثر من عشر سنوات لديه شعور زائف بالامتلاء. كان ليكون أكبر منه رتبة، أو على الأقل في رتبة مساوية له، لولا أن هذا الـ «مؤيد» لديه طرق خبيثة في نيل رضا القائد، وفي استصغاره، الآن باتت الترقية قاب قوسين أو أدنى.

كاد يعانق النجوم، يقطف بعضها، ويُهديها لنفسه وِسامًا على صدق توقعاته، يود لو يرى وجه هذا الـ «مؤيد» المتعجرف بعدما يثبت له أنه كان مصيبًا في ظنونه. مع الأسف، لم يجده بمكتبه، فخرج من مركز رقابة الأبجدية متوجهًا صوب بيت البستانيِّ، مُمسكًا بيده تقرير الطب الشرعيِّ الذي أثبت وجود عضَّة ناتجة عن الفك نفسه في ساقَي الرجلين المشتعلين من الداخل: أي أن كلام البستانيِّ عن العضَّة لم يكن كذبة أو خدعة.

كان بيت البستاني خاليًا منه، الباب لم يكن موصدًا جيدًا، ففضَّل انتظاره بالداخل، البيت على وضعه كما تركه في المرة الأولى، أمسك بالتقرير يعاود قراءته بابتسامة واسعة، العضَّة هي السبب في الاشتعال الذاتيِّ البشريِّ، بات واثقًا من ذلك، بقي له أن يعرف «كيف؟»، وهذا البستانيُّ قادرٌ على مساعدته في إيجاد الإجابة الشافية.

- آه.

صرخ بها متألمًا بعدما شعر بألم رهيب في ربلة ساقه، كشف عن بنطاله، فاكتشف وجود عضَّة يسيل منها الدماء، جُن جنونه، طفق يدور في البيت يُفتِّش عن مصدر العضَّة، بالتأكيد لم ينبت للهواء أنياب!

ومن شق بالجدار تمكن في الثانية الأخيرة من رؤية ذيل طويل ورفيع لكائن يفر من البيت هاربًا، خرج يفتش عنه، دون جدوى، هل هذا معقول؟ هل ثمة مخلوق غير بشريٍّ يعيش في بلدتهم؟ هل يُعقل ذلك؟

عاد إلى بيت البستانيِّ بذهنٍ شارد، يشعر في موضع العضَّة بألم شديد، وكأن المخلوق اللعين دسَّ ماء نار في موضع العضَّة. ليس الألم فقط؛ ثمة شعور آخر يتسرب من موضع العضَّة عبر خلايا جسده، شعور عجيب وكأن ستارًا أسود يتكشَّف عن سمعه وبصره وفؤاده رويدًا رويدًا، تتوافد الذكريات على عقله، قديمة جدًا، قبل قانون الأبجدية، ذكريات دمار، وموت، ودماء.

مشاهد تتتابع أمام ناظريه وكأنها تقع الآن، الزمن جالس في مكانه لا يدور، بينما المساعد يتقلَّب فوق نيران «الحقيقة»، كيف بدأت «الحرب»؟ وكيف تأججت نارها؟ وكيف تعاظمت آثارها؟ ماذا فعل الناس ببعضهم بعضًا؟ كيف خلعوا إنسانيتهم، وعلَّقوها فوق مشجب شعارات زائفة، وقناعات

بائدة، ودوافع فاسدة؟ كيف قَتلوا وقُتلوا؟ كيف ماتوا وأمَاتوا؟ كيف حوَّلوا الأخضر إلى رماد، والماء إلى بخار، والأرض إلى خراب؟!

وعندما عادوا لارتداء الإنسانية المُعلَّقة على المشجب، وجدوها أكبر من أن تسعها مقاساتهم، ففتشوا عن مذنب، لأن الناس مغرومة بالتفتيش عن مذنب، فلم يجدوا سوى «حرفٍ» من الأبجدية، يعلقون في رقبته كل خطاياهم وآثامهم.

فاق المساعد من سكرة «الحقيقة»، شاعرًا بالنار تشتعل من داخل جسده، تلهب أعضاءه، وتشوي فؤاده، وتذيب خلايا قناعاته البائدة. كان على وشك الاشتعال من الداخل، عندها دخل البستانيُّ البيت ببسالة رجل إطفاء.

***

عندما كان «مؤيد» يتأمل سابقًا شجرة الدردار العملاقة في نهاية الغابة، كانت بالنسبة إليه ليست أكثر من موقع جريمة، ثم ظِلًا لأسطورة قديمة عن شجرة مشابهة، لكن لم يخطر له ببالٍ أنها أكبر من كل ذلك، لم يفكر قط أن ثمة أنفاقًا صغيرة «تحت» الأرض تبدأ من مواضع متفرقة في البلد، كمخزن المشغل، ومخبز، ومعصرة، وزقاقٍ خلفيٍّ مهجور، ودورة مياه مصنع السردين، تقود جميعها إلى مغارة تقع تمامًا أسفل شجرة الدردار.

عندما قادته «نداء» صوب مخزن مشغلها، ورفعَت غطاءً أرضيًّا عن باب سريٍّ يقود إلى نفق صغير وضيق، لم يتوقع عندئذٍ أن النفق سيقوده إلى قلب الغابة، وأن يصل بهما إلى أسفل الشجرة. بمساعدة الكشَّاف الكهربائيِّ الذي تُمسكه «نداء» في يدها، تبدد الظلام، رفع رأسه، فتمكَّن من رؤية أطراف جذور الشجرة العملاقة، وكأنها ألسنة «مُحنَّطة».

- هنا نلتقي.
- من أنتم؟
- أعضاء نادي الدردار السري.

بعد قليلٍ أتت امرأة مُسِنة، وشاب فَتِي، ورجل قلوق، وآخر عجول، وأخوها الصبي، ثم انتهى الجمع برجل يعرفه، سبق أن رآه في مركز رقابة الأبجدية كشاهد على جريمة مقتل السيد «ك»؛ البستانيُّ ذو العين «الواحدة»، لكن أكثر

ما عصف بكيانه هو رؤيته لمساعده برفقة البستانيِّ، قادمين معًا وكأنهما رفيقا درب!

لم يعرف «مؤيد» أن أحدهما منع احتراق الآخر ذاتيًّا، وأننا جميعًا نعيش في هذه الحياة بنيران خامدة بداخلنا، شرارة صغيرة تكفي لبعثها، وأننا لبعضنا بعضًا كرجال الإطفاء، نسعى للقضاء على هذه النار النائمة في الأجواف، قبل أن تقضي على الأهل والصحب والأحباب، لكنه يومًا ما سيعرف.

- وماذا تفعلون عندما تجتمعون؟

سألها همسًا مائلًا عليها، مخافة إلقاء الذعر في العيون التي تتطلع إليه بالكثير من الريبة، لولا أن طمأنتهم «نداء» بشأنه؛ شرع كلٌّ منهم يُخرِج من أسفل التراب ومن بين الصخور كُتبًا بائدة، كان يظنها نسيًا منسيًّا، بطونها مملوءة «بالحـــاء» وعائلتها الكلميَّة، يمارسون فِعل القراءة والكتابة بصمتٍ مطبق، لا ينطقون خلاله إلا كلمات عادية، أليفة، مطيعة، ومرْضيًّا عنها، بينما الكلمات التي «تُصافح» أعينهم، وتستقر بعقولهم كانت متمردة، عفيَّة، ومغضوبًا عليها.

أجابته همسًا:

- نمارس كل ما مُنعنا منه ظلمًا وعنوة. ليس ذنبنا أن آباءنا وأجدادنا أساؤوا الاختيار!

ومن خلف صخرة كبيرة أخرجت «نداء» خمسة فئران صغيرة، ضمَّتهم بين كفيها، ثم اقتربت من «مؤيد» الذي انتفض فزعًا للوهلة الأولى، قالت له:

- عثرتُ على الأم قبل أعوام، كنتُ أبقيها هنا؛ أطعمها وأراعيها، إلى أن فارقتني. لم يسبق لي أن رأيتُ شيئًا مثلها.. أتعرف؟ عادت الفأرة منذ أيام قليلة.. عادت لتلد صغارها الخمسة، تتركهم هنا. يبدو أنها أدركت أن هذا البلد ينقصه مثل هذه المخلوقات الجميلة، ثم اختفت الفأرة الأم ثانيةً، هذه المرة للأبد. رأيتها تجر جثة فأر آخر صوب شجرة الدردار، وكأنهما.. وكأنهما عائدان إلى العالم الذي ينتميان إليه؛ هذا هو سري الثاني.

كان سرها الثاني مُزلزِلًا بأكثر مما فعل الأول، كانت أمه تُعلِّمه عن هذه المخلوقات التي كانت تجاور الإنسان في البيوت والشوارع، والقفاري والغابات، لكنه لم يسبق له أن رآها على الطبيعة، لولا أنه لم يرغب في أن تستشعر فيه «نداء» شيئًا من الجبن لرفض «احتضانهم» عندما وضعت المخلوقات الخمسة الصغيرة بين كفيه.

كان ملمسهم ناعمًا، طريًا، شعور لم يسبق أن زاره يومًا، مع كل ثانية يمضيها داخل النادي كان يختبر «حياة» جديدة تمامًا، مُنع من عيشها.

تلقَّفتْ نداء الصغار وأعادتهم خلف الصخرة الكبيرة مع ماء وغذاء، وعندما وقفا متواريَين في ركن قصي بينما الجمع مستمر في لمس الكلمات وتذوق المعاني «المحرمة» عليهم، أخرج المغناطيسين من جديد ليتشوَّش عمل الطوق، ثم قال:

- هذه «الحياة» الجديدة تُخيفني، وكأنني طفل يتعلم أولى خطواته في عالم مجهول لم تدركه «حواسه» بعد.
- كل جديد مخيف.
- يشغلني أمرٌ آخر؛ كيف سنجعل الناس بالخارج يدركون أن ثمة «حياة» أخرى لا يعرفون عنها شيئًا؟ كيف سنُسقط قوانينهم، وننهي الحياة البائسة التي ارتضوها لأنفسهم؟
- ربما ليس عليكَ أن تقرر لغيرك، فقط تختار الطريق التي ترضاها لنفسك؛ سيأتي كل تغيير في وقته.. لا تتعجل.

سيكبر نادي الدردار السري حتى يضم أهل البلد جُلهم، وعندها سينهار جدار النار من تلقاء نفسه، سيتحد الناس في بلد واحد لا ينبذ أيًا من حروف الأبجدية، سيسعون لإنقاذ كل من شرب من نهر الجنون، وسيجتمع بأمه بلا خوف أو فراق، يؤمن بهذا.

- لعلكِ «محقة»، لكنني ما زلتُ خائفًا.. الحياة متناقضة بشكل عجيب.
- التناقض من شيَم العالم، كلما زادت قدرة الإنسان على التوفيق بين المتناقضات؛ كان تفكيره أكثر مرونة وإبداعًا. ألم يُصِغ آينشتاين نظريته بشأن النسبية بناءً على تنقُّل مجسَّم وسكونه في الوقت نفسه،

وفقًا لموقع الشخص الناظر إليه؟ نعم، «الحياة» متناقضة.. لكنها جميلة أيضًا، أليس كذلك؟

خفق قلبها مع نطقها لأول كلماتها الحائية، وسعدَت لكون كلمتها الأولى ملونة نابضة وعفيَّة.

- جميلة، إن كان لي فيها رِفقة، إن لم أمضِ في دروبها «وحدي». إن تقاسمتُ لذَّتها وأخطارها وأسرارها مع شخص يُشبهني؛ جميلة إن كنتُ برفقة...

صمت ثواني ثلاثة، ثم همس ساعيًا لإدهاشها، فلا أروع من محاولة إدهاش المرأة التي يحب، المرأة القادرة على أن تطبخ الحب في ساحة حرب:

- «حبيبتي».

استنار وجهها بصنوف الدهشة، صدق قلبها الذي كان يخبرها دومًا أنها ستُنادَى بكلمة شديدة الخصوصية، خُلِقَت لأجلها، لم تمس شفتَي رجل غيره، ولم تطرق أسماع امرأة قبلها، لا في خطابات العشق، ولا في لقاءات الهيام، على طول هذه البلدة وعرضها.

بـ «فرحةٍ»، و«راحةٍ»، و«صراحةٍ» و«حرارةٍ»، و«مَحبَّةٍ»، و«سماحةٍ»، و«رحمةٍ»، و«احتفاءٍ»، و«تحرُّرٍ»، و«جموحٍ»؛ همسَت له:

- هذا هو سري الثالث والأخير.

نزعَت شعر رأسها المستعار بلونه الباهت الذي ما وجده أبدًا يليق بها، وهي امرأة الألوان، تُلقيه أرضًا، ثم تُطلق العنان لشعرها الأصهب الثائر بلونه «الأحمر» الوهَّاج؛ اتسعت عيناه تستوعبان الطبيعة التي توَّجَت فوزها على البشرية، في معركة التشويه والتحجيم وتحريف الفطرة السوية.

تمت

(59)

عناق برائحة الورق

في عالمٍ يتحول فيه كل شيء إلى أيقونات وشفرات، وملفات وتطبيقات، ومعلومات داخل شاشات صماء لو مُحِيَت سينطفئ العالم؛ علينا نحن الكُتَّاب أن نستمر في حماية الكتاب الورقيِّ من الانقراض، علينا أن نكتب، حتى وإن لم نفُز بمجد الكتابة.

كنا في البداية نقول من باب التنكيت: «لدينا كاتب لكل قارئ»، والآن صرنا نتمازح بـ «لدينا كاتب ظِل لكل كاتب واجهة»! بغتةً، اختفى الكُتَّاب الحقيقيون من العالم، لا أعرف هل قُضِيَ عليهم، أم قَضَى بعضهم على بعضٍ!

أنا كاتب ظِل، لكنني لم أتمرَّد مثل بطل روايتي، أنا راضٍ بالظِل، الدجاجة لا تحزن عندما يأكل الناس بيضها غير المُخصَّب، فهو في جميع الأحوال لن يفقس إلى كتكوت.

- رواية جيدة.. اشتريتُ.

رمقتُ سمسار الروايات بشيءٍ من البهجة والتقزز في آنٍ، صحيح أنني أكتب، وأبيع ما أكتب، ليشتريه شخص يعجز عن كتابة رواية جيدة، فيُذيِّلها باسمه، وأن هذا الرجل الجالس أمام مكتبه يعمل في سمسرة الروايات، وهي مهنة مستحدثة بدأت في البزوغ منذ زمن قريب، يأخذ الرواية من كاتب الظِل ليبيعها إلى كاتب الواجهة كما أحب أن أدعوه، ويحصل في المقابل على عمولة جيدة.

رغم ذلك ما زلتُ أشعر بالتقزز في كل مرة أنجح فيها في بيع رواية، ربما لأجل المبلغ الزهيد الذي يلقيه السمسار في كفي، وربما لأجل الاحتفاء الذي يذهب إلى شخصٍ لم يبذل في الرواية حرفًا، بينما لا أحظى أنا بكلمة

ثناء واحدة، باستثناء «اشتريتُ» التي يلقيها السمسار على أسماعي عند كل عملية بيع.

لماذا أستمر ككاتب ظِل إذن؟ لأنني لا أعرف طريقة أخرى تمكنني من أن يقرأني الناس.

البعض مُبتلى بشهوة المال، أو الامتلاك، أو النساء، أو الطعام، أو الشهرة، أو المديح. وأنا ابتلائي في أن يقرأني الناس، أن يلِجوا عقلي؛ يتنزهون فيه بإجلال زيارتهم لمتحف عريق.

لماذا لا أنشر رواياتي باسمي؟ هل تظن أنني لم أفعل؟ فعلتُ، وبإمكاني أن أُهديكَ عشرات النسخ التي لم يقتنِها أحد، لا لرداءة المنتَج، بل لأنني كاتب مغمور، إنها المعضلة ذاتها التي تجدها في الشركات التي تطلب توظيف ذوي الخبرة، كيف ستأتي بالخبرة إن رفض كل صاحب مؤسسة توظيف حديثي التخرج الذين يملكون المهارة والاجتهاد والذكاء، لكن بلا شهادة جودة موقَّعة من شاهدين؟!

- وأنا بِعتُ.

قلتُها وأنا أتحسس فراغ عُقلة إصبع إبهامي الأيمن، التي فقدتُها في حادث منذ زمن بعيد، فتح درجًا صغيرًا بمكتبه، أخرج ظرفًا أبيض به بضع ورقات كافية لإعالتي نصف شهر إن اشتريتُ البزَّة الرمادية التي رأيتُها منذ أيام في واجهة متجر كبير، وشهرًا إن استغنيتُ عنها.

- هل أكتبه باسم السيد «ك»؟

- نعم، كالعادة.

شرع في ملء بيانات العقد الصوريِّ، كنتُ وما زلتُ أستخدم اسم «السيد ك»، بحسَب سمسار الروايات أنه الحرف الأول من اسمي، لذا أحيانًا يدعوني بـ «كامل» أو «كمال» أو «كريم» في خبثٍ مفضوح لمعرفة اسمي، إلا أنه لا يمُت لاسمي بحرفٍ، وإنما كنتُ دومًا مُغرمًا بالكاف التي تحمل في بطنها كافًا صغيرة، وعندما كنتُ أسأل أبي:

- ممن حملَت الكاف بجنينها الصغير؟

يُجيبني:

- أحرف الأبجدية ولّادة بالفطرة، يتكاثر الحرف ذاتيًّا كل يوم ملايين المرات؛ منطوقًا، ومسموعًا، ومكتوبًا، ومقروءًا، لذا لا تتعجب من الكاف الصغيرة التي تحملها الكاف الكبيرة في بطنها، هكذا تولَد كافات الدنيا كل ثانية.

أو ببساطة اخترته لأنه الحرف الأول من «كاتب».

- بالمناسبة، أعجبني اسمها الذي اخترته.. أظنه الاسم الذي ستُنشَر به؛ «عناق برائحة الورق».

ردده وكأنه يتذوقه، سألته بغتة:

- من الكاتب الذي سيشتريها هذه المرة؟

- لماذا تسأل؟

سألني متعجبًا، وحذرًا، ومتأهبًا، هذا سؤال لا يُسأَل، لا يعرف كاتب الظِل اسم كاتب الواجهة الذي سيضع اسمه على عمله، سيكتشف هذا لاحقًا، بعد أن تتم عملية تسجيل العمل واستخراج رقم إيداعه، مخافة أن يحدث ما يُعطل إتمام الصفقة.

سلَّمني صورتي من العقد الذي يُلزمني بعدم إفشاء السر، لعلكَ تظن أن أي موهوب يستطيع بسهولة أن يبني لنفسه اسمًا في عالم كُتَّاب الظِل، أنتَ مخطئ كثيرًا، هذا لا يحدث بسهولة أبدًا، عليكَ أن تبني الثقة بينكَ وبين سماسرة الرواية، حفظ السر في مهنتنا يأتي في المرتبة الأولى، مهما يحدث لن تخبر أحدًا أنكَ كاتب هذه الرواية، وإن حازت مفازات الدنيا والآخرة، وهذا شاق جدًا، يستلزم شخصًا حريصًا على أن يُقرأ بأكثر من حرصه على أن يُعرَف.

- لا يمكنني إخبارك بالاسم، لكن بإمكاني التلميح.

ثم أردف بخبث:

- م. س.

أومأتُ برأسي متفهمًا حرصه على مصلحة عملائه، أردفَ باسمًا:

- سررتُ بالعمل معكَ يا سيد «ك».

صافحني بشيءٍ من الحفاوة، يبدو أن الرواية أعجبته أكثر مما أبدى، هكذا هم سماسرة الرواية، يُشعرونكَ أن العمل سيئ عندما يكون مقبولًا، ومقبولٌ عندما يكون جيدًا، وجيدٌ عندما يكون عظيمًا؛ فقط كي لا تطمع في مالٍ أكثر.

قبل أن أخرج صاح مناديًا:

- الذراع اليُسرى.. ما بالها؟ لم تُقدم تفسيرًا منطقيًّا لشعور البطل أن ذراعه خيالية، هذه ثغرة كبيرة في الرواية؟

أطرقتُ قليلًا ثم قلتُ:

- «صهيل» شخصية استدعيتُها من رواية كتبتُها سابقًا؛ رواية عن بطل فقد ذراعه اليسرى في حادثة مفجعة، تُولَد كل شخصية في رأس مؤلفها بشكل أصيل راسخ، فإذا ما استدعاها الكاتب في رواية جديدة، وحاول أن يطمس معالمها القديمة؛ تظل تشعر بجزءٍ من حياتها السابقة في خفية عن القارئ. أحيانًا تراودها الذكريات كرؤى وفي أحايين أخرى كأحلام يقظة. «صهيل» شخصية روائية استثنائية، تمكنَت من كسر قيود الحبكة وتمرَّدَت على مؤلفها، لذلك استطاع أن يدرك أنه شخصية دخيلة على عالم الرواية، أحس أنه بطل رواية أخرى كانت ذراعه فيها مبتورة.

- لكنكَ لم توضح ذلك في الحبكة!

- بعض الروايات لا تبوح للقارئ بكل أسرارها.

- يثير فضولي؛ كيف خطرَت ببالك فكرة البلد الذي يمنع النطق بالحاء؟

مططتُ شفتي، ورفعتُ كتفيَّ مجيبًا بلا مبالاة:

- أنا رجل كلاسيكي، أستخدم في كتابة الروايات آلة كاتبة لها قصة عجيبة قد أحكيها يومًا، كُسر زِر حرف الحاء ولفترة لم أملك المال اللازم لتصليحه!

يبدو أنه كان ينتظر إجابة أكثر شاعرية، وأعمق في الطرح، رأيتُ الامتعاض على وجهه، لم أبالِ، بعتُ الرواية وانتهى الأمر. غادرتُ المكتب مطلِقًا الصراح لأخبئ ابتساماتي، صحيح أنني كاتب ظِل بنى اسمه بشق الأنفس في عالم

سمسرة الرواية، لكنني لا أريد أن أموت شفافًا غير مرئيٍّ، عشتُ في الظِل، لكنني لن أموت في أحضانه.

«أنا أموت»، هكذا قال السيد «ك» في بداية الرواية، وهذا ما يقوله السيد «ك» الحقيقيُّ الآن، نعم، أنا أحتضر، لم أعد أملك في عداد الدنيا سوى أسابيع أو أشهر، أكثر أو أقل.. ربما. لذا أريد أن أوجِّه صفعة للدنيا على وجهها الذي أشاحت به عني طوال حياتي؛ صفعة لعالم السمسرة، وعالم كُتَّاب الظِل، وعالم كُتَّاب الواجهة، وربما لنفسي كذلك.

هذه الخاتمة التي أكتبها، والتي تقرؤها الآن أيها القارئ كلمة بكلمة، أضفتُها إلى النسخة المطبوعة من الرواية، لا تسألني كيف فعلتُها، لي طرقي الخاصة، ومعارفي القوية في زوايا كل مطبعة في البلد، سيندهش الجميع بطباعة تلك الخاتمة التي أعترف فيها أنني أنا السيد «ك» مؤلف هذه الرواية.

السيد «ك»

تمت

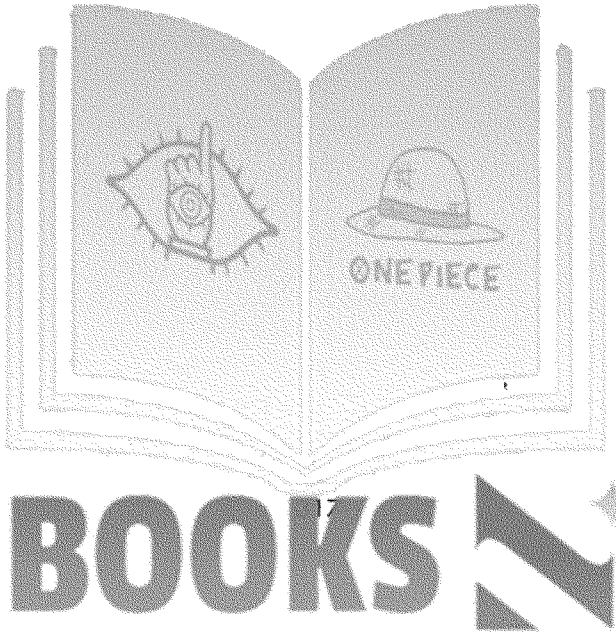

(60)

وقف السيد «ك» أمام مرآة الممر يُعدِّل من هندامه، يشعر بالزهو تجاه الصفعة التي وجَّهها إلى م. س. والصدمة التي ستعلو وجوه الجميع عندما يقرؤون اعترافه في الخاتمة. فجأةً، تبعثرَت بسمته، وارتعدَت أطرافه؛ كان يرى في المرآة انعكاس عُقلة إصبع إبهامه الأيمن سليمةً تمامًا.

م. س.

تمت